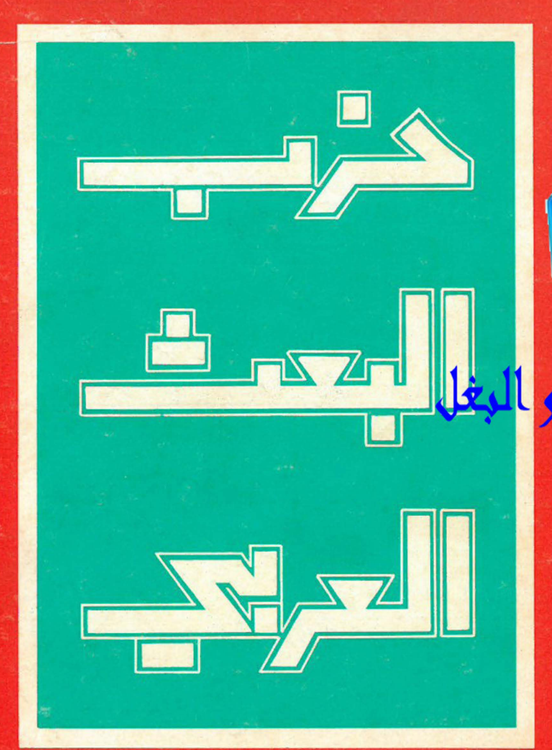
جَلال السيِّد





دار النهار للنشر

جلال السيد

حزب البعث العربي

دار النهار للنشر

دار النهار للنشر

بيروت ١٩٧٣

المحتويات

المقـدّمَة

يجنح أكثر الباحثين بشكل عفوي الى جعل انفسهم قطب الرحى ودعامة الاساس في المنظمات او الاحزاب التي يكتبون عنها حتى يخيّل الى القارىء ان هذه المنظمة او ذاك الحزب انما قاما على كتفي الكاتب وحده وان سائر العناصر التي يضمّها الحزب انما كانت عناصر ثانوية او مساعدة او متممة لمجهود الكاتب .

وفي هذا الجنوح بعض العذر للباحثين لأن الباحث يلمّع نظرتـه ويبرز آراءه الخاصة بينما لا يفعل مثل ذلك في آراء العناصر الأخرى المزاملة له لأنه ليس في صدد بحثها . ولكن هذا لا يعني منا اقرار هذه الخطّة او الرضاء عنها ، وان اعطاء شيء من العذر لا يحلّ الباحثين من مسؤوليّتهم في وجوب التقيّد بالموضوعية والتقليل من الامعان في عرض الاراء الشخصيّة والنظرات الخاصة .

ولقد خطرت ببالي هذه المعاني عندما استذكرت ما كتبه بعض البعثيين عن الحزب وشؤونه وتاريخه ، فقد كان كل واحد منهم يوحي الى القارىء انه قد كان هو كل شيء في الحزب مع ان الحزب لم يكن يعرف عنه الاّ ما ينطبق على اثره وحجمه وبنيته في الحزب . وهذه غالباً ما تكون اقلّ بكثير مما صوّره الكاتب وتحلّى به ولبسه من فعالية في خدمة الحزب وتوجيهه وتسجيل المآثر له . واخشى ما نخشاه ان يقـع لنا ما وقع لهؤلاء الكتّاب وان نسقط في الهوة التي نقدناهم عندما سقطوا فيها .

ومن هنا فاننا نكتب ما نكتب ونحن مدرعون بالارادة الكاملـة والفعالية الذهنيّة غير المتراخية ولا المتكاسلة ليأتي البحث صحيحاً لا

يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ذاك ان الكتابة في حال الكسل الذهني والارتخاء الارادي تجور بالكاتب الى الانخراط في ميدان الانانية والاهتمام بالذات ونسيان شرف البحث العلمي تلبية لنزوات النفس وميولها . على ان هناك عذراً آخر نمنحه للكاتب في مثل هذه الابحاث وهو عذر يجب ان يقدّر بقدره ولا يزيد . فالباحث يعرض الامور من وجهة نظره هو ومن الزاوية التي يرى الاحداث من خلالها . وهذا بلا شك يطبع البحث بطابع شخصي .

وللتخلص من هذا المحذور يجدر بالكاتب المنصف ان يعرض الى جانب آرائه الشخصية آراء الآخرين التي تختلف عن رأيه كي يعطي القارىء فرصة الاطلاع التام ثم فرصة المقارنة والتمييز بين مختلف الآراء.

صحيح ان الكاتب ليس مجبراً على عرض آراء الآخرين وان على الآخرين ان يعرضوا هم آراءهم للناس، لكن الاصح منه ان تكون الكتابة لمصلحة المجموع لا لشهرة الكاتب وحده او للدعاية لمنهجه الخاص . ومصلحة المجموع تملي على الكاتب ان يسلك طريق المشقة ويبرز الافكار المقابلة لافكاره مع افكاره تماماً . ففي هذا المسلك تتوافر الخدمة ويتحقّق الصالح العام .

ولسلامة البحث وخلوه من الشوائب التاريخية والمنطقية فان على الكاتب ان يكون محايداً نزيه القصد خالياً من العقد النفسية والافكـــار الثابتة التي تزين له بل وتضطره الى الانزلاق من منطلقات هي في الاصل تحتاج الى برهان وتحقيق .

واذا كان الحياد على الشكل الذي وصفه « ديكارت » يكاد يكون عسير التحقيق اذا لم نقل انه مستحيل فان قدراً كبيراً من الحياد يمكن تحقيقه بالعزم والتصميم والارادة . ويجب التفريق بين مؤلف يتصف بالديمومة والاستمرار وبين مقال في صحيفة او بين حديث خاص عابر يتصف بالوقتية والاضمحلال السريع .

فالمؤلف يجب ان يحوي الحقائق وحدهـــا بعيدة عن النزوات

والهيجانات، لأن دخول النزوات في البحث تخرجه عن الصراط المستقيم وتقوده الى نوع من الاندفاعات التي تعصف بالقول تبريداً لغلة او اطفاء لظمأ او تعبيراً عن امر مكبوت .

ومن لم يأنس في نفسه مثل هذه الشروط فعليه ان يبتعد عن التأليف وينتحي الى الميادين الأخرى ينفّسٍ بها عما يعتلج في نفسه من لهبِ الافكار وعالج التيارات . والاّ فان المؤلّف سيكون سبة عار على المؤلّف وعلى المكان الذي انطلق منه التأليف وعلى الامّة التي ينتسب اليها المؤلف، لا سيما اذا كان الاجانب الذين يقفون للعرب بالمرصاد قد اطلعوا على هذا المؤلف غير المستوفي الشروط المنطقية واتخذوا منه مقياساً للمدى الذي وصل اليه الفكر العربي والخلق العربي ايضاً . ونحن نحاول في هذا المناخ الذي وصفناه ان نكتب عن حزب البعث العربي .

جلال السيد

١- نشأة الحزب

في نيسان من عام ١٩٤٢ قدمت من بلدي الى دمشق واقمت فيها طول ثلاثة اشهر مستمرة . وكنت أبحث عن أخي وابن عم لي هو صديق مبادىء فوق انه قريب نسب ، وهما اللذان اعتقلتهما السلطات البريطانية لمقاومتهما الحلفاء . وكان مقرهما مجهولاً والشائعات متضاربة حول مكان وجودهما . فمن قائل انهما نقلا الى جنوب افريقيا حيث نقل عدد كبير من زعماء العراق بعد حركة رشيد عالي الكيلاني ومن قائل انهما قد اعدما سرّاً ، ومن قائل إنهما في احدى جزر الهند .

وقد تمّ العثور عليهما في سجن «الميه وميه» في جنوب لبنان قرب مدينة صيدا . وكان التعذيب قد احالهما الى اشباح ولكنهما كانا يشعران بلذة هذا التعذيب لأن لهما قضية يشقيان في سبيلها .

ومن باب المصادفة فقد اجتمعت مع الاستاذ ميشيل عفلق في دار صديق لنا من وجهاء حي الميدان الذي يسكن بالقرب منه الاستاذ ميشيل وكان اجتماعنا حول مائدة عشاء .

وكنت اسمع عن السيد عفلق واقرأ له في مجلة الطليعة . وكنت اعرف انه قد قام مع بعض رفاق له بتأسيس جمعية « نصرة العراق » خلال ثورة رشيد عالي الكيلاني . وقد يكون هو سمع عني شيئاً . وقد دارت بيننا الابحاث وتشعبت وكانت وحدتنا تامة في كل الامور التي بسطناها يومئذ .

وكان هذا اللقاء سبباً في تعطش متبادل للقاء ولقاء . واستمرت الاجتماعات يومياً وقد تتكرر في اليوم الواحد مرّات .

واستمر البحث وكشف عن امور لم يكن يعلمها أحد . وقد عرف السيد عفلق مصادر السلاح الذي كان ينقل الى دمشق من العراق ثم الى ثوار فلسطين ومن الذي كان يتولى نقله ويسهر على تهريب المجاهدين من العراق للانخراط في الكفاح المسلّح ضد الاستعمار البريطاني والطغيان الصهيوني على فلسطين .

ولست اريد هنا الخوض في تفاصيل هذه الامور ولا كشف الاسماء التي قامت بالخدمات القومية التي يتعرض القائمون بها صباح مساء الى الموت او السجن او الابعاد . لا اريد الكشف حتى لا اقع في ما حذرت منه في مطلع هذا الكتاب حينما قلت ان الباحثين يبرزون مواقفهم وآراءهم وحدها دون سواها حتى انهم يلقون في روع القراء انهم هم وحدهم كانوا قطب الرحى ودعائم العمل . ولهذا سوف اجتاز هذه المرحلة مكتفياً بالاشارة اليها من بعيد .

وتعدّدت الاجتماعات بيني وبين السيد عفلق تتناول المواضيع الفكريّة والنظريّة . وكان بعض الرفاق يشاركوننا في البحوث السياسية والفكريّة .

البيطار في نظر عفلق

وبعدما عمقت العلاقة الفكرية والخلقية بيني وبين السيد عفلق سألته عمّا اذا كان يوجد في دمشق شركاء لنا في هذه الاتجاهات فقال نعم . ان لي زميلاً هو الاستاذ صلاح الدين البيطار ، وهو اليوم غائب عن دمشق ، اذ انّه سيقضي في بيروت بعض الوقت ثم يعود الى دمشق .

ومضى السيد عفلق يقول : ان الاستاذ البيطار شريكي في كل هذه الافكار ، وهو شاب متواضع يتصف بالايثار والتسامح ، وكثيراً ما تنسب افكاره الشخصية اليّ وتعرف عنّي بين طلاّبنا ورفاقنا ، وهو لا يتضجّر ولا يعترض ولا يحتجّ ولا يصحح نسبة هذه الافكار ولا يقول انها افكاره . وهو مخلص في مشاعره القوميّة فضلاً عن انه ذو فكر صائب

ونظر ثاقب . وكنت انا ايضاً قد سمعت شيئاً عن الاستاذ البيطار ولكن هذه الاوصاف قد زادتني شوقاً الى لقياه . وما مرّ طويل زمن حتى عاد السيد البيطار من بيروت والتقينا فكان وصف السيد عفلق له صحيحاً .

ولم يلبث السيد البيطار أن أصبح ثالثنا في المنهج والتفكير وسائر النظرات، وتسارعت المودة في ما بيننا نحن الثلاثة واستحكمت حلقات الثقة مما سيأتي بيان ذلك في المكان الخاص من هذا الكتاب .

وفي خلال عام ١٩٤٢ ، ولا اذكر تاريخ اليوم والشهر ، قال السيد عفلق ، ما دمنا متفقين الى هذا الحدّ ، وما دمنا قررنا ان الاحزاب السياسية في هذا البلد لا تستطيع في تركيبها الراهن ان تقوم بالواجبات القوميّة والوطنية ، وما دمنا مؤمنين بضرورة ايجاد تكتل من نوع جديد يحمل على عاتقه عبء القضية القوميّة على طراز افضل مما نرى، فما قولك بتأسيس حزب جديد نكون نحن نواته والمشرفين على تنظيمه . فأجبته بالايجاب بلا تردد ولا اعمال نظر ، لأن الفكرة كانت مختمرة عندي من قبل وكنت ابحث عن العناصر الشريكة في هذا البناء الذي تصوّرته ضرورياً لهذا الوطن .

فسألني عن الاسم الذي يجب ان يُعطى لهذا الحزب في حال قيامه، فقلت له ان الوقت متسع لاختيار الاسم . على ان الاسم يجب ان يكون عنواناً كاملاً لمهمة الحزب ومعبّراً عن مقاصده الكبرى .

وقد وافق على هذه الملاحظة .

وبعد اجتماعات أخرى اتفقنا على ان يكون اسم الحزب (البعث العربي) . ومن المفيد ان يعرف القارىء ان الاجتماعات لم تكن بيننا متباعدة او متباطئة ، فقد نجتمع في اليوم الواحد مرتين او ثلاث مرّات. لذلك كان البحث سريعاً ولا يستغرق اوقاتاً طويلة . ولاختيار هذا الاسم جرت بحوث سنذكر بعضاً منها اتماماً للفائدة وتصحيحاً لما علق في بعض الاذهان من وقائع خلاف ما ذكرت .

اسم الحزب

راجت في الآونة الاخيرة مقالة تزعم ان الحزب قد أسسه المرحوم زكي الارسوزي وان الاسم من وضعه الخاص ، وان الفكرة برمتها قد انطلقت منه . فما هو واقع الحال وما صحة هذا الزعم ؟

وللرد على هذا التساؤل لا بد لنا من المرور بالسيد الارسوزي ولا سيما من الجهات ذات المساس بهذا الموضوع .

لكن قبل ذلك لا بد أن نعلن ان السيد الارسوزي لا علاقة لـه بحزب البعث . وانه لم يشترك في التحضير له ولم يكن مطلعاً حتى مجرد اطلاع على المباحثات التي جرت بيني وبين السيدين عفلق والبيطار بشأن تأسيس الحزب .

واذكر ان السيد الارسوزي قد شاهدنا نحن الثلاثة خارجين من فندق الشرق وكان هو غير متعاطف مع السيدين المذكورين ، وانما هو يرتبط معي بصداقة متينة مذ كان مدرّساً في ثانوية دير الزور في الثلاثينات . وقد اقترب منّي وسألني عن رفيقيّ وعن علاقتي بهما ، فأخبرته اننا ندرس موضوع انشاء حزب عربي شامل ، ونحن لا نزال في الاطوار الاولى من البحث . فقال معلقاً : لا بأس برفيقيك فانهما لم يصبحا شيوعيين . ولم يزد على ذلك ، ولم يسألني عن الحزب شيئاً .

وقد كنا في بحوثنا عن مبادىء الحزب وعناصر الحزبيين نعرض بعض الاسماء من المواطنين السوريين وسائر العرب . وكان يرد اسم السيد الارسوزي ولكنه كان يستبعد عن البحث باعتبار انه تكوّن تكويناً قطعياً ، وانه لا يدخل المعاني الاشتراكية في فلسفته السياسية ، وانه اقرب الى التفكير النازي بل انه اقرب الى التفكير الروماني في تقسيم الناس الى عبيد وسادة ، فهو يقسم الناس الى طبقتين : النبلاء والانذال . وهو فوق ذلك صعب الانضباط ، عسير التنظيم . ومع ان عاطفته القوميّة متأجّجة فانه شديد الوطأة على الذين لا يرون رأيه في الحياة . فهو لذلك منفّر بدل ان يكون سبيل تجميع واصطفاء والتفاف . وكانت نظرتنا

منذ الاساس الى المواطنين انهم يحتوون كل عناصر النبل والشرف وان كل ما يظهر عليهم خلاف ذلك فانما هو بعوامل عرضية وقتية زائلة وان قليلاً من الصقل والمعاناة للانسان العربي تعيده الى معدنه الشريف، بينما كان الارسوزي يرى ان أكثر من نصف الشعب سافل وكان يعبّر عن هذا بكلمة فرنسيّة « Lâche » . وبالجملة فانه كان ارستقراطي الفكر ينظر الى الناس من – فوق – بينما كنّا ننظر الى الناس من مستواهم ومن بينهم ، ونعتبر انفسنا جزءاً منهم نحمل كل صفاتهم الخيّرة والسيئة .

وهذا لا ينفي ان السيد الارسوزي قد كان يمضغ ويردد كلمة « البعث » منذ كان مدرّساً في دير الزور ، وكان يقترح تأسيس حزب بهذا الاسم الذي هو ترجمة حرفيّة لكلمة « رينسانس » التي تعني الولادة الثانية والتي يعبّر عنها بكلمة « بعث » . وكان يردّد مع « البعث » كلمة « نهضة » . وكان هذا كله في حدود البحث النظري المجرد . ولم يتخذ الارسوزي ولا خطوة واحدة عمليّة في سبيل انشاء حزب سياسي على الطراز الذي قام عليه حزب البعث في ما بعد .

جناح الارسوزي

وبمناسبة ذكر السيد الارسوزي وقبل حلول مرحلة البحث التفصيلي في عناصر الحزب فاننا نستبق الوقت ونسجّل انه كان في حزب البعث جناح للارسوزي . وأعني بالجناح فئة من الشبّان انتسبوا الى الحزب ولكنّهم كانوا متأثّرين بمنهج الارسوزي ، مطبوعين بافكاره ، مترسّمين خطاه ، ومقلّدين له بالارادة والعفوية في كثير من المسالك والافكار .

هؤلاء الشبّان كانوا طلاباً للسيد الارسوزي وقد استهواهم بحديثه الطلي وعمق نظره الفلسفي في ميدان (ما وراء الطبيعة) ، وقوته على التشبيه والتمثيل وسرعة خاطره وحضور بديهته ثم في عاطفته القوميّة

الملتهبة والتي هي موجّهة بالارادة والتصميم الى ان تكون عاطفة عربيّة . واعني بكلمة موجّهة بالارادة انها ليست مشاعر منطلقة من النفس وانما اوحى بها العقل واتخذ منها ما يشبه الزينة والزخرف يومذاك . وقد حدّد عاطفته القوميّة وجعلها عربية ، الصراع الذي احتدم في لواء الاسكندرونة بين الفئتين العربية والتركية . ذاك ان تكوين السيّد الارسوزي ونشأة صباه قد كانا ضد الاتراك لاسباب قوميّة وطائفية . فالسيد الارسوزي يعتبر أهل المذهب الحنفي كلّهم اتراكاً . وهو يمزج بين نسب الامام والاتباع . وما دام ابو حنيفة فارسياً فان اتباعه كذلك يجب ان يكونوا من الفرس او الاتراك او من سائر الاقوام المسلمة من غير العرب . وان اتباع الائمة الاخرين هم العرب ما دام ائمتهم من العرب .

هكذا كان السيد الارسوزي يعالج الأمور التاريخيّة والعلميّة والاجتماعية . وهذا العلاج تتحكّم فيه العاطفة الجيّاشة والحماسة القومية حتّى تعطل فيه المنطق والواقع والمعقول احياناً . وان الفئة البعثية التي قلنا انها تؤلف الجناح الارسوزي تسير هي ايضاً على هذا المنوال في النظر الى الامور . وغالب هذه الفئة هي من اللوائيين . وقد انضمّ اليها طلاب من غير اللوائيين . والتّف الجميع (عقدة) داخل حزب البعث عرفت بقسوتها وشدتها ومرارة نقدها للآخرين تماماً كما هو اسلوب الارسوزي .

وعزز مركز الارسوزي في هذه الفئة النشاط الذي قام به والجهد الذي بذله في الاستفتاء حول عروبة الاسكندرونة، فقد كان الارسوزي قائد الجبهة العربية المكافح عن عروبة اللواء . وقد استطاع ان يضمّ الى الجبهة العربيّة أكثر الطوائف من غير الاتراك كالأرمن وسواهم .

ويمكن القول بوجه من الوجوه ان تضامن الجبهة التي يرئسها الارسوزي في اللواء كان له دافع عميق آخر غير الدافع السياسي والقومي. ذاك هو الدافع الطائفي . فالاتراك معروفون في سلوكهم العنيف ضد الطائفة العلوية، والكراهية كانت مستحكمة بين الفئتين السنيّة والعلوية.

وهذه المشاعر العفوية قد سهلت مهمة الارسوزي في تكوين الجبهة المضادة للاتراك مما جعل منه قائداً شعبياً مرموقاً في تلك المنطقة من الوطن العربي .

وسنتكلّم تفصيلياً أكثر عن الجبهة الارسوزية في حزب البعث عندما نعرض لنوعية الفئات التي تألف منها الحزب .

الحركة القومية قبل البعث

ان حزب البعث لم يكن مفاجأة للعرب من حيث المبادىء ومن حيث الفلسفة القومية والسلوك . ولكن هناك منظمات واحزاب وجمعيات سبقته فجاء هو يحاول استدراك ما فات تلك المنظمات والاحزاب والجمعيات . ونحن نشير باختصار الى أهم تلك المنظمات :

١ — في العهد العثماني نظم العرب جمعيات تهدف الى الدفاع عن حقوقهم او استقلالهم الذاتي او الكامل . وكانت الموجة القوميّة قد هبّ نسيمها على الدولة العثمانية التي كان أكبر وأهم عنصر من عناصرها هو الشعب العربي . ورياح القوميّة جاءت من اوروبّا اذ كانت محور التحرك السياسي في القرن التاسع عشر . والافكار او المبادىء لا توقفها حدود ولا تقيدها قيود . وكان أثر هذه الموجة قد بدا في العنصرين العربي والتركي على السواء . فالعنصر التركي أخذه الهوس وعاد ليصطنع له من التاريخ أمجاداً واذا لم تكن له امجاد فانّه يفترضها افتراضاً .

وأدّى به ذلك الى محاولة « تتريك » الشعوب التي تتألف منها الدول العثمانية فسار في هذا الطريق شوطاً بعيداً .

لكن رد الفعل عند العرب كان شديداً ايضاً من سلوك الاتراك ومن الموجة القوميّة الوافدة من الغرب . وقد اسس بعض المفكّرين والسياسيين والنواب في مجلس النواب التركي من العرب جمعيات سريّة ضمّت الكثيرين من هؤلاء، وكانت الهدف كما قلنا الدفاع عن الوجود

العربي ثم عن استقلال العرب وحقوقهم داخل الدولة اذا ظلّوا من رعاياها .

فالتحرك العربي بدأ اذاً من عهد الدولة العثمانية . ولما قامت الحرب العالمية الاولى نفخ الحلفاء اعداء الدولة العثمانية في بوق القوميّة العربيّة وشجعوا العرب على الانفصال عن الدولة ومنوهم بمختلف الاماني العذاب ووعدوهم بكل ما يرغبون . وكان من جراء ذلك ان قام الشريف حسين شريف مكّة بثورة على الدولة وأعلن استقلال « العرب » . وانضمّ الى الثورة جمهور كبير من الضباط العرب والمثقفين وخريجي المدارس العليا وشيوخ القبائل . وكانت الوحدة العربيّة واعادة مجد الأمّة العربيّة الاساس الذي بنيت عليه الثورة .

وكان ما كان مما لا حاجة الى ذكر تفاصيله لأن التفاصيل تضمّنتها كتب كثيرة ومؤلفات عديدة ونحن ايضاً تطرقنا اليها في بعض كتبنا . وبعدما تمزّقت البلاد العربيّة وخضعت للاجانب من الاوروبيين قامت احزاب محليّة في كل قطر ، ولكنّها مع كل ذلك كانت تحمل الفكرة القوميّة وتسير من خلال اتجاهاتها .

وكانت سورية من ابرز البلاد العربيّة من ناحية الفكر السياسي والعمل القومي . وقد قام فيها ائتلاف لمجموعة من المنظّمات الكبيرة والصغيرة ، القديمة والحديثة تحت اسم – الكتلة الوطنيّة – . وهذه الكتلة قادت النضال ضد الاحتلال الفرنسي وفي سبيل الاستقلال القطري . وما كانت تحركاتها بعيدة عن الفكرة القوميّة والوحدة العربيّة ، ولكن لم يكن مجال لبحث المسألة مع الفرنسيين لأنهم كانوا في سورية وحدها وما كان يحق لهم التفاوض نيابة عن الانكليز مثلاً . فارتدى النضال الوطني في سورية رداء القطرية او الاقليميّة .

وعلى كلٍ فانه لم يكن للكتلة الوطنية برنامج اجتماعي او اقتصادي او عقائدي ، وانما كان لها برنامج غير مسطور حفظه الشعب كلّه هو الاستقلال التام ثم الوحدة السورية اللبنانية في اول الأمر . وبعد ذلك حصل تنازل عن الوحدة مع لبنان واقتصر الشعار على الاستقلال للقطر السوري.

ومن الانصاف ان نقول ان كفـــاح هذه الكتلة كان عنيفاً ضد الفرنسيين حتى انّها لم تعط فرصة للهدوء والراحة لهم . ولكن حصل بعض الفتور في النهج القومي وتقلص الشعار الى درجة مقاومة الوحدة بين اي قطرين عربيين فضلاً عن تحقيق وحدة عربية شاملة . وقد وقف زعماء الكتلة الوطنية صراحة ضد مشروع اتحادي بين سورية والعراق كان المرحوم الملك فيصل قد نادى به وتبناه وعمل على تحقيقه بالوسائل الدولية والدبلوماسية ، فانبرى من كتب صراحة ضد المشروع بحجج اوردها يومذاك .

والمد العربي يومئذٍ لم يستطع الوقوف عند الحدود الاقليميّة الضيّقة فكان لا بدّ من ولادةً منظمة قوميّة . وكان ان ولدت « عصبة العمل القومي » وهي منظمة عقدت اول مؤتمر لها في « قرنايل » في لبنان عام ١٩٣٣ واعلنت انها حزب سياسي .

٢ ـ عصبة العمل القومي

قلنا ان المد العربي لم يكن يقبل الوقوف عند الحدود الاقليميّة ، فلما لم تحقّق الكتلة الوطنية مرامي هذا المدّ فانه خلق عصبة العمل القومي . هذا هو الاساس في نشوء العصبة . يضاف الى ذلك شيء آخر قد لا يكون فيه غضاضة كبرى على هذه المنظّمة الاّ من نواحٍ ثانوية . فالافرنسيّون اقلقهم نضال الكتلة الوطنية التي خندق الشعبُ بأكثريته الساحقة حولها ودعمها الى أبعد الحدود وبلا تحفّظ . بل يمكن القول ان الشعب كان هو الذي يسير الكتلة في الطرق الوطنيّة . وبدلاً من ان تسير الزعامة امام الشعب كانت احياناً تسير خلفه مضطرة حتى لا يفلت زمام القيادة من يدها . فكان ان ارتاح الفرنسيون لقيام فئة تعمل في نتيجة الأمر على شق الصف وتمزيق الوحدة الوطنية . وقيادة العصبة اجمالاً كانت من رجال الدرجة الثانية في منظمة الكتلة . ومنزلتهم هذه ليست منزلة سياسية وانما هي بسبب مرحلتهم الزمنية ومن صغر سنّهم ليس إلاّ .

والبلبلة حصلت في البلاد وقامت مناوشات فكرية وسياسية لم يتخلص البلد منها الاّ بعدما عاد الكثيرون من زعماء العصبة الى مقرّهم الأول في صفوف الكتلة وبعدما نالوا ما يمكن ان يسمّى « الترفيع » . اذ حصل عدد منهم على مقاعد نيابيّة او وزاريّة او عضويّة في مجلس الكتلة او ما هو شبيه بذلك .

بين العصبة والبعث

المنظمات تقوم على ثلاث دعائم : الهدف والاسلوب ثم العناصر البشريّة التي تقوم بتنفيذ الاسلوب لتحقيق الهدف . فما هو وجه الشبه بين عصبة العمل القومي وحزب البعث العربي ؟

١ — في ما يتعلق بالهدف هناك تشابه عظيم . فالعصبة مثل البعث اعتبرت القضية العربيّة كلاً لا يتجزأ وعملت على تحقيق الوحدة العربيّة، ثم كان ميثاقها واضحاً من حيث تحديد الوطن العربي واعتبار العرب كلّ الذين يتكلمون اللغة العربية، ثم دمج المغرب العربي في عداد الأمّة العربيّة بعدما كانت منظّمات او قل نظريات عربيّة تشك في صحة هذا الانتماء ولا تبعد بنظرها الى المغرب العربي في افريقيا .

٢ — واما الاسلوب فهناك اتفاق في بعض نواحيه واختلاف في بعض نواحيه الأخرى . ان المحتوى الاشتراكي في دستور الحزب اعمق وأشمل مما هو في دستور العصبة . حقاً ان العصبة لامست الى حدّ كبير حاجات الشعب عامة وضمنت الحدّ الادنى للمواطن من العيش الكريم وسهّلت له التعليم والدفء والصحّة والعيش . لكن النبرة التي وردت فيها هذه الامور تبدو سطحية اذا قيست بالنبرة التي وردت في دستور حزب البعث . وكلا المنظمتين دعا الى النضال وتفجير طاقات الأمّة العربيّة كاملة ومحاربة الاستعمار في كل الميادين .

٣ — واما العناصر البشرية فان هناك اختلافاً في النوعيتين اللتين تؤلفان جمهرتهما .

فحزب البعث بدأ التحرّك « من تحت » بينما العصبة قد بدأت من

فوق . فالعناصر البشريّة التي تألّف منها البعث اول الأمر هي الطلاّب بينما العناصر التي تألّفت العصبة منها هي فئات ذات مراكز اجتماعية وسياسية وذات وجاهة وغنى ونفوذ بلدي وعربي . ولم يكن الحقد الاجتماعي يعمل عمله في منظومة العصبة بينما يعمل ذلك الحقد عمله ولو بعض الشيء في منظومة البعث .

وقد طال الشوط على البعثيين في وصولهم الى المراكز العليا لأنهم كانوا في الأصل بعيدين عنها جداً . وواضح ان بين طالب في الثانوية مثلاً وبين الوزارة مسافة بعيدة . لكن المسافة بين محام شهير او سياسي قديم او طبيب اختصاصي وبين الوزارة هي مسافة قريبة . والسعي نحو المراكز – حتى لو كان هو قصد المنظومتين – فان المراكز الاجتماعية والقابليات السياسية هي التي اطالت الطريق على البعثيين وقصرته على العصبويين . ولو فرضنا ان السلطة الحاكمة يومئذ قامت بمصالحة وتفاهم مع العصبة لكان في امكان العصبة ان تقدم جهازاً وزارياً كاملاً لا تنقصه الكفاءة ولا المنازل الاجتماعية ، ولو ارادت ان تأخذ من العصبويين نواباً لوجدت العشرات . والأمر مختلف بالنسبة الى البعثيين ، فان السلطة لو حاولت ان تعمل مثل ذلك معهم لما أمكنها ان تجد وزراء او نواباً او من هو في مستوى الوزراء والنواب الاّ العدد القليل الذي لا يتجاوز عدد افراد اللجنة التنفيذية ، اي ثلاثة او اربعة من الاشخاص.

وبهذا يمكن القول ان البعث حزب شعبي جماهيري بينما العصبة حزب ارستقراطي الى حد بعيد ومقتصر على الوجهاء والمثقفين .

٣ – الحزب القومي العربي

وبعد العصبة قام حزب سياسي ضخم ولكنه كان سريّاً . وقد ضمّ عدداً كبيراً من رجالات العرب وخاصة الشباب منهم . وبرنامج هذا الحزب شبيه ببرنامج البعث . واسمه الحزب القومي العربي . ومن حيث انه سرّي فان جماهير الشعب لم تنضوِ تحت لوائه . لكن

اعضاءه كانوا يدخلون في كل المنظمات ويلجون كل الميادين لتحقيق اهداف الحزب .

وكما يقال عن العصبة يقال عن هذا الحزب من حيث انّه من ناحية المحتوى الاشتراكي كان اقلّ شمولاً من حزب البعث . وكذلك فهو حزب قد بدأ « من فوق » . وكان لهذا الحزب نشـاط في الحركات السياسية الخطيرة . ويمكن القول ان حركة رشيد عالي الكيلاني كانت من صنعه واخراجه وكان ذلك طبعاً بشكل سرّي لأن الحزب برمتـه كان سريّاً .

وكان للحزب اعضاء كثيرون في مختلف البلاد العربية وخصوصاً المشرقية منها .

وتحديده لبلاد العرب هو التحديد ذاته الذي سارت عليه عصبة العمل القومي وحزب البعث، وتعريفـه للعربي ولأمة العرب متفق مع التعريف العام لكلا المنظمتين .

والسرية لا تسمح بذكر اعضاء الحزب ولكن يباح في مثل هذا الموقف ذكر بعض المتوفين منهم للدلالة على النوعية التي كان يضمّها ذلك الحزب . فكان يونس السبعاوي وزير الاقتصاد في حكومة رشيد عالي وهو في الوقت نفسه حاكم بغداد العسكري في مرحلة الثورة ، واحداً من الاعضاء وكذلك درويش المقدادي وسعيد الحاج ثابت . وهذه الاسماء يمكن ان تعطي صورة عن بقية اعضاء الحزب ومنهـا نرى ان الحزب لم يكن شعبياً ولا طلابياً ولا جماهيرياً . ويلاحظ ان اعضاء هذا الحزب أكثر صلة بالعروبة العفوية العاطفية من سواهم من اعضاء منظمتي العصبة والبعث الاّ في حالات نادرة .

وكان انتشار اعضاء الحزب في كثير من المؤسسات القومية والحكومية سبباً في توضيح معاني العروبة والقومية ، في اوساط كثيرة من المجتمع العربي الذي كان ميداناً لنشاطهم . وكان افراد الحزب على صلة بالاستاذ ساطع الحصري الذي قد يكون عضواً في المنظمة او انّه كان يتعاطف مع بعض اعضائها تعاطفاً مجرّداً . وبين افراد المنظّمة وبين ساطـع

الحصري اتفاق يكاد يكون تاماً في المفاهيم القومية . والذي يريد ان يطلع على نظرة هذه المنظمة في الشؤون السياسية والقومية فان عليه ان يطلع على منهج ساطع الحصري ليحصل على ما يريد .

ولا يزال افراد المنظمة الى اليوم يتعاطفون في ما بينهم وان لم يعد بينهم عمل مشترك في السياسة . ومن حيث ان الحزب سرّي فانّه لم ينتشر ولم يعم الاوساط المختلفة بل انه بقي مقتصراً على النخبة . ويبدو ان بقايا هذه المنظمة قد اعلنت عن نفسها من غير انتساب او ارتباط كلي ، اعلنت عن نفسها باسم « القوميين العرب » .

وكانت هذه المنظمة قد ولدت معاصرة تقريباً لحزب البعث العربي وكانت شعاراتها مشابهة لشعارات البعث . فهي تنادي بالحريّة وبالوحدة العربية كما ينادي بهما البعث . لكن الخلاف كان حول الدعامة الثالثة واعني بها « الاشتراكية » . فبينما البعث ينادي بها كان القوميون العرب ينادون « بالثأر» . والبعث والقوميون العرب ومن قبلهما العصبة قد هيأت كلّها مناخاً فكرياً عربياً عظيماً .

لكن القوميين العرب توقفت خدماتهم القومية بعض الشيء عندما اصبحوا « ناصريين » . ومثل هذه المنظمة ما كان لها ان تمشي وراء شخص وتنصاع لتوجيهاته مهما تكن منزلته في المعترك السياسي او الدولي.

ومع الزمن اصبحت هذه المنظمة « ماركسية » اذ أعلنت عن هذا في احد مؤتمراتها الاخيرة . وانشق عدد منهم عن هذه الماركسيّة وقامت اجنحة في داخل المنظمة وتنكّر القسم الأكبر من هذه الاجنحة لناصر وللناصرية وسرى الاضطراب والقلق في المنظمة حتى كادت تلغى من الوجود من حيث الاثر الفكري او السياسي في بلاد العرب .

هذا هو المناخ العربي العام حين ولادة البعث العربي ، ويمكن القول ان البعث جاء متمماً ومستدركاً ما فات تلك المنظمات القومية .

اختمار فكرة الحزب

لقد استمر الحوار والمذاكرات بيننا نحن الثلاثة ، ميشيل عفلق وصلاح

الدين البيطار وانا . وكان الاجتماع يومياً ومكثفاً وصريحاً حتى وصل الأمر الى حدّ الاعتقاد بان افكارنا واحدة لا خلاف حتى في جزئياتها وتفاصيلها وتفرعاتها .

وقد قال السيد عفلق ان له صديقاً يأنس فيه الانسجام معنا وهو طبيب عربي النزعة حرّ الفكر ويريد أن يبحث معه هذه الأمور . فكان ذلك الطبيب هو مدحة البيطار الذي تولى الاستاذ ميشيل عرض القضية معه خلال عدة اجتماعات جانبيّة يعقدها الاثنان من غير حضوري أنا او حضور الاستاذ البيطار . وقد كانت النتيجة ايجابيّة اذ صار الدكتور مدحة هو رابع لنا في مشربنا هذا وأصبح الاجتماع بعد ذلك رباعياً .

وهنا لا بدّ من ابداء ملاحظة عابرة اتماماً للبحث . فقد كان حكم الكتلة الوطنية بعد عام ١٩٤٣ صارماً وكان الاساتذة من قادة البعث يتهيبون الاعلان عن قيام حزب تحسّباً لما تقوم به السلطات يومئذ من تدابير بينها التدابير الزجريّة . ولكن أمكن التغلّب على هذا المحذور لأن واحداً من بين القيادة المذكورة كان جريئاً على السلطة ورجالها لما سبق له من دالة عليهم وعمل مشترك معهم وخدمات شخصيّة لهم في شتى المجالات ، وقد أصرّ على اعلان قيام الحزب مطمئناً الى أن المحاذير ليست بالقدر الذي يمكن ان يعيق المسيرة والبدء بها .

وقد اتخذ الاربعة المذكورون من انفسهم لجنة تنفيذيّة لحزب البعث العربي وأعلنوا المباشرة بالتنظيم وقبول المنتسبين . وأعلن السيدان عفلق والبيطار ولادة الحزب في بيان اصدراه . وهكذا ولد حزب البعث العربي الولادة الحقيقيّة ، لكنه لم يولد ولادة رسمية الاّ بعد ما يقرب من خمس سنوات ، اي في شهر نيسان من عام ١٩٤٧ حينما عقد الحزب اول مؤتمر له في مدينة دمشق . وقد نشرت بيانات عن الحزب ومنشورات تعالج مختلف القضايا العامة وكانت تحمل تواقيع هؤلاء الاربعة .

ولم يكن في الحزب يومئذ من غير الطلاب الاّ هؤلاء الاربعة ، اما سائر الحزبيين فكانوا اما من تلاميذ الثانويات واما من طلاب الجامعة . واما سائر الفئات من غير الطلاب فانها لم تنتسب الى الحزب الاّ بعد

مضي وقت طويل على قيام الحزب . وحتى العمال الذين يعدون ركناً من اركان الحزب فقد تأخر انتماؤهم الى الحزب الى ما بعد الطلاب .

هذه هي الحقيقة عن نشأة حزب البعث وكل ما يقال من اقوال غيرها فانما هو تخرصات او مقاصد سياسية او عدم اطلاع . ومهما يكن من امر فان المهم ليس هو هذا وانما المهم ان نبحث عن اثار الحزب وتطورات نظرياته والمراحل التي مرّ بها والنظرات القومية والسياسية المختلفة التي مرّت به ومرّ بها .

مادة الحزب

قلنا ان الحزبيين في اول نشأة الحزب كانوا من الطلاّب . وكان وجود السيدين عفلق والبيطار في التدريس هو السبب في ذلك . وقد استهويا طلابهما وجذباهم الى الحزب . كما ان الطلاّب يعدو بعضهم بعضاً وتستجر فئة منهم الفئــة الاخرى . والطلاب بحكم طموحهم ومحاولتهم العفوية الى البروز والظهور والاعلان عن وجودهم وكيانهم فانهم ميالون الى التجمع والتحزّب اعراباً عن وصولهم الى مرتبة الرجال العاملين ، ان الطلاب بتلك الدوافع قد سارعوا الى الدخول في حزب البعث الذي كان يمثل في الوقت نفسه التحرّر من السلوك التقليدي الذي تسير عليه الفئات الحاكمة يومئذ وتمثل نوعاً من الاندفاعة القومية التي ظهر تقصير الحكّام في تحقيقها عندما انغمسوا في العمل الاقليمي وتنكبوا عن دروب الوحدة العربية . وكانت الحرب العالمية الثانية قد أظهرت عدم الجدوى من قيام وحدات صغيرة ودول ضئيلة وذلك عندما تهاوت هذه الدول الصغيرة امام الغزو الالماني وخرّت مضرجة بدمائها ولم يثبت امام النازية الاّ الدول العظمى . والطلاب بعيدون بحكم اعمارهم عن المصالح الذاتية وهم بعد ليسوا مسؤولين عن أسر يعيلونها، لهذا كان سلوكهم اقرب الى السلوك المثالي الاخلاقي من الرجال الكبار . وكان لدعوة قيادة الحزب بريق ولمعان اخّاذ يأسر القلوب والألباب وشعارات

الحزب لها مفعول عجيب في النفوس . فتدفق الطلاّب ينتسبون الى الحزب زرافات ووحدانا .

نوعية الطلاب

واذا كانت المادة الاساسية لحزب البعث هي الطلاب فهل كان هؤلاء الطلاب من نوعية واحدة ومن طائفة واحدة ومن اقليم واحد ام أن هناك حالات أخرى تلفت النظر وتستحق الدراسة ؟

الواقع ان هناك حالات أخرى . فالحزبيون من الطلاب كانوا من ابناء الريف وكانوا من الاقليات الاسلامية وكانوا من المسيحيين . وهذا لا يعني انه لم ينتسب الى الحزب أحد من ابناء المدن ولا من ابناء الطائفة السنيّة بل يعني ان نسبة المنتسبين من هؤلاء أقل من المنتسبين من اولئك .

وهذا أمر له معناه ومغزاه وله اسبابه وبواعثه وهو أمر لم يقع مصادفة ولا عفواً .

فالاقليات الاسلامية في سورية ، وسورية منبت الحزب ومكان انطلاقه الأول ، كانت مضطهدة في العهد العثماني وكان المسيحيون كذلك مضطهدين . ولدى هذه الطوائف نزوع عفوي نحو ايجاد المناخ الملائم لتحررها من الاضطهاد وبلوغها مرتبة الاكثرية . وفي حزب البعث مجال كما قد تخيلوا لتحقيق هذه النزعة . واذا كان الطلاب قد تفهّموا مرامي الحزب واغراضه السياسية والقومية فاندفعوا الى الانضواء تحت لوائه فان العامل اللاشعوري الدافع الى احتلال المنازل المحترمة في البلد قد كان من اسباب التسارع نحو الحزب . وقد ينضمّ الى الحزب من لم يتفهم مراميه بهذا الدافع . فالدعوة الاسلامية وهي سماوية إلهية قد كان فيها مثل هذا الذي نقوله اذ دخل في الاسلام اناس لم يكونوا مؤمنين به ولا قانعين بجلالة قدره وانما دخلوا أملاً في ان يصيبوا من دخولهم فيه مغنماً او يتخلصوا من مصاعب كانوا يلاقونها ومشكلات يعانونها .

وكل منظمة او حركة او حزب لا بد لها ان تخضع لمثل هذه الحالات.

ولا عجب اذا رأينا بعض الناس يهبون الى حزب البعث العربي ويعلنون له التأييد والولاء . ومن الملاحظ ان التيارات الجديدة التي تقوم ضد الانظمة القائمة انما هي تيارات تضمّ بعض المستضعفين والحاقدين والبعيدين عن الجاه والنفوذ والسيطرة . وكأنما يكون انضمام هؤلاء الى التيار الجديد هو نوع من التعبير عن شيء من الرفض للحال الراهنة .

واذا نظرت الى المسلمين الاولين في مكة وجدتهم من هذه الزمرة من الناس . وهذا ايضاً يجب ان لا يكون مفهوماً على اطلاقه، فان لكل حالة شواذاً وان هناك بعض الكبراء والوجهاء والزعماء من قريش قد انضموا الى الحركة الاسلامية . وقد ينطبق هذا على حزب البعث وعلى كل منظومة او حزب ذي اهداف اجتماعية او سياسية تسعى الى مخاصمة نظام قائم .

التجاوب الشعبي مع الحزب

لقد وقع الحكم في سورية في المرحلة التي نتحدث عنها في اخطاء جسيمة. وقد كاد الشعب يمل ذلك الحكم، ففيه انتهاز وفيه انتفاع وفيه جمود عن تحقيق المثل التي يريدها الشعب . ولما لاح في الافق شبح حزب يعدد مثالب الحكّام ويرفع شعارات محببة الى الشعب ويسير بنزاهة وتجرد التفت الشعب اليه ومنحه تأييداً عاطفياً قوياً . وقد حصل تجاوب بين الحزب وبين الشعب رغم مقاومة السلطة الحاكمة له .

ولما كان العنصر النشيط ذو الفعالية هو الذي يؤلف الحزب، واعني بذلك عنصر الشباب، فان دوياً عنيفاً قد سمع للحزب وضجيجاً لم يألفه الناس . والسلطة الحاكمة قد شعرت بخطر هذا الحزب عليها فحاولت تفكيكه بالارهاب طوراً والترغيب طوراً آخر .

لكن جمهرة الحزبيين وهم من الشباب الطلاب لم يكونوا يستجيبون الى الترهيب ولا الى الترغيب . فهم كما قلنا لا يقعون تحت مسؤوليات ماديّة تثقل كواهلهم وتنيخهم تحت وطأة الحاجة . فلم يكونوا اذاً قابلين

للاستجابة لما تريده السلطة .

اما قيادة الحزب يومئذ فقد كانت مصرّة على بلوغ اهداف سياسية قوميّة اجتماعية تقلب اوضاع البلد وتخلقه خلقاً جديداً . والقيادة وحدها كانت في مستوى المسؤولية فاذا ثبتت كان الحزب كله موصوفاً بالثبات. وهكذا كان، فان القيادة لم تخضع ولم تصانع وتعالت على المنافع والمصالح .

وكان واضحاً ان الحزب كان يتمتع بعطف الناس وتقديرهم من قبل ان يكون له نفوذ او سلطة ولا حتى أمل في النفوذ والسلطة . وكان الناس يشيرون الى الحزبي عندما يمرّ بهم اشارة احترام وعطف، فقد كان الحزبي يومذاك مثالاً للاستقامة والتفاني في خدمة الصالح العام وانموذجاً للتعفّف والنزاهة .

واذا كان الناس لا يصوّتون للحزب في الانتخابات فان ذلك لا يعبّر عن ميولهم وعواطفهم، فان التصويت لا يخضع الاّ لمشيئة السلطة في كثير من الاحيان ولو لم تستعمل السلطة اساليب لكسب الاصوات فالسلطة وحدها تجذب المترددين والخائفين او الطامعين .

وكان لطلاب الحزب مواقف جريئة ضد الحاكمين في الاربعينات كما استمرت مواقفهم الجريئة بصعود حتى في زمن الديكتاتوريات العسكرية في عهدي حسني الزعيم واديب الشيشكلي . كما ان طلاب البعث كانوا متفوقين في دراساتهم وكانوا مضرب المثل في هذا المضمار. لكن هذا قد تبدّل في ما بعد اي عندما اصبح الحزب دولة ، وانّ ذلك سيبحث في مكانه الخاص من هذا الكتاب .

وكان يمكن اعتبار مناطق برمتها ومحافظات كاملة بأكثريتها الكبرى مؤيدة للبعث تأييداً كاملاً لولا سوء التصرف الذي ابتلي به بعض الشبان الحزبيين مما أضرّ بسمعة الحزب وجعل الناس ينفضّون من حوله واتخاذه مادة تلوكه الالسن وتتهمه بمختلف التهم وتروي عنه ما هبّ ودبّ من القصص والاساطير السيئة .

التيارات المختلفة داخل الحزب

ما من شك في ان التفاعل قائم بين الحزب وبين اتباعه . واقصد بالحزب هنا مبادىء الحزب ودستوره وشعاراته ومنهاجه . اما الاتباع فالمقصود منهم الاشخاص الذين ينتسبون الى الحزب ويؤلفون مادتـه البشريّة المتحرّكة العضويّة . فالمبادىء تؤثر في الاشخاص والاشخاص يؤثرون في المبادىء .

ولكن السؤال هو عن ايّهما الاقوى تأثيراً في الآخر ؟ بعض الناس يظنّ ان المبادىء هي التي تؤثّر في الاشخاص وتكيّفهم وفقاً لاهدافها . لكن الحقيقة هي ان العكس هو الصحيح . بمعنى ان الاشخاص يصنعون المبادىء ولكن المبادىء لا تصنع الاشخاص . وان المبادىء تبقى نصوصاً جامدة اذا لم يكن في الاشخاص الذين يتبنونها الاستعداد الكافي العفوي ثم الارادي لتطبيق هذه النصوص .

اما اذا لم يكن في الاشخاص الاستعداد الكامل او الكافي فان المبادىء هي التي تتحول تدريجيّاً الى ان تصبح منطبقة مع حقيقة هؤلاء الاشخاص، وتصبح ايضاً منسجمة مع نزعاتهم ورغباتهم حتى يظنّ الرائي ان تصرفات هؤلاء انما هي الاستجابة الكاملة لدستور الحزب او المنظمة التي يعملون فيها بعد ان يتم تحويلها .

فالانسان مكوّن من عناصر عديدة نفسيّة ثم خلقيّة . ومن العسير عليه ان يستبدلها كليّاً او جزئياً وفقاً لنصوص الدستور او اي اوامر أخرى . هذا اذا كان في اخلاق ذلك الانسان ما يتعارض كلياً او جزئياً مع تلك النصوص او الاوامر التي يرغب في تطبيقها .

هذا الحكم عام وانه ينطبق حتى على الديانات السماوية . فالمسيحية قد تزحلقت وتبدلت واضطربت ولانت وسلكت سبل المرونة الى ان اصبحت متفقة مع الوجود النفسي والخلقي والعقائدي للانسان الروماني. وقد صبّ الروماني اساطيره ومعتقداته وكل ما كان مخزوناً في نفسه من التيارات المكبوتة ، صبّها كلها في مجرى المسيحيّة . والمسيحيّة

بهذا اصبحت رومانية بعد هذا الصراع بينها وبين اتباعها الذين تبنوها ثم نشروها ، ولم يصبح الرومان مسيحيين الا بعد ان جعلوا المسيحيّة قالباً لهم ومحتوى لبنيانهم . راجع بهذا الصدد كتابنا « منزلة العرب بين الامم » .

والاسلام وان كان لا ينطبق على المسيحيّة بالنسبة الى الرومان لكن مع ذلك لا يخلو الأمر من صلة . اذ الاسلام والعروبة وجهان لمادة واحدة . والاسلام نبع من العرب وعبر عن حقيقتهم في طور من اطوار تاريخهم وهو ليس كالمسيحية الغربية بالنسبة الى الرومان . واذا صح هذا فهو لا يصح على العرب أجمعين بل انه يصح على عرب الحجاز وما جاورها . وقد كان الاسلام منطبقاً كلياً على عرب الحجاز وجزئياً على سائر القبائل والشعوب العربيّة .

واذا كان هذا المثل العربي الصرف لا يعطي الفكرة التي نعنيها بالوضوح التام فان لدينا القول الفصل في هذا الباب بالنسبة الى الاسلام والاقوام الاعجميّة التي تمذهبت به .

فهذه الاقوام دخلت في دين الاسلام « الدولة » ، ولم تدخل في دين الاسلام « العقيدة » . وكانت هذه الاقوام كاملة البنيان اذ ان لها دياناتها وعقائدها المخزونة ولها تقاليدها ومصطلحاتها واعرافها ولها تراثها الذي تعتزّ به . لذلك احتدم الصراع والتفاعل بين هؤلاء الاتباع وبين الاسلام ولم يستطع الاسلام ان يحل في نفوسهم ويتركز في اعماقهم ويصبح لهم عقيدة الا بعد ما عملوا فيه تبديلاً وتعديلاً وتحريفاً حتى أخرجوه في بعض الاحيان عن اهدافه المثلى وغاياته السامية .

ولو شئنا التقصي لطال بنا المقام ولكنا نكتفي بهذا القدر من تأثير الاتباع في المذاهب حتى لو كانت ديانات سماوية مقدّسة جديرة بالاحترام والاجلال .

وبعد ذلك نعود الى استكمال الصورة التي يتألف منها الحزبيون البعثيون فنقول انه كان الى جانب من وصفنا فئة من أهل دمشق وهي فئة تكاد تكون محافظة في كل ميادين الحياة كالدين والحرص على

الاعراف والتقاليد البلدية وما اليها .

وكانت الجبهة الارسوزية في حزب البعث التي سبق الاشارة اليها ، لها وزنها اذ انها تضم عدداً من الشبان المثقفين وكانوا يؤلفون واجهة من واجهات الحزب وهم يعطون انطباعاً خاصاً عن الحزب ومفهوماً له شتى التفسيرات . والسيد الارسوزي متأثر باستاذ من اساتذتــه في باريس هو الفيلسوف المشهور « برغسون » . وقد عداه هذا في ولعه بما وراء الطبيعة وبشيء من الغيبيات. وهو قد عدا تلاميذه ايضاً في هذا الميدان. ولذلك فان هذه الفئة سريعة في اصدار الاحكام على الناس بلا تمحيص ولا تدبر . وليس يهمهم ان يكون طعينهم مظلوماً ما دامت الطعنــة تشفي منهم الغليل . وهم يربطون الامور البعيدة بعضها ببعض ويفترضون ان الصلة وثيقة بين هذه الامور . لكن هذه الافتراضات لا تلبث ان يظهر وهنها وبعدها عن الحقيقة والصواب بعد التمحيص والدراسة .

فقد يزعم زاعم منهم ان الحلف الاطلسي مثلاً قد قام نكاية بحزب البعث العربي او أن القنبلة الذرية قد كان الدافع على اختراعها لتكون تهديداً له أو للسيد الارسوزي نفسه .

وهكذا فقد رأى الناس في حزب البعث من خلال هذه الفئة حزباً خيالياً بعيداً عن المنطق يدور اعضاؤه في فلك الاوهام والخيالات، وبالتالي فانه حزب لم يقم دعائمه على اسس ثابتة او ارض صلبة تحتمل ما يقوم فوقها من بناء في المستقبل .

وكان طابع هذا الجناح العروبة العقلية لا العروبة العاطفية . فهو جناح اراد ان يكون عربيــاً لاسباب منطقية سياسية عقلية كما كان الارسوزي . ولم يكن افراد الجناح مدفوعين نحو العروبة بدافع اضطراري عميق نفسي يطغى على كل اعتبــار آخر . فهم لم يكونوا من الذين يشعرون بالاعتزاز اللامتناهي في انتسابهم الى امة العرب، كما لم يكونوا متمثلين التراث المقدس لامة العرب، ولم يكونوا حافظين التاريخ العربي من نواحيه المختصة بالعرب، المعبّرة عن وجودهم المتميز . ومن هنا كنا ندعوهم بأهل العروبة الرسميّة .

ومع ان هذا الجناح قد احتل من حزب البعث مكاناً محموداً فانه كان مقسم الولاء بين البعث وبين السيد الارسوزي، وكثيراً ما كان افراد الجناح يثيرون المناقشات والمجادلات مع البعثيين ذوي الولاء الموحّد حينما يطلعون بنظريات مستقاة من تفكير الارسوزي سمعوها منه في احد اجتماعاتهم معه وهي اجتماعات لم تكن نادرة الوقوع .

وكان يبدو على هذا الجناح شيء من البعد عن الدين بل قل شيء من الاستهتار بالدين . وهم في فلسفتهم يعتبرون ان الاسلام انما هو قدحة من قدحات زناد الامة العربية وناحية من نواحي عبقريّتها وهو ليس بالأمر المهم اذا قيس بالأمّة العربية . وكذلك فهم يعتبرون العصر الجاهلي هو العصر الذهبي للامة العربية، وهذا خلاف ما عليه الجمهور العربي في القديم والحديث من الزمن اذ ان الجمهور يرى في العصر الاسلامي الاول العصر الذهبي .

واذا كان الانطباع العام عن حزب البعث بانه حزب ملحد فان مصدر هذا الانطباع هو الجناح المذكور الذي لم يقف عند حدود الفئة الصغيرة بل تعداها الى عدد آخر من افراد الحزب الذين قلنا ان من بينهم عدداً كبيراً من ابناء الطوائف الاسلامية الصغيرة ومن المسيحيين .

والاستهانة بالاسلام اسلوب ومدخل الى الاستهانة بالعروبة ، لأن الاسلام اعظم انتاج عربي تفخر به الأمّة العربيّة، فاذا هان الانتاج الضخم فان المنتج يهون ايضاً . هذا هو اسلوب الشعوبيّة .

كما ان هناك فئة من الماركسيين والمتحللين اندسّوا في صفوف الحزب من غير اعلان عن هويّتهم والافصاح عن حقيقتهم . وبعدما سار الحزب ردحاً من الزمن فان الفئة المحافظة قد اختنقت بمناخ الحزب الذي لم يمكنها العيش فيه بالنظر للخلاف في البنيان، فتم انسحاب افرادها بالتدريج الى ان اصبح الحزب كلياً من اليساريين على تفاوت في درجات تطرفهم وتعصبهم لليسار والماركسية . وكان الصراع محتدماً بين هذه الفئات ولكن بشكل غير مرئي، وكانت عملية الاصطفاء قد قضت على كل العناصر المحافظة فبرز الحزب يسارياً بلا خفاء .

وانك ترى ان بعض العناصرمن الاسر الكبرى في سورية قد دخلت في الحزب . ولكن هذه العناصر هي من الطبقة الفقيرة من تلك الأسر . وفي كل أسرة كبيرة طبقات في الغنى والثقافة والاخلاق . ولم يدخل الحزب الاّ على سبيل الندرة التي لا يقاس عليها احد من كبار الوجهاء او من الاغنياء او من ذوي المراتب الرفيعة او المناصب العالية في الدولة . بل يمكن القول تجوزاً ان كل الذين دخلوا الحزب انما كانوا في اصل تكوينهم وبحسب منازلهم الطبقية ، حرباً على هؤلاء الوجهاء والاغنياء وذوي المراتب الرفيعة .

واذا كنّا فرغنا من الوصف السريع للبنيان الحزبي فاننا نتساءل هل كانت قيادة الحزب من المادة نفسها ام كانت من مادة أخرى ؟

ان قيادة الحزب ومؤسسيه يستحقون بحثاً خاصاً ولو كان مختصراً لأننا كما أسلفنا ، لا نهتم كثيراً بالامور التفصيليّة ولكننا نهتم بالقواعد وامهات المسائل والتيارات الكبرى التي نجمت عن وجود الحزب وبسبب الحزب وعمل الحزب .

بعد فترة قصيرة ابتعد أحد اعضاء اللجنة التنفيذية عن اللجنة بسبب مشاغله واوضاعه الخاصة . بينما برز طبيب من داخل الحزب وقفز الى اللجنة التنفيذيّة . ولكن مرت فترة بين ابتعاد الدكتور مدحة البيطار وبين قفزة الدكتور وهيب الغانم الى الحزب كانت اللجنة خلالها مؤلفة من ثلاثة اشخاص فقط .

وسوف اعطي لمحة عن وضع السيدين عفلق والبيطار ، ولكن لن اتحدث عن نفسي ولن اقيّمها فذلك من اختصاص غيري ، ولست ادري ، فلعلي أكون في البحث منحازاً الى نفسي وشر ما يفسد البحث ويخرجه عن الموضوعية والعلمية هو الانحياز والميل والهوى والغرض .

فالسيدان عفلق والبيطار من ابناء دمشق ، وهما ينتميان الى اسرتين محافظتين . وهما من حيث الغنى يعتبران من الطبقة الوسطى ، ولكنهما من حيث المنزلة الاجتماعية يعتبران اقرب الى الوجاهة والى الطبقة الارستقراطية منهما الى الطبقات الأخرى .

وقد درسا، بعد الحصول على البكالوريا في دمشق، خارج سورية. فقد كانا موفدين لدراسة التاريخ بالنسبة الى السيد عفلق ودراسة العلوم بالنسبة الى البيطار في باريس . وقد قضيا الفترة اللازمة وحصلا على شهادة الليسانس، كل منهما في اطار اختصاصه. وعادا الى دمشق واصبحا مدرسين أخيراً في ثانوية دمشق الكبرى .

ولقد تأثرا وهما في باريس بالموجة الشيوعية وعملا مع الشيوعيين. ولكن هذا العمل كان نتيجة تصميم وتدبّر ولم يكن نتيجة عقيدة وايمان . وقد كان الحزب الشيوعي الفرنسي جذاباً . فهو الذي كان يدافع عن استقلال سورية ويكافح الاستعمار الفرنسي خاصة . وكان السوريون جملة مرتاحين لسلوك هذا الحزب . وكان في التعاون معه اذاً خدمة للقضية الوطنية .

وبعدما عادا من باريس صدرت مجلة عليها طابع اليسار اسمها الطليعة وكانا يكتبان فيها . ومن هنا فقد عرفت عنهما اليسارية وقيل عنهما انهما شيوعيان . ولكن ما لبث هذا الزعم ان تبدّد بعدما عملا في الحقل القومي قبل البعث وبعدما قضيا على كل الظنون في حزب البعث .

واذا كنت اتماماً للبحث أكتب كلمة عن نفسي فانما أكتب عن أمر يختلف تماماً عن السيدين عفلق والبيطار . فانا من بيئة قبلية لها اعرافها ومصطلحاتها وتكوينها الخاص، وليس للطبقية المعروفة اثر فيها كما ان الوجاهة لا تقتصر على الثروة والمال والمناصب الحكومية . ولن ازيد على ذلك .

وقبل ان تتوضح هوية الحزب اليسارية المتطرفة فان المنهج القومي الذي سار عليه الحزب قد استهوى عدداً كبيراً من بعض شيوخ القبائل ووجهاء المدن فانتسبوا اليه، ولكنّهم ما لبثوا ايضاً ان ابتعدوا بعدما ثبت لهم عفوياً وبالتدريج استحالة الوئام بينهم وبين الحزب .

وبعد ذلك يمكن القول ان الحزب كان يضمّ الاشتات ويجمع المتناقضات من العناصر البشرية اول تأسيسه . فقد جذب القوميين

المتطرفين كما جذب الماركسيين واستهوى الاخلاقيين كما استهوى غيرهم . وكانت كل فئة ترى في الحزب ما يتفق مع ميولها ويحقّق نزعاتها . والواقع ان الحزب يكاد يكون اول امره كذلك .

الحوافز على ولادة البعث

ذكرنا من قبل ان المشاعر القومية قد اصطدمت بفتور من جانب بعض حكام العرب وان الاتجاه يسير نحو الاستقلال القطري، وهذا لا يحقّق للامة العربية المنزلة التي تريد ان تحتلها . ورأى العرب كيف أن الأمم الصغيرة في الحرب العالمية الثانية قد تهاوت من الضربات الأولى التي وجهها اليها زعيم المانيا، هتلر، وان الامم الكبرى هي التي استطاعت المقاومة .

فكان هذا من الحوافز التي حرضت النفس العربيّة على محاولة تأسيس حزب عربي يجمع شتات الأمّة كلّها . وكنّا ذكرنا ان المناخ كان ملائماً لمثل هذه المحاولة لأن هناك احزاباً ومنظمات أخرى قد مهّدت لقيام حزب مثل حزب البعث . الاّ ان هناك حادثة وقعت في العراق كانت من أكبر الحوافز في قيام حزب البعث . والمتتبع لتأسيس البعث يدرك الصلة الروحية والمعنوية التي كانت تربط بين تلك الحادثة وبين التحرك لتأسيس البعث . واعني بتلك الحادثة ثورة رشيد عالي الكيلاني . فقد كان قادة البعث متأثرين بها الى حدّ كبير . وقد اعتبروا فشلها قاضياً على الآمال العربية اذا لم يتدارك العرب الأمر ويجمعوا على تعديل الأسلوب المتبع يومذاك من القطرية والاقليمية باسلوب قومي شامل عام . واذا كانت منظمة « القومي العربي » ، قد كانت ضالعة في صنع تلك الثورة فان الصدى قد انعكس على فئات أخرى من غير تلك المنظمة فكانت تلك الفئات هي حزب البعث . فحزب البعث اذاً كان بمثابة الرد على الهزيمة في القطر العراقي وهي تعويض للطموح العربي عما فقده في قطر واحد من اقطار العروبة .

واذا كانت المشاعر القومية ولدت ثورة رشيد عالي الكيلاني فان الثورة ولدت مشاعر قومية ايضاً، وهي المشاعر التي تكثفت وتجمّعت فاطلقت الى الوجود حزب البعث العربي في سورية ومنها انساب الى الاقطار العربيّة الأخرى كما سيأتي بيان ذلك . واذا كانت ثورة رشيد عالي لم تنجح ولم تحقق للعرب ربحاً ملموساً من امانيهم القومية فان فيها على المدى الطويل منافع رغم ما قيل فيها وعنها . ومن أهم تلك المنافع شحذ الشعور القومي وتعميقه ثم انارة الطريق امام قيادات عربية كثيرة لتتمكن من التمييز بين النافع والضار ولكيلا تستعجل الامور وتأخذها على ظواهرها بشكل من الارتجال والنزوات الشخصيّة مما قد يأتي بيانه ببعض التفصيل في ما يأتي من فصول الكتاب .

وثورة رشيد عالي كانت اولى الهزات التي عمّت النفس العربية في ما بعد الاربعينات من هذا القرن، فقد انخرط فيها من اكثر الاقطار العربيّة مجاهدون ومؤيدون .

كما ان حرب العرب ضد اسرائيل في اواخر الاربعينات كانت الهزة الثانية اذ أن الجسد العربي قد تكهرب كلّه تقريباً في هذه الحرب . اما الهزة الثالثة فكانت حرب حزيران التي لم ينطفىء لهيبها ولم يذق العربي المتحسّس باحاسيس امته طعم الراحة والطمأنينة بعدها .

٢- سَنوَات البَعث الأولى

وسار الزمن سيرته وتكاثر الحزبيون من كل **الفئات** ومارس بعض النشاط بين سمع الحكومة وبصرها، ولم تتخذ الحكومة تدابير زجريّة بحق اعضائه الا في حالات نادرة، كنفي الاستاذ البيطار وسجن الاستاذ عفلق ردحاً قصيراً من الزمن . وكان موقف الحكومة هذا مشجعاً لمن كان خائفاً فازداد العدد واصبح في الامكان الاعلان رسمياً عن قيام الحزب الجديد. وقد اتخذت الاستعدادات لعقد المؤتمر الاول التأسيسي، فعقد في دمشق في السابع من نيسان من عام ١٩٤٧ وقد كانت سنة انتخابات نيابيّة .

المؤتمر التأسيسي

اجتمع ما يربو على مئة عضو من اعضاء الحزب على شكل مؤتمر وذلك في نيسان من عام ١٩٤٧ لمناقشة دستور الحزب . وكانت اللجنة التنفيذيّة قد عهدت الى بعض الشبّان المثقّفين من طلاب الجامعة وتحت اشراف اللجنة التنفيذيّة بوضع دستور للحزب .

وقد ناقش المؤتمر مشروع الدستور فأقرّ ما أقر وادخل بعض التعديل على بعض المواد . وكانت المواد الّتي حظيت بالمناقشة الطويلة مواد الاشتراكية . فقد كان عدد من الاعضاء يصرّ على ابراز الكلمة في الدستور ، والنظام الجمهوري ، وكان عدد آخر يصرّ على النص على ذلك ؛ وموضوع الوصف للعربي وللاقليات ومواد اخرى . لكن هذه المقترحات لم تحز على موافقة الاكثرية فظلت كما وردت في المشروع .

وكان انتخاب رئيس المؤتمر يخضع لعاملين ارادي وعفوي او ظاهر ومستتر . فمن ناحية كان هناك نوع من التكريم والاعتراف بمقدرة الرئيس (البرلمانية) . ومن الناحية الأخرى كان يراد ان يكون ذلك الشخص بعينه في مواجهة السلطة على افتراض ان السلطة يومئذ كانت تتورع عن اتيان عمل زجري يزعجه لما قدمنا من قبل من اسباب .

وظلّ المؤتمر منعقداً ثلاثة ايام اتمّ خلالها مناقشة الدستور وإقراره وسط امواج من الابتهاج والشعور بالوجود ثم الثقة بالنفس وبالأمل في مستقبل عربي زاهر مع موافقة المؤتمر على اللجنة التنفيذيّة كما كانت من قبل . فما هي نتائج هذا المؤتمر ؟

١ ـ كان حزب البعث العربي قبل هذا المؤتمر « حركة » ، وكانت اللجنة التنفيذيّة تفضّل هذا الاسم على اسم « حزب » . فقد كان البعث حقاً قبل المؤتمر لا يعنى بالسياسة الاّ بعد أمور كثيرة يفضلها . فقد كان البعث حركة فكرية قومية اخلاقية ثم انسانية . وبعد ذلك كان عملاً سياسياً . وكلمة حركة تنطبق على هذه الاهداف أكثر من كلمة «حزب» ، لكن المؤتمر قد ابرز العمل السياسي فجعله الغالب علـى المقاصد الأخرى فتلاشت كلمة « حركة » واستبدلت بكلمة حزب .

ورافق قيام المؤتمر شيء من الضجيج والدعاية لم يقم بهما الحزب وحده وانما قام بهما كل الحاقدين على الحكّام يومئذ . واصبح خصوم الحكومات يهدّدونها بهذا الحزب الناشيء ذي المستقبل المجيد . وبلغ الزهو والاعتزاز بالاعضاء ان اقدم بعض منهم على ترشيح نفسه لخوض معركة الانتخابات في تموز من ذلك العام اي بعد ثلاثة اشهر من اعلان ولادة الحزب .

ولم يكن التأييد الذي حظي به الحزب ضعيفاً بل ان فيه بذور القوة، لكن السلطات يومئذ قد زيّفت الانتخابات وزوّرت ارادة الناخب مما سهل على البعث والفئات المخاصمة الأخرى ان تجهز على تلك الفئات الحاكمة حينما امسكت بها في الجرم المشهود . وليس اشد حرجاً عند الناس من تزوير الانتخابات علانية والاستهتار بارادة الشعب واهماله

وعدم الاعتداد برغباته ونوازعه .

٢ ـ لقد حلّت نشوة في نفوس اعضاء الحزب بعد المؤتمر وازدادت ثقتهم بانفسهم وشعروا بكيانهم السياسي يتزايد، فدلفوا الى ميدان المعارضة والى تحدّي السلطة فسجّلوا انتصارات كثيرة شعبيّة وقادوا المظاهرات ونظّموا حركات الاضراب في كل مناسبة من المناسبات القومية . وكلما سجّلوا نصراً زاد الالتفاف من حولهم فزادهم إقداماً وإمعاناً حتى اصبحوا مضرب المثل من بين المواطنين في الجرأة والعزم .

٣ ـ ونتيجة لسكوت السلطات عن حزب البعث فان هناك منظمات قد استغلت الموقف فنشطت ونزلت الى الميدان . ومن أهم تلك المنظمات الشيوعيون .

لكن حزب البعث هو الذي تصدى للشيوعيين وقاومهم . ويمكن القول ان جزءاً مهماً من شعبية هذا الحزب قد بناها على مقاومته المستمرة للشيوعيين في اول تأسيسه . وان كثيراً من الفئات المحافظة قد مالت نحو حزب البعث نتيجـــة لمقارعته للشيوعيين ومخاصمتهم في مختلف المجالات .

٤ ـ وبعد المؤتمر أخذ طلاب الجامعة من الحزبيين ينهون دراساتهم فتخرج عدد منهم واقتحم الحياة العملية فكان منهم الطبيب والمحامي والمدرّس وغير ذلك . وقد رافق هذه الحال من إكمال الدراسة والنفوذ السياسي شيء من الطموح ونزوع الى الحكم لدى بعض الشبان، وهو أمر طبيعي بالنسبة الى من كان في مقتبل العمر ويعتز بعلمه ومقدرته وكفاءته .

الاّ ان هذا الطموح المبكر قد كان شبيهاً بالاسفين يدق في نعش الحزب اذ انّه لا بد ما يبعده عن المثل والنزاهة والتجرد ولو بعض البعد .

٥ ـ لفت الحزب بعد وجوده الرسمي، اي بعد المؤتمر، نظر بعض الساسة التقليديين وهم من الطامحين الذين لم تحقق لهم احزابهم مطامحهم على الوجه الذي يرغبون ، فمالوا نحو حزب البعث يتعاطفون معه او يظهرون التعاطف على الاقل معه، فنشأت صداقات بين كبار الحزبيين

وبين بعض هؤلاء الساسة .

وكأنما كان الدافع العفوي وحتى الارادي لهؤلاء الساسة هو القيام بتهديد مبطن لاحزابهم ليعطوهم ما يطمعون فيه من مكاسب ومناصب، او كأن ذلك كان انذاراً لاحزابهم ليعودوا الى دراسة الاوضاع واعطاء كل ذي حق حقه .

لكن هذا كله قد كان يتضمن الاعتراف الكامل بوجود حزب البعث واهميته ونفوذه . وبعدما كان الساسة التقليديون يعتبرون حزب البعث فئة من الطلاب مهمتهم التصفيق والهتاف لهم اذا مرّوا من حولهم، اصبحوا هم يركنون الى هذا الحزب يدعمون به قوتهم ووجودهم ويفرضون بسبب علاقتهم به على احزابهم شروطاً ومصالح . وقد ركز وجود حزب البعث واعطاه المنزلة المحترمة يومذاك هذا التجرد والزهد والابتعاد عن المصالح والمنافع الذي بدا على قيادة الحزب .

ومع الزمن فان الاحزاب التقليدية اخذت في الهبوط بينما اخذ حزب البعث في الصعود . والرأي العام بطبيعته ميال الى التطرف وهو كذلك متضجر دوماً من حكم جامد لا يقوم بالاعمال المثيرة او الدافعة على الأمل والرجاء، وكان الحكم في تلك المرحلة مهلهلاً راكداً قلقاً .

٦ — وهذا الوهج الذي بدا على الوجود السياسي لحزب البعث قد أدّى الى صدى عند بعض ضباط الجيش، وضباط الجيش ليسوا الا نفراً من المواطنين يخضعون لكل التيارات التي يخضع لها سائر المواطنين ويتأثرون بها ويتفاعلون معها . فحصلت نتيجة لذلك اتصالات بين بعض الحزبيين وبين بعض الضباط وقامت صداقات شخصية واجتماعات وطنية بين الفئتين . وهذه ايضاً شجعت اعضاء الحزب على التمادي في المعارضة والمقاومة للسلطة الحاكمة .

ومن غير المعقول ان ازعم ان هذا الذي حدث انما حدث بسبب انعقاد المؤتمر، ولكن اسوق المراحل التي مرّ بها الحزب واذكر العوامل التي منحته الصلابة والمناعة وسهلت له التضخم والتعاظم العددي والمعنوي .

ويمكن وصف هذا الواقع الراهن الذي بينته انه بارقة أمل بل ومرتكز يبنى عليه قيام سلطة في المستقبل القريب او البعيد لحزب البعث. وبارقة الأمل هذه قد كانت سبباً في تدفق المنتسبين الى الحزب من المترددين او المشككين او الحائرين او الخائفين او الطامعين. وقد سجل الحزب اعضاء كثيرين مع تقيّده يومئذ بقاعدة الاصطفاء والتزكية ووضع العضو زمناً تحت التجارب والاختبار. ويمكن القول ان مناطق برمتها في سورية قد اصبحت تؤلف مناخاً بعثياً كاملاً حتى ولو لم ينتسب العدد الأكبر منهم الى الحزب فالتأييد كان ظاهراً لحزب البعث. وتعدى الحزب حدود سورية فتسرب الى الاقطار العربيّة المجاورة كما اجتاز حدود الطلاّب اذ انتمت اليه فئات أخرى من عمال وفلاحين وتجار. ولم يكن طابع المنتسبين اليه هو طابع الطبقية بل ان المنتسبين كانوا من كل الفئات والطبقات وحتى من بعض الاغنياء والوجهاء.

دستور حزب البعث

قلنا إن المؤتمر التأسيسي الأول لحزب البعث قد أقرّ دستور الحزب. فماذا يتضمن ذلك الدستور وما هي اهدافه العامة؟

دستور الحزب دستور قومي صرف. فهو لا يشرك شيئاً مع القومية العربية ولا يضع أمراً من الأمور على صعيدها وفي مستواها. والاشتراكية الواردة في الدستور ليست الماركسية بل انها على النقيض من الماركسية كما سيأتي بيان ذلك. والاشتراكية في خدمة القومية ولا عكس.

«الامة العربيّة وحدة روحية ثقافية وجميع الفوارق القائمة بين ابنائها عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي»
(المادة ٢ من الدستور).

«حزب البعث العربي حزب عربي شامل تؤسس له فروع في

سائر الاقطار العربيّة وهو لا يعالج السياسة القطريّة الا من وجهة نظر المصلحة العربيّة العليا »

(المادة ١ من المبادىء العامة) .

« حزب البعث العربي قومي يؤمن بان القومية حقيقة حيّة خالدة وبان الشعور القومي الواعي الذي يربط الفرد بامته ربطاً وثيقاً هو شعور مقدس حافل بالقوى الخالقة حافز على التضحية باعث على الشعور بالمسؤولية عامل على توجيه انسانية الفرد توجيهاً عملياً مجدياً »

(المادة ٣ من المبادىء العامة) .

وانك تكاد تجد دستور الحزب مغموراً من اوله الى آخره بهذه الروح القومية التي احتلت سوح الافكار والنفوس فانعكست على الدستور تملي فيه وتسجل نزوعها وقناعاتها وعقائدها بشكل لا لبس فيه ولا ابهام .

امّا ما ورد في الدستور من نزوع اشتراكي فانما هو نزوع سليم يتصل بشرف الامّة العربيّة وكرامة الانسان . وهذا النزوع الاشتراكي هو العدالة الاجتماعية المساعدة على خلق الكفاية التي تمكن الانسان العربي من تحقيق اهداف امته وتسهل له الاستمرار في الكفاح والجهاد ما دام قد أمن العوز والجهل والمرض وابتعد عن القلق على مصيره ومستقبله بما أمنت له الدولة من شروط العيش ومستلزماته . وهنا لا بد لنا ان نشرح الفرق بين اشتراكية البعث وبين الاشتراكية الماركسية .

الاشتراكية الماركسية تقوم على دعامتين توصلاً لتحقيق هدف أخير في نظرها ، اما الدعامتان فهما :

١ — التفسير المادي للتاريخ واعتبار كل التحركات وفي مختلف العصور وبكل اشكال هذه التحركات انما كان مبعثها الأثر المادي وحده . والمطلع على دستور حزب البعث يتأكد أن الحزب لم يقترب من هذه الدعامة ولا قبلها لا كلياً ولا جزئياً . فالروحية التي وردت في الدستور تنفي مثل هذا الاتجاه . كما ان التراث العربي والحقيقة العربيّة الخالدة التي يستند اليها الحزب في بناء نظرياته القوميّة يتعارضان تعارضاً

كاملاً مع مذهب التفسير المادي للتاريخ .

٢ — الصراع الطبقي . وهذه هي الدعامة الثانية للاشتراكية الماركسية، وحزب البعث قد رفض هذه الدعامة رفضاً قاطعاً ما دام يحرص على تجميع طاقات الامّة العربية واستخدامها في سبيل حرية العرب وحفظ كيانهم ومقارعة الاستعمار اينما كان في الوطن العربي الكبير .

اما ما تريد الماركسية ان تحققه بواسطة هاتين الدعامتين فهو الوصول الى حد الغاء الدولة بعد قيام حكم البروليتاريا . وهذا هدف لم يقبل حزب البعث النظر فيه او معالجته او عرضه .

هذا ونلفت انتباه القارىء الى ان ضمان الفرد والتأمين الاجتماعي واستيلاء الدولة على المؤسسات الكبرى وتأميم الصناعات التي يصعب على الافراد بوسائلهم الخاصة القيام باستثمارها ، ان كلّ هذا لا يعني الماركسيّة لا من قريب ولا من بعيد . وانّه لا يتعارض مع القومية بل انّه يسهل لها الانطلاق والتسامي . كما انّه لا يتعارض مع التشريع العربي (الاسلام) ولا يصطدم بالخلق العربي .

وفي التشريع الاسلامي ذهب الفقهاء الى أبعد مما ذهب اليه حزب البعث في دستوره في هذا الميدان . واجتهاد فقهاء الحنابلة وغيرهم من المذاهب قد اعطت (الامام) الدولة حق الاستيلاء على اموال الرعايا كلّها اذا قامت كوارث او مخاطر تهدد المجتمع ، كما جعل هؤلاء الفقهاء المال والملكية وظائف اجتماعية تخدم اهدافاً عامة معينة، فاذا لم تستطع القيام بتلك الخدمات فان اصحابها يفقدونها وتعود بعد ذلك الى الدولة . وليس هنا مجال التبسط والتفصيل لعرض آراء الامام الطوخي مثلاً وابن حزم وابن تيميّة نفسه في هذا الباب . وقد نصّت المادة ٩ من الفصل الخامس (سياسة الحزب الاقتصادية) على ما يلي :

« التملك والارث حقّان طبيعيان ومصونان في حدود المصلحة القوميّة » وهذا ما يتفق تماماً مع آراء الفقهاء السالفين من مختلف المذاهب الاسلامية . وبديهي ان الدستور هو عصارة آراء القيادة

يومئذ ، وقد قبله المؤتمرون لأن كل الفئات وجدت فيه ما يحقق رغباتها . فذوو الميول القومية شفى غليلهم المنهج القومي، وذوو الميول اليسارية قد رأوا في مواد التأميم وتحديد الملكية وما اليها من البذور الاشتراكية ما يغذي لهم نزعتهم الى ما ينزعون اليه .

واهل الميول « الليبرالية » كما يسمونها قد وجدوا في دستور الحزب ايضاً ضالتهم . فالحزب نيابي دستوري والسلطة التنفيذيّة مسؤولـة امام السلطة التشريعيّة التي ينتخبها الشعب مباشرة .

(المادة ١ — من الفصل الثالث) .

كما ان الذين يحملون في نفوسهم بعض التقبل للانظمة غير الجمهورية قد انسوا لاغفال النص على النظام الجمهوري . ووجد العنصريون المتطرفون كذلك ما يدغدغ عواطفهم ويملأ اخيلتهم . فقد جاء نص في الدستور يقول : « يجلى عن الوطن العربي كل من دعا او انضم الى تكتل عنصري ضد العرب وكل من هاجر الى الوطن العربي بغاية استعماريّة » . (المادة ١١ من الفصل الثاني) .

وكانت راية الدولة العربية المرتقبة هي راية الثورة العربية التي انفجرت عام ١٩١٦ لتحرير الامة العربيّة وتوحيدها (المادة ٩ من الفصل الثاني) .

وانت ترى في هذه المادة اعترافاً كاملاً بفضل الثورة العربية التي قادها الملك حسين بن علي شريف مكة، هذه الثورة التي تنكر لها اخيراً هؤلاء الذين استولوا على مؤسسة حزب البعث .

وكنّا قلنا ان النصوص تبقى جامدة اذا لم يمكن تحويرها ويجري تفسيرها على غير ما هدفت اليه اذا كان اتباع الحزب لم يعودوا منسجمين مع مقاصد النصوص . وفي ذلك الحين يحدث الانفكاك بين المعاني والمباني ويسير الحزب من غير ارتباط بتلك النصوص ويعتصر المسؤولون الكلمات والمواد ليخرجوها عن غاياتها الحقيقيّة .

فبعد مرور زمن طويل ، فهم الحزبيون من كلمة الانقلابية الانقلابات العسكرية والوثوب في ظلمات الليل على السلطات القائمة

واقصاءها او سجنها واستلام دفة الحكم . ولم لا يكون ذلك كذلك ، ودستور الحزب نص على انه حزب انقلابي : « حزب البعث العربي انقلابي يؤمن بان اهدافه الرئيسيّة في بعث القومية العربية وبناء الاشتراكية لا يمكن ان تتم الا عن طريق الانقلاب والنضال وان الاعتماد على التطور البطيء والاكتفاء بالاصلاح الجزئي السطحي يهددان هذه الاهداف بالفشل والضياع فهو يقرر... » (المادة ٦ من الفصل الثاني) .

« الانقلاب على الواقع الفاسد انقلاباً يشمل جميع مناحي الحياة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية » . (الفقرة ٣ من المادة السادسة من الفصل الثاني) .

فالانقلاب على الواقع الفاسد فكرياً وسياسياً جرى تفسيره انه انقلاب عسكري مسلح يوقف الحياة الديموقراطية ويجمّد الحريات في كل الميادين . وبعد مرور زمن طويل فهم المسيطرون على حزب البعث العربي ان العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص وتأمين ما يحتاجه الانسان العربي من غذاء وكساء وصحة وتعليم ، انما هي تعني الماركسية فقرر مؤتمر للحزب ان الحزب ماركسي. ومن مجرد العودة الى التاريخ العربي يعلم المرء ان الفرد كان غاية الغايات في ما لا يتعارض مع مصلحة المجموع او الأكثرية من الشعب . ومن يعرف انه في زمن الدولة العربية الاولى وفي عهد الوليد بن عبد الملك كان يعين لكل اعمى قائد ولكل مُقعد خادم على نفقة الدولة ، فانه لا يستغرب ان يجيء في دستور حزب عربي حاول ان يعيد الى امة العرب ثقتها بنفسها ويحقق لها امجادها ويحيي تراثها ، لا يستغرب ان يرى هذه الضمانات متوافرة لتحقيق كرامة الانسان العربي وحريته وحاجاته على مختلف انواعها . وان ورود مثل هذه النصوص لا يعني ان الحزب اصبح ماركسياً او انّه يجب ان يصبح كذلك . لكن الاهواء والانحرافات التي دخلت الحزب مع الداخلين اليه من الماركسيين هي التي زحلقت الحزب الى مثل هذه المناهج التي هي غريبة عن الامّة العربيّة والتي لا يمكن ان تجتمع مع المذهب القومي الذي يتسم به دستور الحزب . ذاك ان

الماركسية لا تعترف بالقوميات ولا تقبل بالسير على هذه الاسس التي ينادي بها الحزب، وان هناك تناقضاً كاملاً بين الماركسية وبين اهداف البعث العربي .

ولادة الطموح

بعد مؤتمر الحزب وبعد سن الدستور أخذ طلاب الحزب يتخرجون من الجامعات تباعاً . وكان الفرح يغمر نفوسهم الى درجة الغرور اذ اصبح لهم حزب يتمتع بتأييد شعبي ولهم جريدة يعبرون فيها عن آرائهم ولهم قيادة لها احترام لدى الفئات السياسية . وبعدما كان السلوك العام مثالياً نزيهاً مجرداً عن كل منفعة شخصيّة فالطلاب لا يعيلون احداً وليس عليهم من تكاليف الحياة الا اقلّها ، وهم في عمر الصبا لا يصلحون لشيء يأسفون على حرمانهم منه ، حدث التبدّل، وكبر الشبّان وحملوا شهادات الجامعة واصبح عليهم بعض الاعباء ونزلوا الى معترك العمل يقتحمون الميادين بحثاً عن الرزق والمنزلة . وبالتدريج وبشكل غير منظور تزحزح بعض الطلاّب، الجامعيون منهم والمتخرجون ، عن اماكنهم التي كانوا فيها او قل خرجوا من القلاع الحلقيـــة التي كانوا يتحصّنون بها . فقام صراع ضمني بين بعض هؤلاء والقيادة . والذي لا شك فيه انه لم يحدث تحلّل ولا انزلاق سريع عن المبادىء وانما كان ذلك ببطء وحكمة . وكان على القيادة ان تزداد عناداً وصلابة وابتعاداً عن كل ما يمكن ان يطعن المثل والاستقامة او يعيبها ولو من بعيد وذلك كي تعطي هؤلاء الاعضاء الدروس الكافية في ميدان التعفف والتجرد . ويمكن القول ان قيادة الحزب كانت تعيش على الكفاف او ما هو في معنى الكفاف .

وكنت تلمس الطموح منطلقاً بشكل سلبي . فالشبان كانوا يفاخرون بانهم محرومون من الوظائف . وهذا القول وحده في التحليل النفسي يدل على نوع من الأسف بعث الشكوى والتذمر بصفة الفخر

والزهو . وكأنما الوظائف حق من حقوقهم تنازلوا عنها في سبيل الحزب والأمّة .

والعمل المباح يومئذ كان الترشيح للنيابة . وقد رشح بعض الشبان انفسهم في الانتخابات الّتي جرت عام ١٩٤٧ وعام ١٩٤٩ . الاّ ان فلسفةً برزت من جديد تقول ان من الحكمة والخير والنفع للامّة ان يتولى المناصب في الدولة العناصر المخلصة القديرة المرتبطة بمصير الامّة بدلاً من ان يتولاها نفر من الانتهازيين العاجزين الذين لا يهمهم مصير الامّة او الوطن .

ووجدت هذه الفلسفة أرضاً خصبة فلاكتها الالسن وصقلتها الى ان أصبح المناخ قابلاً للاخذ بها . وما كانت القيادة تقف ضد هذا الاتجاه الاّ لأنّها تعلم ان السلطات الحاكمة يومئذٍ لا تسمح بدخول ابواب الدولة الاّ لمن كان يجاريها وينهج نهجهاً . واذا تقدم من لم يكن من هذه النوعية فان السلطات تحاول ان تستل منه كل عناصره التي يعتز بها، وبذلك تخرجه من ايمانه بالحزب وبما يحويه من معانٍ ومثل لتدخله في جهاز الدولة . ومع كل ذلك فقد جرت محاولات لأدخال بعض كبار الخريجين في بعض المناصب البرّاقة كالسفارات مثلاً، ولكن المحاولة قد فشلت ولم تكن الحكومة مستعدة للاعتماد على عناصر مشكوك في ولائها التام لها .

ازمات وتيارات في الحزب

نعود الى متابعة مسيرة الحزب . فنحن الآن في النصف الثاني من العقد في الاربعينات .

في هذه السنوات ظهرت آراء مستقلة لبعض القادة . وبعدما كان الانسجام تاماً بين الثلاثة الدائمين فقد تبين ان هناك خلافاً في وجهات النظر في بعض الامور السلوكية . لكن هذه الخلافات لم تكن بالقدر الذي يستلزم الانشقاق او التباعد . وكانت الثقة متبادلة بينهم وكل

خلاف كان يدمغه الود والاخاء وكامل الثقة ولا يلبث مثل هذا الخلاف ان يذوب ويتبخر لأن الروابط كانت من المتانة بحيث لا يصدعها الاّ العظيم من الامور :

١ ـ فمن الامور التي نبهت بعض القادة الى خطأ المشرف على جريدة الحزب ان الجريدة سايرت ثورة الطلاب ورجال التعليم في سورية وفي دمشق خاصة ضد الاستاذ ساطع الحصري . وكان المفروض ان الجريدة ستنبري للدفاع عنه وتتولى هي مخاصمة التيار لأن قيادة الحزب كانت متفقة مع آراء ساطع الحصري في القضايا القومية . والقيادة عمّمت على الحزبيين في بلاغ لها خاص وجوب مطالعة كتب الاستاذ الحصري . وما كان يليق بجريدة الحزب ان تتقاعس عن نصرة رجل يقوم الاتفاق بينه وبين الحزب كاملاً .

وبعض من القيادة قال : « كان الافضل للحزب وللجريدة ان يتعرضا لمهاجمة الطلاب وللرشق بالحجارة دفاعاً عن ساطع الحصري . اذ بهذا يؤكد الحزب ثباته في الدفاع عن معتقده ومنهاجه » .

لكن المشرف على الجريدة من القياديين قال إن جمهرة الحزبيين هم من الطلاب ، وكأنما الجريدة عندئذ تقف في وجه اعضاء الحزب وتخاصمهم دفاعاً عن شخص ليس بالحزبيّ .

فقيل له ان في هذا الاسلوب رائحة الانتهازية السياسية . فقال ان هذا الموقف يسهل تصحيحه وستعمد الجريدة الى نشر تصريح او حديث للاستاذ الحصري للدلالة على ان الصلة الفكرية لم تنقطع معه . وهكذا سدل الستار على هذه المسألة . ولكنها لم تمر من غير ان تحدث اثراً في النفوس . والآثار الصغيرة اذا تتابعت وتراكمت يقوم فوقها اثر كبير او خلاف جسيم .

٢ ـ جرت مناقشة على موضوع آخر هو مبدأ تدخل الجيش في السياسة . وهل هو أمر مقبول من جانب الحزب ام مرفوض ؟

وكان هنالك رأيان : الأول يقول ان تدخل الجيش في السياسة أمر مقبول اذا كان التدخل لمصلحة الحزب وهو مرفوض اذا لم يكن كذلك .

واما الرأي الآخر فهو يطلب تطبيق قاعدة واحدة على كلا الحالين، فاما التدخل مقبول على اي حال واما هو مرفوض على اي حال . وقال القيادي ان رأيه الخاص ان تدخل الجيش في السياسة أمر مرفوض على كل حال . وحتّى لو تبنّى الجيش ايصال السلطة كاملة الى الحزب فان ذلك لا يمكن ان يكون مقبولاً . وانتهى الجدل لأنه كان نظرياً او (اكاديمياً) كما يقولون، بمعنى ان الجدل لم يقم حول أمر واقع مطروح للبحث وانما هو افتراض لحدث قد يقع وقد لا يقع . وهذا الجدل حول هذه القضية اضاف اثراً آخر فوق الأثر السابق .

٣ – وثار نقاش حول قبول العسكريين في الحزب . وكان هنالك ايضاً رأيان : رأي يمنع انتماء العسكريين الى الحزب، فهو يرفض قبولهم وحتّى اذا كانوا في الحزب وانتسبوا الى الكلية العسكريّة فانّه يجب فصلهم من الحزب . ورأي يرى قبول العسكريين اذ أن العسكريين في نظر هؤلاء ليسوا الاّ قطعة من الشعب يعيشون قضاياه ككل الفئات ولهم الحق كما لغيرهم في الاشتراك بتقرير مصير الأمّة .

اما اولئك الذين يحرمون الحزب على العسكريين فانهم يخشون من تسلط السلاح على الافكار، فهم مشبعون بالنظرية الديموقراطية والسلاح يعطّل الديموقراطية ويقضي عليها .

وقد قبل في بادىء الأمر الرأي الأول اي إبعاد العسكريين عن الحزب . ودام هذا فترة تغير الأمر بعدها وتدفق العسكريون سرّاً وعلانية الى الحزب مما قد يأتي شرحه وتبيانه في البحوث القادمة . وهذه القضية كذلك اضافت بعض الاختلافات في صفوف قيادة الحزب .

٤ – وقام جدل حول وسائل العنف وهل يجوز استعمالها ضد الخصوم من المواطنين ام لا يجوز . وكان هنالك رأيان ايضاً . فمن قائل بجواز ذلك ومن مانع . ولم يتخذ الحزب قراراً في هذا الأمر ولا في الامور السابقة وانما ترك كل ذلك للاحداث فهي التي تقرر ما يجوز وما يجب وما لا يجوز ولا يجب ، واعتبروا ان لكل حادث حديثاً .

٥ – وثار نقاش حول استقلالية الحزب الحاسمة ام امكانية دخوله

في محالفات مع احزاب وطنية أخرى في حال المستلزمات الوطنية او القومية . وكان هنالك رأيان ، رأي يمنع التحالف وحتى المهادنة مع اي حزب آخر اكان ذلك الحزب تقليدياً ام كان عقائدياً . ورأي آخر يرى جواز التحالف والتعاون في ظروف مخصوصة تهدد مصلحة الوطن اذا لم يتم التحالف .

وكذلك لم يتخذ الحزب قراراً في هذا الشأن بل ترك الامور تسير حسب الظروف وحسبما تسيرها التقادير . ويبدو ان هذه البحوث لم تكن نظرية صرفاً وان كانت كذلك في ظاهرها . بل ان هناك مقاصد معينة يحملها بعض اعضاء الحزب ويقذفها الى القيادة لدراستها والبت فيها . وقد تبين ان هناك اعضاء في الحزب يتعاطفون مع الحزب العربي الاشتراكي ويريدون فتوى بجواز التعاون ليكون التعاون خطوة اولى في سبيل الدمج . كما ان هناك اعضاء يتعاطفون مع الحزب الشيوعي وهم كذلك يريدون صدور فتوى من القيادة وهي المرجع الصالح لاصدار الفتاوى ولتكون تلك الفتوى اباحة لاقامة الصلات والعلاقة مع الشيوعيين . ولم تكن القيادة تتابع النيات والمقاصد ولكنها كانت تدرس المسائل المطروحة عليها بروح مجردة وخالية من كل الاحتمالات التي يبيتها بعض الاعضاء . وكانت القيادة في هذه المرحلة مسيطرة سيطرة تامة على الحزب ولم يكن قد برز الى الوجود العملي من الشبان من يستطيع الاعتراض على القيادة . والموقف تغير طبعاً بعد ذلك مما سيأتي بيانه .

٦ — وانا اذكر في هذه المناسبة وبعدما قوي في الحزب بعض الفئات ، ان حديثاً جرى بين اثنين من اعضاء القيادة اذ اقترح احدهما تنفيذ مسألة . واعترض الآخر على ذلك واخذ يدلي بحجته لاقناع زميله بصواب الاعتراض ، فقال له الأول : انا قانع بما تقول وهو رأيي ولكن الشباب سوف يصفوننا باليمينية اذا نحن لم نستجب لطلبهم . فقال له : ومن زعم ان اليسار افضل من اليمين . ثم ما هو اليسار وما هو اليمين عند العرب ؟ وهل هي الا كلمات مفرغة من المحتوى

وقد نقلت الى المفهوم العربي نقلاً تقليدياً بلا رويّة ولا تمحيص ؟

ثم ان هذا الموقف يقلب الأمور على اعقابها . وبدلاً من ان يكون الشباب مقودين يصبحون قائدين وتصبح القيادة مقودة . انه ربط للحصان وراء العربة ، وانه لأمر خطير يهدّد وجود الحزب، فيجب اتخاذ المواقف الحاسمة والبت بصراحة في هذه الامور . واذا كان الخلاف سيحتدم في المستقبل فيجب ان يحتدم منذ اليوم ويجب ان تنفجر كل المكنونات التي في الصدور . ونحن اما ان نكون قيادة او لا نكون . والبحث اليوم يدور حول هذه المسألة . وأما المسألة المعروضة للبحث فقد اصبحت ثانوية .

وانا اسوق هذا للدلالة على ان بعض فئات من الحزب اشتد ساعدها واخذت تحاول ان تملي على القيادة بعض ما تريد .

٣ - البعث وانقلاب حسني الزعيم

المناخ العام المؤدي الى الانقلاب

كل هذه الخلافات داخل الحزب كانت تعتبر اموراً طبيعيّة، فلا بد من خلاف في الرأي والاجتهاد وإلاّ كان الحزب تابعاً لصنم او لمجموعة اصنام . وكانت الاحداث المتلاحقة تغطي مثل هذه الخلافات الى ان وصل حزب البعث الى حال من الغرور فاقت حدود الثقة بالنفس .

فقبل الانقلاب الذي قام به حسني الزعيم نشط حزب البعث نشاطاً منقطع النظير . وقد اتخذ له « استراتيجية » اذ اصبح العمل على وتيرة واحدة في كل نواحي المدن التي للحزب فيها فرع : في كل يوم محاضرة في مكتب الحزب تتبعها مظاهرة في اليوم الثاني . كل هذا ضد « التابلاين » التي عرض أمرها على مجلس النواب .

وفاحت روائح الرشوة والعمالة وهي شائعات يطلقها الشارع بلا تحفظ وبلا حرج ولا سعي الى اقامة الدليل . انها اتهامات للنواب والحكومة ومؤيديها . وظن الحزب ان هذه النشاطات انما تعبّر عن قوته الذاتية فخالطه الغرور وتمادى .

لكن اتضح بعد ايام ان يداً خارج البلد هي التي مهّدت لمثل هذا الجو . ومجلس النواب الذي تعرّض للاتهامات الشائنة لم يعد يستطيع البتّ في أمر خطوط التابلاين . وما لبث المناخ ان أصبح مهيئاً لعملية انقلاب عسكريّة اطاحت بالمجلس والحكومة واستولى العسكريّون على زمام الامور، ولم يمضِ الاّ وقت قصير حتى عرض أمر التابلاين

على قائد الانقلاب حسني الزعيم الذي اعطى لنفسه صلاحية التشريع بامر عسكري، فوقّع على الاتفاقية التي ثار الشعب بسببها على السلطة الديموقراطية وحطـّمها ولكنه لم يستطع ان يتحرّك قيد انملة ضد ما عمل حسني الزعيم .

وبعد ذلك حصل ما يسمّى باعادة النظر . فهل كان طبيعياً ان يقوم حزب البعث بما قام به من غير رادع ولا حسيب . وهل كان له من النفوذ ما يخيف الدولة بكاملها فلا تتجرأ على المساس به او باحد افراده الاّ في حالات نادرة لا يؤبه لها .

كان الراجح اذن ان اليد العليا قد ضجرت من تردد مجلس النواب والحكومة وخوفهم من تصديق اتفاقية التابلاين ، فعمدت الى اقتلاع العهد بكامله والى جلب شخص واحد بمفرده الى السلطة ينشر الذعر والرعب ويصادق على الاتفاقية من غير ان تفتضح.

وفي انقلاب حسني الزعيم حدثت في الحزب ازمات أخرى هي اعنف من الازمات الفكرية والاجتهادات التي مرّ بنا بعض منها . انها ازمات هزّت الحزب هزاً عنيفاً وكادت تبعثر اجزاءه وتجعله اثراً بعد عين . لكن يبدو انـّه كان في الجو ما ساعد حزب البعث على الدوام والاستمرار لمقاصد قد يأتي البحث عنها في ما بعد .

انقلاب حسني الزعيم

وفي يوم من ايام ربيع ١٩٤٩ افاق الناس على عملية انقلاب عسكري قام بها رئيس الاركان في الجيش السوري الزعيم حسني الزعيم . وكان من نتيجتها حل مجلس النواب والاطاحة بالحكومة ورئيس الجمهورية . وكان حزب البعث العربي من المهللين والمؤيدين للانقلاب اذ قام اعضاؤه بمظاهرات صاخبة معربين عن فرحتهم لانقاذ البلاد من الطغمة الحاكمة المستأثرة الرأسمالية الاقطاعية العميلة ، على حد ما ورد في هتافات الهاتفين .

ونحن قلنا ان المناخ السياسي كان مهّد لمثل هذه العملية وكان التخطيط عاملاً على تضخيم الاخطاء التي ترتكبها السلطات لتكون مبرراً لعمل انقلابي ويكون الشعب مرتاحاً له .

كان جمهور الحزبيين وجلّه من الطلاب الذين لا يحملون مسؤولية ولا يلزمون انفسهم بالتبصّر والتمحيص، واعمارهم يومئذ لم تكن تسمح لهم ان يكونوا متبصرين ولا ممحصين . فماذا كانَ موقف القيادة التي يفترض ان تكون واعية لكل الاحداث التي تقع ، مقدرة بواعثها ونتائجها ودلالاتها والمردود الذي يحصل للبلاد من خير وشرّ من تلك الاحداث ؟

هنا ايضاً حصل شبه انقسام وخلاف بين القيادة في الرأي . فالأكثرية من القيادة كانت فرحة مستبشرة متفائلة بالحدث متوقعة ان ينقل البلاد من عهد مظلم قاتم الى عهد جديد باسم منفتح على الشعب يعمل لمصلحته ويجهد لصيانة حقوق الطبقات الكادحة والفلاحين ويحقّق كل الاماني التي كان الحزب يحلم بتحقيقها .

لكن عدداً قليلاً من القيادة لم يكن كذلك . فهي لم تكن مستبشرة ولا متفائلة . واذا لم تصل الى حدّ المعارضة للحدث فانّها لم تكن متحمّسة بدرجة حماسة هؤلاء بل كان موقفها أقرب الى الفتور منه الى التحمّس .

حجة المتحمسين هي ان العهد كان فاسداً ويجب التخلّص منه باي شكل ممكن . وان في الحركة خيراً على كل حال وان الشعب برغباته العميقة الخفيّة والظاهرة هو الذي حفز العسكريين الى القيام بالانقلاب ، وان الانقلاب سيجاري رغبات الشعب ليضمن لنفسه البقاء والاستمرار ، فان لم يفعل فان الشعب غير عاجز عن تهيئة مناخ يؤلب فيه على الانقلاب من يستطيع تهديمه وتقويضه . والعهد السابق كان فاسداً، اما العهد الجديد فإن الى جانب الفساد المحتمل صلاحاً محتملاً ايضاً . والأمل قائم في تحقيق الاصلاح . هذه هي الحجج التي اوردها المؤيدون لانقلاب حسني الزعيم . ولعل هذه الحجج هي التي

نفذت الى قلوب الاعضاء وعقولهم فكانت سبباً في الحماسة والاندفاع والتأييد للعهد الجديد .

اما حجة الفاترين المتشائمين فهي انهم كانوا يعرفون حسني الزعيم معرفة جيّدة ، ويعرفون ما قد يكمن في العملية من مساوىء، ومعرفتهم لحسني الزعيم جعلتهم يشكون في انه اداة صالحة للخدمات الوطنية او القومية .

زد على ذلك ان الانقلاب العسكري بادرة خطرة في الحياة السياسية . وان الحرص على الديموقراطية جعل الانقلاب غير مقبول عندها . واذا كان العهد الذي حطّمه الانقلاب ليس عهداً ديموقراطياً فانه ديموقراطي من الناحية الشكليّة . ولو سلم الشكل وحده لكان في ذلك خير يستحق معارضة الانقلاب العسكري .

والعهد الديموقراطي الذي قوّضه حسني الزعيم كان نتيجة انتخابات مزيّفة وارادة مزوّرة . والسلطات يومئذ لم تكن تخفي تدابيرها بل انها سارت في التزوير والتزييف علانية وفي وضح النهار . ومع كل ذلك فان الانقلابات العسكريّة شر من تلك العهود الزائفة على حد ما ساقه هؤلاء القلة من قادة حزب البعث تعليقاً على انقلاب حسني الزعيم.

وهنا حصل تفاوت في النظرة الى هذا الحدث الخطير فحدث خلاف في وجهات النظر .

لكن تيار الحزب العارم والارتياح الشعبي للانقلاب ونجاح العملية بلا دماء ولا كوارث قد اخفت صوت المعارضين فرضوا بالأمر الواقع وساروا مع السائرين في البحث عن بناء العهد الجديد وكيف يجب ان يكون . ولا شك في ان اختلاف وجهات النظر وقيام اجتهادات متباينة في حدث مثل هذا الحدث ليسا بالأمر الهيّن . اذ المفروض ان يكون الاتفاق تاماً في مثل هذه الحوادث . وانا لا اقصد بالاتفاق الشكلي الناجم عن التصويت وحصول الأكثرية في المنظّمة او الحزب وانما اقصد الاتفاق في المقاييس السياسية والصدور عن دوافع موحدة والانبعاث من مفاهيم احتلت نفوس المجموعة وعقولها وميولها .

وتلاحقت الازمات يتلو بعضها بعضاً . فان قيادة الحزب، والحزب كلّه ، قد اختلفت مع حسني الزعيم بعد مرور فترة وجيزة على انقلابه . فهي لم تجد فيه المنقذ المتفاني . وكانت هي افترضت ذلك فيه خطأ . وهي عندما حملته من الاعباء ما لم يكن يحمل واحسنت فيه الظنّ لم تكن مصيبة . وظهر التناقض بين الحزب وبين قائد الانقلاب، وكانت خيبة أمل مريرة عرضت قيادة الحزب الى النقد والتجريح لا من الناس البعداء بل من الحزبيين انفسهم، اذ سرعان ما ظهر على القيادة خاصة التسرّع والاندفاع العاطفي في تأييد الانقلاب . وكان لا بدّ للقيادة بدافع عفوي ان تنتقم لنفسها وتعوّض النقص الذي بدا عليها . فكان ان جنحت القيادة الى اتخاذ موقف صارم يعيد لها الثقة عند الحزبيين وعند الشعب كلّه ، فعقدت القيادة وكانت تسمّى اللجنة التنفيذيّة يومئذٍ ، اجتماعات لدراسة الموقف والقيام بما يجب القيام به .

وبعد المداولات اتفقت القيادة على اصدار بيان يشرح الوضع الراهن ويحدد مطاليب البلاد ويدل على الانحرافات التي ظهرت على العهد الجديد . واوكلت القيادة الى عضو من اعضائها في اعداد مشروع البيان الذي سيتخذ شكل منشور يوزّع على الشعب ويقدّم الى حسني الزعيم نفسه . فتمت صياغة البيان وتقدم المقرّر به الى اللجنة التنفيذية لدراسته ومناقشته واقراره فكان ما سنعرض على القراء :

كان مشروع البيان قاسياً شديد اللهجة . وقد كتبه كاتبه من غير ان يخضع للقاعدة المنطقية القائلة «بالقياس مع الفارق» . فقد حسب الكاتب نفسه في العهد السابق للانقلاب وظنّ ان المناخ الديموقراطي مستمر . والمناخ الديموقراطي ليّن نسبيّاً حتّى لو كانت الديموقراطية مزيفة وهزيلة .

واعترض معترض في القيادة على البيان وشرح اوجه الاعتراض وبين مواطن الشدة وحذر من ان مثل هذا البيان لا يصلح اطلاقاً لان

يوجه الى دكتاتور يشعر بان الارض تميد من تحته وان دمه على « راحة كفّه »، كما يقول المثل الدارج. وقال ان النتيجة الحتميّة لهذا المنشور هي اعتقال اعضاء اللجنة التنفيذية مع أكبر عدد من كبار الحزبيين . والاعتقال في حد ذاته ليس مكروهاً بل انه في بعض الاحيان مستحب وضروري اذا كان المراد منه خدمة الوطن والامّة . لكن اعتقال القيادة في هذا الظرف الحسّاس قد يعرّض الحزب الى التبعثر والتحطّم وهو بعد لم يكد يركز اقدامه في الارض . لكن الأكثرية في اللجنة كانت مصرّة على اصدار البيان بنصّه . وتخلل البحث كلمات يستشم منها التعجب من ملاحظة العضو المخالف الذي لم يسبق له ان تحسب او حذر او خاف من مغبة العمل الوطني . فكان ان وقع على البيان اعضاء اللجنة التنفيذية كلهم، وهم يومئذٍ ، الاستاذ ميشيل عفلق والاستاذ صلاح الدين البيطار والدكتور وهيب الغانم وجلال السيد .

اعتقال القيادة وبعض الاعضاء

ووقعت الواقعة واعتقل حسني الزعيم اعضاء اللجنة التنفيذيّة لحزب البعث العربي الموقعين على البيان كما اعتقل عدداً كبيراً من اعضاء الحزب الكبار والصغار واودعهم في سجن المزّة وكان ذلك في شهر حزيران ١٩٤٩ .

وكانت مفاجأة كبرى لقيادة الحزب تلك المعاملة القاسية التي عوملوا بها والاهانات التي لقوها في السجن العسكري فقد حلقت السلطات شعر رؤوسهم ووضعتهم في السجون المنفردة وحرمتهم من التدخين ومن كل وسائل الترفيه او التسلية ، فلا جريدة ولا كتاب ولا راديو . كما تعرض القسم الكبير منهم الى الضرب والشتائم ومختلف الوان التعذيب .

وكل ما كان يتذرع به المتحمّسون للبيان ان حسني الزعيم كان صديقاً لعضو في القيادة هو العضو المعترض على قسوة البيان وانه لن

يقوم حسني الزعيم باعتقال اللجنة التنفيذيّة ، وما هو في مستوى هذا التبرير .

وكنّا قلنا ان الاعتقال قد يكون مطلوباً في بعض الاحيان ولكن في بعض الاحيان هو مضرّ بالقضية التي يعمل المرء لاجلها .

وكان التعذيب والاهانة والشتائم كلها اموراً محتملة لو لم ينجم عن هذا الاعتقال ازمة كبرى هزت الحزب وكادت تعصف به . تلك هي الرسالة التي بعث بها الاستاذ ميشيل عفلق الى حسني الزعيم والتي استغلّها خصوم الحزب . فجعلوها سبّة وعاراً سجلوهما على الحزب الى يوم الناس هذا .

الرسالة وذيولها

وجه الاستاذ ميشيل عفلق من سجن المزة رسالة تتضمن الاعتذار عما بدر من شدة في المنشور وفيها ان ملكة المعارضة للعهود السابقة استمرت من غير تمحيص حتى شملت العهد الجديد . وفيها ما يشبه التعهّد بترك العمل السياسي والانصراف الى امور غيرها . هذه خلاصة الرسالة التي احدثت رجّة في اوساط الحزب وفي الميادين الشعبيّة الأخرى .

ولا شك في ان هناك مؤثرات عملت في نفس السيد عفلق أخرجت هذه الرسالة الى حيّز الوجود . والمؤثرات تختلف من انسان الى انسان آخر ، فبعض الحوادث تؤثر في شخص ولا تؤثر في آخر . ونحن عندما نستعرض هذه المؤثرات فلا نستعرضها على اعتبار انّها مؤثرات عامة يخضع لها كل الناس ولكنا نستعرضها من وجهة نظر السيد عفلق .

١ ــ صدمة لم يكن يتوقّعها من الاهانات والازدراء وحلق الشعر والحبس المنفرد .

٢ ــ حرمان من التدخين وكل وسائل التخفيف عن السجين .

٣ــ حرب اعصاب مستمرة وارهاق ومنع للنوم بدخول جمعي

عسكري مفاجيء خلال الليالي بقصد الاخلال بالراحة الى الزنزانات .

٤ – اطلاق الاشاعات والتحذيرات من قبل ضباط كانوا يعتبرون اصدقاء للحزب ويسمح لهم بلقاء القيادة في السجن . وقد تصل التحذيرات الى حد نية المتسلط القيام باعدام عدد كبير من الحزبيين ...

٥ – شاهد السيد عفلق اثناء مروره في الباحة عضواً حزبياً صغيراً في الزنزانة فاعتبر ان كل اعضاء الحزب هم قيد الاعتقال .

٦ – في لقاء بين اعضاء القيادة في السجن وجهنا الى السيد عفلق وعلى سبيل المداعبة التهنئة بهذه النتيجة . وكان يعتبر نفسه المسؤول عن صياغة المنشور وعن الاصرار على اقراره كما ورد . وكان « المغص » النفسي بادياً عليه حينما واجهناه بهذه المداعبة .

كل هذه المؤثرات جعلته ، كما يقول ، مضطراً الى تحرير الرسالة المذكورة ينقذ بها الحزب والحزبيين من المصير الأسود وكأنما هو قد جعل نفسه الضحية والقربان في سبيل الحزب .

ولقد جرت محاولات مع قادة الحزب لاستكتابهم مثل هذه الرسالة ولكن المحاولات لم تنجح .

هذه قصة الرسالة العفلقيّة التي يتحدث بها خصوم الحزب وخصوم عفلق في داخل الحزب . وهذه القصة تذكرني دائماً بالآية الكريمة التي تصف بعض المغرضين بانهم « يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا » .

ولم يمضِ أكثر من ثلاثة اسابيع حتى افرج عن السجناء كافة ، وكان افرج عن الاستاذ عفلق قبل ذلك بما يقرب من عشرة ايام . وقد خرج الحزبيون من السجن ليواجهوا حالة جديدة من البلبلة والقلق الحزبي والنفسي وليعالجوا أمر السيد عفلق بل ليداووا هذا الجرح الذي انفتح في جسم الحزب بشكل قد يعرض الجسم الى الهلاك . وكان هنالك تيارات مختلفة تحركت في داخل الحزب ، وسوف نجمل أهم تلك التيارات والنتيجة التي اقترنت بها حادثة الرسالة :

١ – كان هنالك تيار متطرف لا يرضى الاّ بفصل الاستاذ عفلق فصلاً تاماً من الحزب والتنصّل من الرسالة واستنكارها شكلاً وموضوعاً.

وكان من بين هذا التيار اعضاء في القيادة . ولا شك في ان هذا التيار كان صدى لخيبة الأمل التي لقيها عدد كبير من المعجبين بالاستاذ عفلق ، ويمكن وصف هذا التيار بانه مؤلف من تلاميذ السيد عفلق ومحبّيه .

وقد انكسرت اخيلة هؤلاء وتحطم اعتزازهم . فاذا كان الصوفي الأول في الحزب ينحدر الى مثل هذا الأنهزام فما عسى ان يفعل سائر الاعضاء وهم ليسوا على درجة من التصوف في نظر الاعضاء تضاهي صوفية عفلق لأن بعضاً من اعضاء القيادة يأخذون حظهم من الدنيا ولو على نطاق محدود . واذا كان قائد من ابرز القواد في الحزب يصنع مثل هذا ، والحزب كان كما قلت في مناسبة سابقة « مغروراً » ، وهو يزعم انه يناطح الجبال ويتصدّى لكل القوى البشريّة في العالم ويصرعها ، فاي بادرة هذه بدرت من قيادة الحزب .

٢ ـ وكان هنالك تيار اقل عنفاً وتصلباً وهو يرى أن المسألة لم تصل الى درجة تبعث اليأس وتدمّر الحزب وتهدد القضية القومية في الصميم . ولعل المغالين ضد عفلق كانوا أكثر تقديساً له من المتساهلين. فهؤلاء المتشدّدون اقترحوا العقوبة التي تتناسب مع جلالة قدره وعلو منزلته ونزاهته . بينما قد يكون المتساهلون اقلّ من هؤلاء بقليل من حيث النظر الى منزلة الاستاذ عفلق . وحدث الصراع بين التيارين واستمر وقتاً طويلاً كان الحزب خلاله معطّلاً بل يمكن القول انه كان مشلولاً .

٣ ـ وكان هنالك تيار مستقل لم تأخذ المسألة عنده من الاهتمام ما يجعلها موضوع بحث جدي . وهذا التيار ينحاز الى اقوى التيارين المتعارضين في المستقبل .

وكان مطلوباً منا ان نتخذ موقفاً حاسماً يخرج الحزب عن جموده وعن البحران الذي وقع فيه .

تحدثنا مع الاستاذ عفلق حديثاً هو بمثابة الاستجواب . وكان رأيه ان المسألة لا تقبل الحل الوسط . فإما فصل من الحزب وإما سدل

الستار على الرسالة واعتبارها كأن لم تكن .

والموقفان عنده في درجة واحدة من السلامة والحزم . وكأنّه كان يرد بذلك على اقتراح قال به بعض الاعضاء ينص على عقوبة يفرضها الحزب على الاستاذ عفلق لا تصل الى حدّ الفصل ولا الى قريب من الفصل، بل يرى ان تكون العقوبة رمزية تشير الى ان الرسالة لم تخرج بغير اثر يقع على كاتبها .

وهنا لا بد لنا من عرض ما كنّا عرضناه يومئذ وبحثناه مع عدد كبير من القياديين والردفاء وكبار الحزبيين . ونبيّن النتيجة التي وصلنا اليها بعد تقليب الأمر على وجوهه المختلفة . وكيف ان الحزب قد ضمد جراحه بالصبر والتسامح . وانا أكتب هذا وليس لي من نصير يسعفني الاّ ذاكرتي . ومع ذلك فانا متأكد من انّه لن تخطىء الذاكرة لأن الحوادث المهمة تحفر لها خنادق عميقة في الذاكرة وتستقرّ فيها ولن يكتب لها النسيان .

ما الذي حدث ؟ سألنا انفسنا في معزل عن الضجة التي ثارت حول الرسالة وفي منحى عن المشاعر الثائرة والانفعالات العاطفية التي ملأت الجو يومذاك في اوساط الحزب . وكان من جملة البواعث لهذه الانفعالات ما يسمعه اعضاء الحزب من خارج الحزب من نقد وتجريح وانتقاد .

لم يكن في الرسالة خيانة . وليس فيها تآمر وليس فيها عمالة . وليس فيها امور لااخلاقية أخرى . فما فيها اختلاس ولا سرقة ولا اي شيء شائن من مثل هذا .

ان في الرسالة ضعفاً في المناعة وقلة في المقاومة . وان فيها ضجراً ووساوس واوهاماً ضخمت القضايا الصغيرة فجعلتها قضايا كبرى . ويمكن تلخيص ذلك بالقول : ان الرسالة قد نمّت عن مزاج عاطفي وبنيان رخو . فهل المصابون بالبنيان الرخو وبالمزاج العاطفي يصنّفون مع الخونة والعملاء ويفصلون عن احزابهم ؟ لقد كان العقل والمنطق وربما عاطفة الود المخزونة للاستاذ عفلق كلّها مجتمعة قد مالت بنا الى التخفيف

من الحادثة والتهوين من شأنها ومن اثارها، وبالتالي فإنّا قد قررنا سدل الستار عليها، واعتبار ان لكل نفس حدوداً معيّنة من المناعة والمقاومة ومن الممكن ان يتعرّض كل انسان في حالات خاصة من الضعف النفسي والوهن العقلي الى مثل ما تعرّض له الاستاذ عفلق .

وانتشر معنى القرار (اذ في الحقيقة لم يتخذ قرار رسمي) في اوساط الحزب فتقبله المتطرفون والمعتدلون قبولاً حسناً ، ولعل المتطرفين كانوا في تطرفهم ينتظرون مثل هذه الفتوى ليعودوا بحبّهم واحترامهم الكاملين الكامنين في نفوسهم لاستاذهم الذي يقدسونه « ميشيل عفلق » .

لقد كانت هناك محرضات ومثيرات لفصل الاستاذ عفلق من حزب البعث العربي ، اذ الموقف الصارم (وليس أصرم من فصل عفلق من الحزب) هو الذي يعيد الى الحزب هيبته ويمنع طمع الطامعين فيه من سلطات رسمية وفئات شعبيّة . وهذه وجهة نظر لها ما يبرّرها ولكنّها لم تكن قويّة بحيث نأخذ بها وننفذها .

ولا بد هنا من اطلاع القارىء على بعض مكنونات النفوس والافكار التي كانت لدينا في تلك الازمة .

فكنت اتساءل واسأل زميلاً لي . هل يمكن ان يكون هناك حزب بعث عربي بدون ميشيل عفلق ؟ انا لا اتصوّر ان ذلك ممكن . إذن فان وجود ميشيل عفلق في الحزب هو أمر لا بد منه ولا يمكن الاستغناء عنه . وهذه الضرورة كفيلة بالغاء كل الاتجاهات الأخرى التي يمكن ان تجري ضد ميشيل عفلق .

حقاً ان هناك دعامات في حزب البعث لا يتم وجوده الاّ بها . فاذا تقلقلت دعامة منها اختل البناء وتحطم مع الزمن . وقد حدث ذلك فعلاً ، فانه قد فقدت دعامة من الحزب بعام ١٩٥٥ فأصبح الحزب أعرج وبدأ يتعرّض الى الانهيار ثم ما لبث ان انهار بعد مضي الوقت الكافي .

وهكذا انتهت ازمة هذه الرسالة . والزمن قد كان عنصراً فعّالاً

في محو آثارها الى حد بعيد . ولكن هذه الازمة ما انتهت الا بعدما تركت بعض الآثار في النفوس ولا سيما في نفس الاستاذ عفلق مما سوف نتحدث عنه ببعض التفاصيل في الفصول الآتية . والآثار هذه قد تعقدت فسببت ازمات أخرى كان الحزب عرضة لها ومتعباً في معالجاتها .

الحزب والاتحاد السوري العراقي

مرت بالحزب أحداث سياسية لا بد لنا أن نبحثها ولو بايجاز قبل ان نستمر في تسجيل الوقائع الرسميّة .

في خلال تلك الفترات كان يقذف بين الحين والحين موضوع الاتحاد السوري — العراقي، وكان الظرف يستلزم اتخاذ قرار او بيان رأي على الاقل من جانب المنظمات السياسية والقومية وخاصة من جانب حزب البعث لأنه يرتكز اول ما يرتكز على دعامة الوحدة العربيّة .

كان الحزب اول الأمر يتحدث عن الوحدة العربيّة من حيث هي نظرية ولم يكن يعنى بناحية التحقيق او التنفيذ لها . فكأنما كان يفترض انه قد يأتي ظرف مُؤاتٍ تعلن الاقطار العربيّة وحدتها كاملة فيه وينتهي الأمر .

لكن الحزب عندما نزل الى الميدان العملي ومارس افانين السياسة تبيّن له ان الوحدة العربيّة لا يمكن تحقيقها دفعة واحدة بل لا بد من مراحل . والمراحل المنطقيّة هي قيام وحدات قطريّة ثنائيّة او اتحادات او ما هو في حكم ذلك .

والأمر البديهي ان يتحقق الاتحاد بين القطرين الأقرب احدهما الى الآخر جغرافياً وحضارياً وبشرياً . ثم تتوالى الاتحادات الى ان تشمل اقطار العروبة كلّها ويتم تحقيق الوحدة العربيّة . وعلى هذا المقياس فان الاتحاد يجب ان يتم بين سورية ولبنان ثم بين اجزاء سورية الطبيعيّة ، وبعد ذلك يأتي دور العراق وهكذا الى ان تستوفي الوحدة كل الاقطار . وكانت الوطنية السوريّة قائمة اول الأمر على دعامتين . الاستقلال

والوحدة السورية اللبنانية كما قلنا . وطغى هذا الشعار زمناً طويلاً . لكنه لم يلبث ان خمد وبقي ذا بند واحد هو الاستقلال، لأن لبنان اتخذ له خطاً آخر غير الوحدة مع سورية . وكان الوضع البشري والطائفي في لبنان مانعاً من تحقيق الوحدة بينه وبين سورية، ولم يكن القائمون على القضية الوطنية من الصلابة بحيث يستمرون في رفع الشعار الوحدوي مع لبنان .

اما سائر اجزاء سورية الطبيعيّة فانها ايضاً ألّفت كيانات خاصة بها ولم يبدُ عليها الامكان لبحث الوحدة مع سورية ، لا سيما وهي محكومة من دول لا تفتح الباب لمثل هذه القضايا . ولهذا جاء دور العراق اولاً بعدما كان ثانياً في الترتيب الذي ذكرناه . والذي جاء بالعراق الى هذا المكان ان القطر الذي يسبقه قد سد الباب على الوحدة، وان في العراق حكماً يرفع في كثير من المناسبات شعار القومية والوحدة العربيّة . ولقد قام تحرك اتحادي في الفترة الزمنيّة التي نتحدّث عنها، وكان التحرك هذا غامضاً بمعنى انه لم تعرف جديّته على وجه التحقيق . وكان لا بد لحزب البعث من اتخاذ موقف من مثل هذا التحرك .

جاء الى دمشق وفد من حزب الاستقلال العراقي . وهو حزب يتألف من مجموعة من الشباب المثقف والعامل في الحقل القومي . ولكنه كان معارضاً للحكومات التقليديّة المتعاقبة على العراق اذ كان يعتبرها رخوة من الناحية القومية ومطواعة للنفوذ البريطاني .

ويبدو ان الحزب (حزب الاستقلال) اتفق مع السلطات القائمة في العراق على العمل لتحقيق الوحدة السورية العراقية، فكان الوفد الى سورية مؤلفاً من حزب الاستقلال لأنّه في نظرهم يتمتع بثقة الاحزاب القومية والوطنية أكثر من سائر التكتلات السياسية في العراق .

جاء الوفد الى مكتب حزب البعث ووضع القضية على بساط البحث. وبديهي ان الفكرة من حيث المبدأ لن تلقى معارضة من جانب الحزب بل انها ستحظى بالتأييد الكامل والدعم الذي لا تقيده قيود ولا تحدّه حدود . وقد زعم الوفد العراقي انه يحمل وثيقة موقّعة من

الحزبين الكبيرين في سورية، واعني بهما حزب الشعب والحزب الوطني، يعلنان فيها موافقتهما على الاتحاد بين سورية والعراق . والوفد يريد من حزب البعث ان يوقع على هذه الوثيقة لتكون مرتكزاً له في اثارة القضية على الصعيد الدولي بحجة ان السوريين جميعاً على اختلاف احزابهم قد وافقوا عليها . ولكن حزب البعث في اللحظات الاخيرة امتنع عن التوقيع على الوثيقة بعدما هم بعض القادة بالتوقيع . ولاتثريب عليهم اذ انّ للوحدة سحراً في نفوسهم لا يعادله سحر، على حد تعبير أحد القادة الذي كاد يوقع على الوثيقة .

واخيراً طلع حزب البعث يقول : ان الوحدة هي الدعامة الاولى لحزب البعث وان كل الشعارات الأخرى انما هي وسائل او مرتكزات لها . فحزب البعث ليس موضع شك في هذا . وحزب البعث هو الحزب (الامّ) . وانه يطلب من حزب الاستقلال ان يوقّع على الوثيقة ويودعها عند حزب البعث لأنه اولى منه ومن سائر الهيئات والمنظمات الأخرى . وحزب البعث طلع بهذا القول لأنه كان يعلم ان لا وحدة ولا اتحاد وان المسألة عبارة عن احداث بلبلة وانقسام وانشقاق في الصفوف . وان الحكومة العراقية لا تستطيع تحقيق الوحدة لأن بريطانيا صاحبة النفوذ لدى حكّام العراق لا تريد هذه الوحدة . واذا كانت بريطانيا تتظاهر احياناً بالدعوة الى هذه الوحدة او بالموافقة عليها حينما يصدر النداء من جهة عربية، انما كانت تفعل ذلك من أجل احباط الوحدة لأن الشكوك تحيق بالمسألة لمجرد ان بريطانيا اقترحتها او وافقت عليها .

لم يرتح الوفد العراقي لهذه النتيجة وانصرف مغيظاً الى أجل آخر . والذي علمناه في ما بعد ان الوثيقة التي تحدث عنها وفد حزب الاستقلال العراقي والتي تحمل توقيع الحزبين السوريين كانت صحيحة . لكن هذا التيار الوحدوي بين سورية والعراق كان يصطدم بتيار معاكس اشد هولاً واقوى . فدعك من النفوذ البريطاني والصهيوني والفرنسي ايضاً يومذاك وخذ التيار العربي الآخر وحده لتعرف اي صخور كان

يقارع مثل هذا الاتحاد .

مصر : فمصر كانت تعمل على احباط الاتحاد السوري العراقي لأن الصراع بينها وبين العراق تاريخياً كان حول سورية وكل قطر يحاول ان يكسبها الى جانبه . فاذا لم يستطع كسبها فلا اقلّ من ان يمنع الآخر عن كسبها . وكانت الملكيّة في مصر قد وضعت ثقلها وكل وسائلها الماديّة والمعنويّة للحيلولة دون تحقيق هذا الهدف .

السعودية : اما السعودية فانها كانت متحمّسة مثل حماسة مصر او اشدّ ضد الاتحاد السوري العراقي لأن تمام العمليّة في نظرها هو فوز للأسرة الهاشميّة واعلاء لشأنها وتثبيت لاقدامها بل ولاعطائها فرصة التحرك ضد الحكم السعودي في الحجاز واقلاق راحة الحكام هناك . والتنافس بين الاسرتين الهاشمية والسعودية لا تزال رواسبه الى يومنا هذا . ولذلك وضعت السعودية ثقلها ايضاً وحاربت المشروع .

اما الشيوعيون واليساريون عامة والشعوبيون والمتحللون قومياً فانهم كانوا كذلك معارضين للمشروع .

ولو أن المسألة سارت في طريقها الديموقراطي لما استطاع أحد ان يمنع تحقيق الوحدة . فالحزب الوطني وحزب الشعب اذا انضم اليهما حزب البعث بانصاره ومؤيديه والمتعاطفين معه، ولو لم يكونوا منتسبين اليه، لكانت أكثرية الشعب في جانب هذه المنظمات الثلاث . ولحازت فكرة الوحدة على أكثرية ساحقة . لكن المسألة لم تسر في طريقها الديموقراطي . ومصر والسعودية وحتى فرنسا، وقيل يومئذ انه قد انضمّ اليهم الاميريكيون، قد جنحوا الى القوات المسلّحة في سورية فادخلوا في روع بعض القادة والنافذين في الجيش السوري ان هذه العملية بريطانية وان القصد منها الغاء استقلال سورية وربطها مع العراق بالعجلة البريطانيّة ثم الغاء النظام الجمهوري واتباع النظام الملكي . والجمهورية في نظر هؤلاء الضباط عنوان التقدميّة والتحرّر . ولا ندري فقد يكون بعض الضباط يومئذٍ سلعة للبيع استعملتها تلك القوى لاغراضها .

بيان الحزب حول الاتحاد

اصدر الحزب بياناً حول الاتحاد السوري العراقي . وقبل ان نصف البيان فان من المفيد ان نعرض الاوضاع والعوامل المؤثرة في البيان وهي التي جاء البيان منطلقاً من ايحائها .

كانت قيادة حزب البعث متأثرة بصلات فكريّة وقوميّة مع الجوّ القومي في العراق . وكانت تختزن شيئاً من التقدير والرضا للتاريخ العربي والشعارات القوميّة في العراق على طول الزمن بصرف النظر عن تحقيق شيء من المكاسب القوميّة على ايدي الحكّام في العراق .

فالثورة العربيّة الكبرى وعلاقة فيصل ملك العراق بها . وملكية فيصل على سورية والتفاؤل العربي الذي رافق قيامها ثم الاعتداء على فيصل واخراجه من سورية وحلول الانتداب الفرنسي محلّ ذلك الحكم العربي الذي كان يبشّر بمستقبل زاهر للعرب . ثم الاتجاه القومي في العراق بعد حكم فيصل الأول لها وفتح العراق ابوابه لقبول النازحين من الوطنيين السوريين ، وموقف حكومة العراق من تمويل الوفد السوري والانفاق عليه طول مدة مفاوضاته مع الافرنسيين في باريس عام ١٩٣٦، ومواقف كثيرة أخرى قد خلقت تعاطفاً بين العراق وبين حزب البعث العربي الذي كان يرى مع كثير من السوريين ان العراق سوف يكون « بروسيا » العرب وسوف تتوحد الامّة العربيّة بمسعاه كما وحّدت بروسيا الدولة او الامّة الالمانيّة . وكان تمثال الملك فيصل الأول موضوعاً باستمرار على مكتب قيادة الحزب . لكن هذا لم يكن شعور جميع اعضاء الحزب . اذ كان في الحزب من لا يرى هذا الرأي ولم يكن بهذه الدرجة من الانعطاف نحو العراق وتقديره .

وانطلاقاً من هذه المشاعر والانطباعات والقناعات فقد صدر بيان الحزب، فكان يضمّ كل هذه التيارات مما جعله متناقضاً الى حد بعيد :

١ ـ الحزب موافق من حيث المبدأ على قيام الاتحاد . وموافقة الحزب عاطفية وعقلية وسياسيّة في وقت واحد . امّا من الناحية

العاطفيّة فانا قد وصفنا حال قيادة الحزب وحنينها الى العراق .

وأمّا من الناحية العقليّة فانّه من البديهي ان يوافق حزب عربي مثل البعث على عملية اتحاديّة . والاتحاد هو الدعامة الكبرى التي يقف عليها الحزب وهي محور تحركه، فاذا لاحت مثل هذه الفرصة الاتحاديّة فما على الحزب الاّ ان يهتبلها ويعض عليها بالنواجذ .

وأمّا من الناحية السياسية فان القيود التي يلتزم بها قطر تجاه دولة او دول أخرى ستفك عنه اذا اتحد مع قطر طليق من تلك القيود ، وهذا عرف دولي مارسته اقطار كثيرة قبل الحرب العالمية الاولى . فقد كانت بعض الدول تجنح الى الاتحاد مع غيرها اذا هي حاولت التخلص من قيود تربطها مع دول أخرى . والملاحظات التي سبقت حول الاتحاد السوري العراقي والقائلة بان العراق مقيّد وسورية طليقة، وان سورية ستقيد مع العراق نتيجة الاتحاد، هي ملاحظات لا تستند الى اساس قانوني. وهي انما سيقت للتثبيط ولاحباط العمليّة، وكان للدول والجهات الأخرى التي ذكرناها من قبل ضلع في ابراز هذا المحذور الذي تلقفته داخل الحزب بعض العناصر الفاترة في مشاعرها القومية وروجت له حتى تحدث به حزبيون كثيرون خلال الفترة التي نتحدث عنها .

ومن حيث ان الحزب موافق من حيث المبدأ على الاتحاد فقد جاءت الموافقة بارزة في البيان . حتى ان الذي يقرأ الفقرات الاتحاديّة يخرج بانطباع يقيني ان حزب البعث قد اقرّ الاتحاد .

٢ ــ ولكن الى جانب فقرات الموافقة وردت فقرات واضحة تقف ضد الاتحاد . والذي يقرأ هذه الفقرات يجزم بان الحزب قد رفض الاتحاد . وكان التناقض واضحاً بين الرأيين، وهما قد سيقا معاً واعطيا القوة الكاملة من جانب الحزب مصدر البيان .

لا شك في ان هناك صراعاً قائماً في نفوس قيادة الحزب . فالحنين الى الاتحاد والموافقة عليه نفسياً وعقلياً لا بد ان يحتلا محلهما في البيان . وان الارهاب الفكري الذي ساد المناخ السياسي يومئذ والذي اشرنا الى مصادره، من مصريين وسعوديين واميركان وبريطانيين وشيوعيين

وشعوبيين، قد جعل الحزب يحتاط في بيانه ويعدل الاندفاعة نحو الوحدة بتحفّظات ومحاذير وشكوك شلت هذه الموافقة مع الاتحاد بل قلبتها الى رفض وتقريع . وكانت الوسائل المختلفة قد اتخذت لمحاربة مشروع الاتحاد حتى توصل خصومه الى اتهام المحبذين له بالعمالـــة للانكليز وبالمروق عن فلك القضية القومية . ولم يكن لحزب البعث من القوة ما يدرع بها ليثبت امام تلك التيارات والاتهامات فاتخذ من تبرير الرفض خطة وساقها في البيان تخلصاً من الحرب التي أعدها له الخصوم . واذا لم يكن هذا قد حدث بقرار عقلي ودراسة منطقية فان الذي لا شك فيه ان ذلك قد حدث بحكم اللاشعور ومحاولة السلامة .

ويمكن اضافة مؤثرات أخرى الى هذه المؤثرات . فضباط في الجيش السوري قد قاوموا فكرة الاتحاد لسبب او لآخر . وكان بعض اعضاء الحزب قد ارتبطوا بصداقات مع هؤلاء الضباط ، فكان المناخ يسري على هؤلاء الاعضاء وهم ينقلون بالعدوى ذلك الى اوساط حزب البعث . وكأنما كان في بيـــان الحزب محاولة لارضاء هؤلاء الضبّاط والحصول على ثقتهم كسباً للمستقبل ، فالليالي حبالى وقد تلد كل أمر عجيب .

ومن الطريف ان اوساط الحزب قد انقسمت قسمين . فالميالون الى الاتحاد قد رأوا في البيان اندفاعاً نحوه . وغير الميالين الى الاتحاد رأوا فيه رفضاً قاطعاً . والواقع ان في البيان رفضاً قاطعاً وموافقة قاطعة .

ولم يكن مردود هذا البيان صالحاً على الحزب ، فقد رأت فيه الاوساط غير الحزبية نوعاً من التلاعب والتناقض مما اساء الى سمعة الحزب بحيث اضطر بعض اعضاء القيادة ممن لهم صلات شعبية مع العالم الخارجي عن الحزب الى الدخول في حوار ومناقشات استغرقت وقتاً طويلاً ، وذلك كله دفاعاً عن البيان وشرحاً لمراميه واهدافه ومعانيه .

وكان وقع البيان على الجهات المتصارعة الدولية ايضاً في غير مصلحة الحزب. فالعراق صاحب المشروع رأى في البيان رفضاً . والجهات المقاومة للاتحاد رأت في البيان موافقة مع الاتحاد واقراراً له . وظلت الالسن

تلوك هذه المعاني وتتحدث بها الى ان جاءت احداث أخرى طغت عليها وسدلت ستار النسيان من حولها . وبعد هذا سننتقل الى الاحداث الأخرى ذات المساس بالحزب ومواقفه وسلوكه .

الانقلاب على حسني الزعيم

في صبيحة يوم من شهر آب ١٩٤٩ اعلنت محطة الاذاعة في دمشق عملية الانقلاب على حسني الزعيم واذاعت قتله مع رئيس الوزراء بعد محاكمة عسكرية اجريت لهما .

ويظهر ان موجة الاتحاد وعناصرها وركائزها هي التي تغلبت على الموقف، فاطاحت بحسني الزعيم الذي كان يعمل مع مصر ضد الاتحاد، وكان يعمل مع اية جهة تضمن له او يقدّر انها تضمن له بقاءه في سدّة الحكم .

ومن قبيل الاستنباط لا اليقين نرى ان وفد حزب الاستقلال والموجة الاتحاديّة استمرّا في محاولتهما الاتحادية رغم عدم الاتفاق مع حزب البعث الذي ذكرنا موقفه من حزب الاستقلال . واكتفى العاملون على تحقيق الاتحاد بتأييد الحزبين الكبيرين التقليديين، الشعب والوطني، واستغنوا عن حزب البعث اذ لم يكن له قوة سياسية ضاربة من الناحية العمليّة تجعل المحاولة الاتحادية مجمّدة ما لم يوافق البعث عليها . وكنّا قلنا ان البعث كان يتمتع بتأييد عاطفي أكثر من تمتعه بتأييد سياسي عملي .

فالانقلاب الذي تبناه الضابط السوري سامي الحناوي ضد حسني الزعيم كانت تفوح منه رائحة العراق وتسوده مقولة الاتحاد . وقد علمنا في ما بعد ان عناصر من الحزبين السوريين المذكورين قد قامت باعداد الترتيبات للقضاء على حسني الزعيم باعتباره يمثل المعارضة بل المقاومة لمشروع الاتحاد .

وليس من ضير علينا اذا اعترفنا بانه لم يكن لحزب البعث يد ولا أثر في عملية الانقلاب على حسني الزعيم . وأصح الاقوال ان القائمين

على العمليّة استبعدوا حزب البعث عمداً وأخرجوه من الاشتراك في اعداد الخطة .

وكان حزب البعث جريحاً وهو مشغول بتضميد جراحاته التي نجمت عن الازمات التي مررنا بها، ومن أهمها رسالة السيد عفلق الى حسني الزعيم . ويمكن اعتبار الحزب في تلك الفترة مجمداً في نشاطه اذا قيس ذلك الى نشاطاته في مختلف مراحل التحركات السياسيّة الأخرى .

وقد تألفت حكومة برئاسة السيد هاشم الاتاسي وكان اعضاؤها من حزب الشعب ومن المستقلين ومن ممثلي بعض الفئات السياسية . وكان السيد هاشم الاتاسي اتحادي المنهج . وكان الطابع العام للوزارة هو الطابع الاتحادي بصرف النظر عن عدد قليل من الوزراء لم يكونوا موافقين على الاتحاد، وكان جرى ضمّهم الى الوزارة لاشراكهم في تبعة ما قد تقوم به الوزارة من احتمال بحث موضوع الاتحاد وامكان تحقيقه .

وكان ان دخل الاستاذ ميشيل عفلق وزيراً للتربية ودخل الاستاذ أكرم الحوراني وزيراً للزراعة . وكان السيد ميشيل يمثل حزب البعث العربي كما كان السيد الحوراني يمثل حزب « العربي الاشتراكي » . وكان الحزبان حزبين تامي الوجود، واعني بذلك انه لم يقم بينهما الدمج الاّ بعد ما يقرب من ثلاث سنوات . وكان الرئيس الاتاسي عطوفاً على حزب البعث وكانوا هم يبادلونه الود والاحترام . ومن البديهي انه هو الذي اصرّ على اشراك البعث في وزارته رغم معارضة عناصر أخرى لهذا الاشتراك .

وقبل الاستاذ عفلق منصب الوزارة مع انه عزوف عن المناصب غير ميّال لها كما كنا نعرفه . وعزوفه عنها قد يتضمّن بوجه من الوجوه الخوف من القيام باعبائها والشك في حسن تصريفه للأمور وتعريضه للعمل الدؤوب المستمر وليس من طبعه ان يكون كذلك .

لكن السيد عفلق قد أصيب ببعض التعقيد بعد كتابه المذكور الى حسني الزعيم وكأنما قد ساقته العفوية الى قبول الوزارة لأن في ذلك معنى « رد الاعتبار » كما يقولون . زد على ذلك ان العهد الجديد تلوح

فيه بوادر الأمل والرئيس الاتاسي موضع ثقة الحزب .

كما ان الوزارة بمجموعها لا باحادها كانت جيّدة العناصر ويجوز حتى للمتطرف التعاون مع اعضائها في حدود معيّنة . وكان الحزب كذلك ميّالاً الى قبول منصب الوزارة لأن ذلك بمثابة الاعتراف بوجود الحزب السياسي وقوّته، وكانت هذه اول مرة تعترف فيها الهيئات السياسية بذلك. والمناخ الذي خلقته الحكومة كان مناخاً ديموقراطياً اذ اعلنت سريعاً عن عزمها على اجراء انتخابات حرّة لمجلس يتولى هو تصريف شؤون الشعب نيابة عن الشعب . وهذا مطلب من مطالب الحزب الرئيسيّة قبل ان ينزلق الحزب الى منزلقات الحكم العسكري والى قبول الدكتاتورية التي يصفها بانها حكم (النخبة) او الطليعة او ما اشبه هذا الكلام . وفوق هذا وذاك فان في هذه الوزارة تجربة للقابليـــة في الحكم واختباراً للاستعدادات التي تنطوي عليها نفوس قيادة الحزب في استلام مقدرات السلطة . وهي بذلك امتحان عسير لا بد من الانخراط فيه تهيئة للمستقبل .

وكشفت وزارة الحزب بشخص الاستاذ ميشيل عفلق عن مجاهيل كثيرة كما يقول الرياضيون .

فقد حصل شيء من التكالب والانتهاز في بعض فئات مـــن الحزبيين الكبار الذين انهوا تحصيلهم الجامعي . وظهر بذلك ان نوعيتهم لا تختلف كثيراً عن نوعيات سائر المواطنين رغم انتسابهم الى حزب يرفع شعار المثالية والنزاهة والتقشّف من أجل التفرغ لخدمة الامّـــة كلّها . وهنا ايضاً حصل صراع ضمني وعلني بين الفئات الحزبيّـــة المختلفة، فمنها من كان يصرّ على إكمال الشوط بترفع وانفة وتجرد، ومنها من كان يرى ان من جملة الوسائل لخدمة الأمّة ان يتولى بعض المناصب الحسّاسة النوعية الطاهرة المخلصة .

اما قيادة الحزب فانها قد أصيبت بالثنائية، فهي بين تيارين عاصفين كانا يصطرعان من حولها، فكان ان تملكها الندم على قرار مبدأ قبول الاشتراك في الحكم . ومضت الايام وعناصر القيادة كأنما تعيش على الجمر . ومن حسن حظ الحزب ان هذه الايام لم تمتد طويلاً فاجريت

الانتخابات النيابيّة واستقالت الحكومة ولم يرجع اليها أحد من البعثيين .

ولم تظهر على حزب البعث في شخص السيد عفلق كفاءة الحكم وقابليات الادارة . وليس في هذا غرابة ولا غضاضة . اذ الغالب ان العمق والحسم لا يجتمعان . والتعمق يخلق البطء ويذهب بخاصة السرعة في البتّ والانجاز . وهذه الخاصة لم تكن في السيد عفلق وحده وانما هي خاصة تكاد تكون عامة شاملة لجميع الزعماء البعثيين — الا من عصمه الله — وعندما استلم حزب البعث الحكم بعد عام ١٩٦٣ كان على نمط ما كان عليه السيد عفلق في وزارته . فقد كان عفلق متردداً سادراً وكان مهملاً لشؤون وزارته، لذلك كان «الديوان» هو الذي يتصرف على هواه والتوقيع توقيع الوزير . وكم من مرّة اكتشفنا مثل هذه الحوادث التي وقع عليها « الوزير » ولم يكن يدري عنها شيئاً .

ولعل اختصاص البعث اذا اريد تصنيفه هو الدرس ووضع التصاميم وتخطيط المخططات . على ان تتولى الحكومة وهي هيئة من خارج الحزب، تنفيذ هذه المخططات بما تملك من كفاءات واستعداد .

والناس بين فيلسوف وحاكم . وهذا لا يعني ان الفيلسوف لا يمكن ان يحوي شيئاً من صفات الحكم ولا ان الحاكم لا يحوي على صفة من صفات الفيلسوف بل يعني « التغليب » . وتكوين قادة حزب البعث أقرب الى تكوين الفلاسفة منه الى تكوين الحكام . ولهذا فانهم قد فشلوا في الحكم وابتعدوا عن خدمة الأمّة في هذا الباب .

وحزب البعث قام اول ما قام يمتطي متون العقل والموضوعية والتمحيص وهذه احدثت فيه البطء والهدوء . ولكن الاقدار فاجأته في يوم من الايام فسلّمته السلطة كاملة او قريبة من الكمال . وكانت المفاجأة قاسية ومربكة . ولو كانت لدى الحزب قابليات مخزونة وكفاءات للحكم لهانت المفاجأة ولأمكن التغلب عليها . لكن المفاجأة قد انضمّت الى ضعف القابليات فالفت هذا التخبط والاضطراب في عهود حزب البعث المتلاحقة في كل من سورية والعراق .

وبسبب هذه الحقائق التي سقناها عن قابليات حزب البعث للحكم

فان بعض انظار الحزبيين الذين مدّ الطموح رأسه عندهم قد اداروا وجوههم نحو الاستاذ الحوراني الذي رأوا فيه كفاءة وقابلية للحكم، ورأوا فيه فضلاً عن ذلك بعض الواقعيّة والميل الى اشراك الانصار والاعوان في شتّى اجهزة الدولة . وهو في نظرهم لا يحرم ما يحرمه البعثيون من الامور المباحة ولا يجد بأساً من دفع كثير من الشبان الى اعلى ما يستطيعه من المناصب . ومن هنا زرعت جرثومة البحث عن امكان دمج الحزبين وقلبهما الى حزب واحد، وهو البحث الذي سنأتي عليه ببعض التفصيل لاحقاً . وهؤلاء الطامحون لا يريدون ان يتخلوا عن حزبيّتهم ولا الخروج على من ألفوا من رفاقهم في عهود طويلة ، كما انهم لا يريدون ان يبقوا في فلك الحرمان والابتعاد عن المواضع التي تصقل قابلياتهم وتنزلهم منزلة اعاظم الرجال .

وخير طريق للجمع بين المطلبين هو أن يندمج الحزبان، وهذا هو الذي يؤمّن لهم بقاءهم في الحزب ويفتح امامهم الميدان لنوال ما يرغبون في نواله . انهم يجمعون بذلك بين ـ حنبلية ـ البعث يومذاك وبين ترخص أكرم الحوراني وواقعيته . وقد عمل هذا الشعور عمله فانبرى عدد من البعثيين يسعون، سرّاً في اول الأمر وجهاراً بعد ذلك، لدمج البعث العربي مع العربي الاشتراكي . ففي ذلك قوة ومنعة ونفوذ سياسي قد يغلب كل الفئات الأخرى . هذه هي الفلسفة العلنية التي قدموها حينما اقترحوا بحث امكانية الدمج وهو ما تم بعد ذلك .

٤ - البَعث وَالشيْشكلي

بريق لحزب البعث والانقلاب على الحناوي

بعد الانقلاب على حسني الزعيم بدا بريق على حزب البعث رغم ما تعرض له من نكسات . فها هو الحزب يحتل مقعداً وزارياً . فهو اذاً ذو وزن سياسي . وفي الانتخابات النيابيّة التي جرت في اواخر العام فاز بعض البعثيين في الانتخابات وصاروا نواباً في الجمعية التأسيسيّة التي انقلبت بعد فراغها من وضع الدستور الى مجلس نواب . على ان هذا لا يجب ان يحمل على غير محمله ولا يفسر تفسيراً بعيداً عن الحق . فالنواب البعثيون الذين فازوا في الانتخابات لم يفوزوا لحزبيتهم وانما فازوا لعوامل أخرى محليّة وشخصية مما لا مجال لتفصيله الآن .

لكن الشيء الأكيد هو أن بعض هؤلاء النواب كان معروفاً بمركزه الحزبي الكبير . ومع ذلك فانّه قد فاز بتأييد شعبي ساحق . وهذا يعني انه لم يكن لدى الشعب فكرة المقاومة للحزب . وبعد اجتماع المجلس أعلن عضوان آخران حزبيتهما ولم تكن معلنة من قبل، فأصبح للحزب ثلاثة نواب كانوا يؤلفون المعارضة وحدهم تقريباً . وكان لنواب الحزب وجود محترم في البرلمان، وكانوا على جانب عظيم من الفعالية والنشاط وقد حظوا باحترام اعضاء المجلس رغم الخلافات الحزبية التي كانت بينهم وبين سائر الكتل والاحزاب .

وكان الحزب يشعر بثقله ويعتز بسلوكه وترفعه عن المكاسب الشخصيّة . وقادة الحزب حاولوا ان يكونوا النموذج لسائر الاعضاء ويعطوهم درساً في التعفف والزهد والابتعاد عن بهرج الدنيا وزينتها .

ومن طريف ما حدث في تلك الاثناء ان نائب الحزب قد كلّف بدخول الوزارة الاولى في العهد الديموقراطي الجديد . وكان المكلف بتأليفها هو السيد ناظم القدسي الذي اصبح عام ١٩٦١ رئيساً للجمهوريّة السوريّة .

واستمهل النائب لدراسة التكليف حزبياً . واجتمعت قيادة الحزب وكانت ثلاثية يومذاك اذ ضمّت، الى جانب النائب المكلّف وهو عضو في القيادة ، الاستاذين عفلق والبيطار .

وبعد المداولة قبل الحزب مبدأ الاشتراك في الوزارة بمقعدين . وارسلت القيادة الاستاذ عفلق الى السيد القدسي لاتمام البحث وابلاغه مطلب الحزب . لكن السيد القدسي رفض اعطاء أكثر من مقعد واحد . وقال انه يفهم ان يكون نائبان في المجلس ويطلبان مقعداً وزارياً ، فهذا أمر مألوف ، لكنه لا يفهم ان يكون في المجلس نائب واحد ويطلب مقعدين (وكان هذا قبل أن يعلن النائبان الحزبيان الآخران عن انتسابهما الرسمي الى الحزب) .

وتوقفت المفاوضات ورفض الحزب الاشتراك في الوزارة بعدما رفض طلب آخر له. ذلك الطلب هو أن يقدم الحزب مندوبه الى الوزارة، وكان المتفق عليه أن يكون الوزير هو الاستاذ البيطار لا النائب جلال السيد .

وكان طلب الحزب هذا كسباً اذ انّه يربح صوتاً في مجلس الوزراء ووزيراً يطلع على شؤون الدولة الى جانب نائب له حريته في المجلس، وقد حدث بعد ذلك بقليل انقلاب جزئي قام به بضعة عقداء في الجيش السوري يتقدمهم اديب الشيشكلي .

اطاح الانقلاب بقائد الجيش اللواء سامي الحناوي . وكذلك منع السيد ناظم القدسي من الاستمرار في وزارته فاستقالت وهي لم تعمر الاّ يوماً او بعض يوم . وكان القائمون على الانقلاب يعتبرون وزارة القدسي هذه امتداداً لوزارة الرئيس الاتاسي التي قامت بعد الانقلاب على حسني الزعيم . وهذه الوزارة التي كان البعث ممثلاً فيها قد كانت

(متهمة) بانّها تسعى الى تحقيق الاتحاد السوري العراقي .

والقوات المضادة لهذا الاتحاد والتي اتينا على ذكرها من قبل قد وصلت الى القوات المسلّحة فاستعملتها لاحباط المشروع المزعوم بالقوة. وكلّف الرئيس الاتاسي ، الذي انتخب رئيساً للدولة ، السيّد خالد العظم بمشورة الجيش وبالاتفاق معه بتأليف حكومة جديدة .

ولم يلبث الخلاف ان دبّ بين السلطات العسكريّة وبين مجلس النواب والسلطات المدنيّة . وكان نواب الحزب طبعاً من أكبر المناوئين للتدخل العسكري في الشؤون السياسية .

وقد أخذ الحزب يتألق في نظر الكثير من الشبان في الاقطار العربية الأخرى فضلاً عن سورية نظراً لسلوك نواب الحزب في مجلس النواب وما نثروه من مفاهيم سليمة وتمتعوا به من احترام الفئات الأخرى . وكان هذا التألق سبباً لانتساب الكثيرين الى الحزب وحصوله على مؤيدين ومناصرين في جميع الاقطار العربية المجاورة لسورية .

ودبّ النشاط في وجود الحزب بعدما أصابه ركود نسبي في عهد حسني الزعيم . وفي النظم البرلمانية يتجلّى موقف الاحزاب في ما يصدر عن نوابها في الاغلب في مجلس النواب . وكان ابرز ما تراءى للعيان هو الصراع بين ممثلي الحزب والجيش حول التدخّل العسكري في السياسة . وهنا لا بد لنا من سوق ملاحظة عابرة : ان الفئات المختلفة في مجلس النواب كانت تعارض تدخل الجيش في السياسة . وكانت تلك الفئات كأنما تصارع الجيش على السلطة التي يحاول ان ينتزعها منها لأنها هي الأكثرية في مجلس النواب وبالتالي هي الحاكمة .

اما معارضة البعث فهي معارضة مبدأية فليس من ورائها مغنم ولا منفعة خاصة . فالحزب أقلية في المجلس وليس من الممكن ان يستلم حكماً او سلطة . وسار ممثلو الحزب سيرتهم الطبيعيّة في هذا المنهج ولم تلبث فئات من الأكثرية ان وضعت ممثلي الحزب في الواجهة امام الجيش واختفت هي من ورائهم ترمي بحساب وتعقّل وتحاول ان لا يظهر عليها انها ترمي او انها تخاصم الجيش متسترة بنواب البعث .

وقامت محاولات من جانب سلطات الجيش لايجاد الوفاق بينها وبين البعث او اقامة هدنة على الاقل . وزار مكتب الحزب العقــداء الخمسة الذين كانوا يسمونهم « الفرسان الخمسة » وعلى رأسهم اديب الشيشكلي ، وهم النافذون في الجيش يومئذ وبعد مناقشات دامت أكثر من ساعتين ، انصرف العقداء بلا طائل لأن نظرية الحزب كانت مستقرة حول البحث عن امكانية الاتحاد ، وحول ابعاد الجيش عن السياسة . ولم تثمر الجهود التي بذلها بعض الاصدقاء لتقريب وجهات النظر فاشتد الخلاف بعد ذلك .

تأميم شركة حصر الدخان وبعض المرافق الأخرى

انطلاقاً من مبادىء الحزب في وجوب تأميم المرافــق الكبرى والشركات ذات النفع العام وما هو في معنى ذلك فان الحزب قد سار في محاولة تأميم شركة حصر الدخان فنجح في محاولته وتم التأميم في جلسة صاخبة لمجلس النواب .

لقد بشّر الحزب بهذه المطالب وكتب في الجريدة وعمّم الفكرة على أكبر عدد مستطاع من الرأي العام . وقام اعضاء الحزب مع مؤيدي المطلب من سائر الفئات الشعبيّة بمظاهرات صاخبة تؤيد طلب التأميم، وحدث صدام بين رجال الأمن وبين المتظاهرين وقع بسببه عدد من الجرحى ، حتى ان أحد اعضاء الحزب فقد رجله في واحدة من تلك المظاهرات . وعرضت الحكومة نتيجة الضغط المتزايد المسألة على مجلس النواب . فحمل اعضاء الحزب من النواب حملة صادقة ضد هــذه المؤسسة وقد استجاب للحزب العدد الاكبر من النواب . وقالت الحكومة بلسان وزير الاقتصاد انه ليس لديها مانع من التأميم ولكنها تترك الأمر الى المجلس، فوافق المجلس بأكثرية ساحقة على ذلك. وبالرغم من وجود عدد من النواب عارض التأميم لاسباب قد تكون اجتهادية وقد لا تكون ، فان هؤلاء انفسهم لم يستطيعوا اعلان معارضتهم الا بشكل رمزي لأن

مناخ الجلسة النيابيّة لم يكن يسمح لهم بمثل هذه المواقف التي تعدّ خروجاً على اجماع الشعب وابتعاداً عن تحقيق رغباته .

وكان نجاح الحزب في هذه القضية مشجعاً له على المزيد من محاولات التأميم لمرافق أخرى . وفعلاً فان الحزب قد قاد مع بعض النواب الآخرين حملة تأميم المصرف السوري بعد وقت لاحق من تأميم شركة حصر الدخان . لكن الحزب كان ينزلق احياناً الى ما لا يجب الانزلاق فيه . وقد يبدي من الاهتمام أكثر مما يجب في قضايا صغيرة لا تؤخّر ولا تقدم في مصير الوطن . وهو انما يسلك هذا بحكم الاندفاع الذاتي كما يقول الطبيعيون . واذا كان الحزب قد حاز على اعجاب الكثرة من المواطنين في تأميم حصر الدخان فان الشعب قد نظر بفتور الى تأميم « المواعين » في اللاذقية . صحيح ان حملة تأميم المواعين قد قام بها حزب الشعب نكاية بالحزب الوطني الذي ينتمي صاحب المواعين اليه ، الاّ ان نوّاب حزب البعث – في ما بعد – قد تحمّسوا للموضوع حماستهم للامور الجديّة المصيريّة .

ومن بعد ذلك صار لحزب البعث منزلة رهيبة لدى الشركات وأهل المصانع الكبرى . واذا كانت هذه المنزلة عنوان تقدم للحزب فان الذي لا شك فيه ان عدداً من اصحاب المصانع قد تألبوا على الحزب وأخذوا يرسمون ويخططون لزعزعته سرّاً واحياناً في العلانية . ولا يستبعد ان هذا التخطيط قد خلخل الحزب من داخله واوقع فيه ثغرات وخلافات في وجهات النظر وعرضه الى التمزق والى قيام الشكوك والريب بين بعض الحزبيين وبعضهم الآخر .

فقاعات في الحزب

لم يكن الحزب يسير مطرد التقدم والنمو خالياً من النكسات والتعقيدات، بل انه لا يبرح يتعرض للعراقيل ويصطدم بالعقبات من داخله ومن خارجه على حدّ سواء .

ولقد ذكرنا ان الركود غلب على الحزب بعيد رسالة الاستاذ عفلق الى حسني الزعيم . وخصوم الحزب قد شهروا به وبالحزب وضخّموا القضية حتّى وضعوها في مستوى الخيانة . لكن مثل هذه المحاولات من جانب الخصوم لم يكتب لها النجاح واستقرت الرسالة حيث هي من الاهمية وكاد أمرها ينسى . ودخل في الحزب عنصر من عناصر النشاط بعدما أصبح له في مجلس النواب ممثلون لهم من امكانية الجذب ما جرّ عدداً كبيراً من الشبان الى الحزب .

لكن حدثت ازمة داخل الحزب غير مرئية . والذين اطلعوا عليها هم عدد قليل من مستوى القيادة وردفاء القيادة .

فالاستاذ عفلق كان مؤيداً من كل فئات الحزب ، واستمر هذا التأييد حتّى بعد رسالة حسني الزعيم بصرف النظر عن فترة قصيرة اعقبت الرسالة وبحث فيها موضوع فصل الاستاذ عفلق من الحزب .

ان هذه الفترة لم تمر من غير ان تحدث أثراً . فالشك في تأييد الحزب المتكامل كما كان سابقاً قد خامر نفس السيد عفلق، فجنح بشكل عفوي الى تجميع قوى خاصة حوله . وفي هذا التاريخ أخذ الحزب يؤلف عقداً في داخله واصبحت القوى مبعثرة، فالتي لم تنضمّ الى السيد عفلق قد انضوت تحت لواء قادة آخرين وصار التندّر مكشوفاً في تسمية الكتل الحزبيّة وسميت كل كتلة باسم واحد من اعضاء القيادة الثلاثية . فضلاً عن كتلة سميناها في اول هذا الكتاب بـ « جناح الارسوزي » .

ولقد كاشفني الاستاذ عفلق مراراً في أمر كان يؤرقه وكان ينام الليل مشغولاً به . فقد قال لي : اذا كان الحزب ينوي ان يمارس العمل السياسي ويحصل على مكاسب فيجب عليه ان يتخذ الاساليب النافعة في هذا المضمار . فقلت له وماذا ترى هذه الاساليب وماذا تتصوّر شكلها البديهي . فقال ان حزباً قومياً في مدينة دمشق المحافظة ، وهو يتألف من أكثرية ساحقة من المسلمين بحكم التكوين العام للوطن، كيف يجوز له ان يكون امينه العام مسيحيّاً . فطلبت اليه ان يستمرّ في رسم المخطط الذي يراه . فقال اريد ان اتخلّى عن الامانة العامة . فسألته

عمّن يرشّح لها من القادة فذكر اسمي . فقلت له : انا غير مقيم في دمشق والامانة تلزم صاحبها ان يكون في مركز العمل . وانت تقول وانا موافق على قولك بان الشباب لا يرتاحون للاستاذ البيطار لأنه قاسٍ في معاملته لهم . فما دمت انا غير موجود ، والاستاذ البيطار لا يتمتع بالرغبة من جانب الاعضاء فإنه لم يبق للحزب الاّ انت ، وهذا امر خطير ارى ان لا اختيار لنا فيه . فطلب مني والحّ في الطلب أن انقل مكان اقامتي الدائم الى دمشق لتولي مهمة الأمين العام للحزب . ولقد جهدت في اقناعه ليزيل هذا الوسواس من رأسه . وكان في جملة ما قلت له : اذا كنا نسير تماماً وفق الاعراف الدارجة ونخضع للمفاهيم العارضة فما هي الانقلابيّة التي نصّ عليها دستور الحزب . وهل الانقلابيّة تعني شيئاً غير التمسّك بالحقّ ولو خالفه الكثيرون .

وأكّدت له انه ليس في الحزب احد غيره يستطيع اداء هذه المهمة وان الحزب ما يزال بقضه وقضيضه يكن له الاحترام ويمنحه التأييد .

وعاد عليّ بمثل هذه النغمة بعد وقت ليس بالبعيد وعدنا الى الحوار والاقناع . وكأنه كان في عروضه يمتحن مدى الثقة التي يتمتع بها منّا ومن الحزب . ولقد بحثت الأمر على حدة مع الاستاذ البيطار فكنّا متفقين في الرأي على ان السيد ميشيل هو الوحيد الذي يصلح للامانة العامة . وان المسايرة واللين والتأثير الروحي التي ينطبع بها السيد عفلق ليست متوافرة في البيطار . والحزبيون أكثرهم من طلاب عفلق في المدارس الثانوية وله عليهم سيطرة روحيّة . والاستاذ البيطار كذلك مدرسهم ولكن الفرق هو ان البيطار يدرّس مادة « العلوم » الجافة البعيدة عن الروح والعاطفة ، والسيد عفلق يدرّس مادة التاريخ وهي اخصب مادة للأثر الروحي المعنوي العاطفي .

وسكت الاستاذ عفلق وسكتنا ، ولكنا كنّا ندرك انه قد أصبح في داخل الحزب عقد ، وان هذه العقد اذا تضخّمت وكبرت فانّها سوف تعرض الحزب الى التصدّع والتمزّق وربما للانهيار . ولقد كنّا نلمس اثار الانشقاق تبدو في الحزب ولكنّها اثار ضئيلة لم تكن تنذر

بالخطر ، وكنّا نشغل انفسنا عنها ببعض الانتصارات في مجلس النوّاب ، فطوراً نهاجم الحكومة ونحرجها ، وطوراً نطلع على المجلس برأي قومي جديد ، وتارة نلفت انظار الجماهير الجالسة في شرفات المجلس الى الحزب بخطاب ناري فصيح يجعل الناس يمضغون اسم الحزب ويلوكونه ثم يصقلونه حتى يصبح لذيذ الوقع على الاسماع . وكنّا نستقبل بعد ذلك عدداً من الشبان في داخل الوطن السوري ومن خارجه يعلنون ولاءهم للحزب واعجابهم بمواقفه مما كان ينسينا هذا الذي يمكن تسميته « الاثتكال » الداخلي الذي كان ذيلاً من ذيول ازمة رسالة حسني الزعيم . وبهذه المناسبة فاني استطيع القول ان الناس وان الحزب قد نسيها بعد وقت مرّ عليها ولكن صاحب الرسالة هو الوحيد الذي لم ينسها . واذا كان عقله الواعي قد نسيها فان عقله الباطن لم ينسها. وليس ذلك عجباً، فان السيد عفلق عاطفي شديد الحساسيّة ، وكان ألمه شديداً من هذه الرسالة التي قد يكون كتبها وهو في حال بين الصحو والاغماء . وهكذا فان العالم الخارجي قد غفر الرسالة ولم يعرها بعد ذلك اي اهتمام، بينما آثارها تعتمل في نفس السيد عفلق فتسبب له التعقيد النفسي .

من العسير على الانسان في تكوينه الراهن ان ينظر الى الامور نظرة عقلية مجرّدة منفصلة عن اثر العوامل الشخصيّة التي تتحكم فيها الميول والاهواء .

والبشر المنتسبون الى حزب البعث العربي هم بشر من البشر . فهم لذلك يخضعون لما يخضع اليه كل البشر . فاجتهاداتهم التي تظهر وكأنما هي عقلية ليست الاّ وليدة الاهواء والنزوات الخاصة . ونحن نرى فئة من الحزب مثلاً تحتضن شعار الحريّة بينما تحتضن فئة أخرى شعار الوحدة بينما تحتضن فئة غيرها شعار الاشتراكيّة . فما هو تعليل ذلك ؟ تعليل ذلك ان مصلحة الفئة او الفرد التي تفضل شعاراً معيّناً على سائر الشعارات هي التي تحتضن ذلك الشعار دون سواه . فالشعار يتفق مع مصلحتها ويحقّق لها رغباتها .

والقيادة الحكيمة للحزب هي التي تستطيع التوفيق الى أبعد حدّ

ممكن بين مصالح الفئات التي ترتبط بالحزب وبين شعارات الحزب واهدافه الكبرى .

ان قيادة الحزب كانت بحاجة الى نوعية من الناس تتعالى على كل هذه الاعتبارات الناجمة عن الاختلاف القطري والنفسي لتستطيع ان تجعل الحزب أمل العرب .

وانا اقصد من كل هذا أن أشير الى ان بذور الشك في قدرتنا على تحقيق منهاج الحزب على الوجه الأكمل قد بدأت تزرع في نفوسنا . فالمخطط العربي الذي سجلناه في دستور الحزب قد أصبح يتضخّم في عيوننا بعدما مرّت بنا التجارب وبعدما تبيّن لنا بعض الشيء رخاوة العناصر التي يتألف منها بنيان الحزب . ونحن طبعاً من تلك العناصر ، فلسنا نريد ان نجعل لأنفسنا ميزة او شيئاً من التفوّق ، فما نحن الا جزء من الشعب نحمل كل خصائصه وميزاته الحسنة والسيئة .

والاهداف القومية كانت في نظرنا سهلة التحقيق ولكنا مع الزمن اصبحنا نراها جبالاً شوامخ . وكنت قلت في كتاب لي عن هذه الصورة اننا كنا ننظر الى نهر من بعيد وكانت حافتا النهر متقاربتين نظراً لبعدنا عن النهر . ولكنا كلما اقتربنا من النهر بعدت الضفتان احداهما عن الأخرى . وحينما وقفنا على الحافة استبان لنا أن النهر بحر خضمّ . وهكذا فنحن كلما سرنا خطوة في طريق البنـــاء القومي واختلطنا بالجماهير واحتككنا بالعالم الخارجي ازددنا يقيناً بصعوبة الدرب التي ركبناها . وكلّما استبان للناظرين مثل هذه الصعوبات دخل الخلل الى كيان الحزب. فالذين ينسجمون مع انفسهم يتخلون عن الحزب، والذين يستبيحون الانحراف يظلون في الحزب وينحرفون به الى حيث يلتقي مع رغباتهم . وبهذا فان الذي يتلوّى ويتعرّج هو الحزب وليسوا هم . ولا نستغرب اذاً ان يتكاثر الانسحاب والجمود او الانحرافات بعدما اتضح ان الطريق طويلة وانها تحتاج الى من يميت نفسه لعله يحيي الأمل في الآخرين .

لقد اصيبت القيادة بصدمة بعدما تبيّن لها ان الخلاف قد وصل الى حد شموله القواعد الاساسية والشعارات القطعية . واصبح البحث جائزاً

في موضوع الاتحاد او الانفصال وايهما افضل للأمّة العربيّة .

والحوادث لا تحطّم الكيان مسرعة وفرادى ، ولكنها عندما تتراكم وتكثر عدداً وقوة فانـّها تصبح مهددة للكيان الذي تعتريه . واذا كان حزب البعث لم يتأثر بحادثة واحدة فان الحوادث تعددت وتراكمت فكونت وجوداً معاكساً ما يزال يتصارع هو والوجود الاصيل لحزب البعث الى ان اقترنت النتيجة بما سوف نبينه في فصول آتية .

مساعي الدمج

في هذه الفترة اشتدت مساعي الدمج بين حزب البعث العربي والحزب العربي الاشتراكي . اذ نشط الدعاة الى تقريب وجهات النظر وشرح المنافع التي يحصل عليها الطرفان . وكانت المساعي من قبل تصطدم بعقبات يومية تبطل المساعي اليومية المبذولة في هذا السبيل .

وكانت هذه المساعي تحبط في مجلس النواب . فالكتلة البعثية المؤلفة من ثلاثة نواب كانت تختلف في كل الامور تقريباً مع كتلة ثلاثية يرئسها الاستاذ أكرم الحوراني . كما تصطدم الكتلة البعثية بتكتل عشائري من اقطابه ايضاً السيد اكرم الحوراني . وهذا التكتل قد جمعه الجيش يومئذ ليضعه مقابل الأكثرية العددية من حزب الشعب . لكن حزب الشعب كان يخلي الجبهة ليكون فيها البعث وجهاً لوجه امام هذا التكتل الذي سمي يومئذ « الكتلة الجمهورية » وامام تسلط الجيش .

وكل خطوة يخطوها دعاة الدمج كانت تعود الى الوراء بسبب الاحتكاك المستمر في مجلس النواب حتى كاد الدعاة يتملكهم اليأس ويتخلون عن محاولاتهم .

الاّ ان الامور كانت تتطور لمصلحة الدمج مما سيأتي بيانه مفصلاً في فصل آت خاص . وكانت الخلافات تحتدم حول مواقف يقفهـا التكتل العشائري . وحول المواقف التي يقفها التكتل الثلاثي المذكور .

والتكتل العشائري الذي قلنا عنه انه كان يحمل اسم الكتلة الجمهوريّة كان يصوت الى جانب كل القضايا التي يوحى بها اليه . وكان اللسان الناطق لها هو السيد الحوراني . اما التكتل الثلاثي فكان كله لساناً ناطقاً ، فالعناصر الثلاثة كانت متفقة وكانت تجيد الخطابة والكلام . والتكتل متحالف حلفاً غير مسطور مع الكتلة الجمهورية . فالقاسم المشترك بينهما هو السيد أكرم الحوراني . ولا يستطيع نواب البعث ان يسكتوا على امور مبدئيّة ، منها اباحة تدخل الجيش في السياسة واعطاء العسكريين الحق في تصرفات كثيرة لا يعرف الشعب ولا مجلس النواب بواعثها ولا مغزاها . وحتى الأمور التي هي من اختصاص المجلس كانت تعالج بشكل سرّي حتى عن المجلس . واذا اريد اجراء مناقلة في قانون الموازنة واعطاء وزارة الدفاع مبالغ من المال ، فان الحكومة لا تعطي المجلس اية معلومات عن سبب هذا الطلب بحجة ان ذلك من الاسرار العسكريّة وان العدو سيستفيد من اعلانها . وينبري التكتل الثلاثي والكتلة الجمهوريّة للدفاع عن هذا الاسلوب مما يضيق له صدر نواب البعث ، فينطلقون مهاجمين الاستكانة والمزايدات والتمهيد للحكم الدكتاتوري واقرار النية التي تتجه الى تعطيل الحياة الدستورية ، الى ما هنالك من معان تحملها مواقف الكتلة الجمهوريّة والكتلة الثلاثية . وهنا يحدث الصدام .

جلسة دمج حاسمة

في دار الاستاذ صلاح الدين البيطار عقد اجتماع ضمّ اربعة اشخاص ، هم السادة صلاح الدين البيطار وميشيل عفلق وأكرم الحوراني وجلال السيد ، لبحث موضوع دمج الحزبين وما يتعلق بذلك من خطط .

استهلّ الحديث السيد أكرم الحوراني فقال : اننا متفقون في كل شيء وليس بيننا خلاف ومن المصلحة الوطنية ان نكون حزباً واحداً بدلاً من حزبين ولا داعي للتمهل في عملية الدمج التي تخدم القضية من كل

جوانبها . وابدى استعداده ليكون ايجابياً وظهرت عليه الحماسة .

فقلت : « بل اننا مختلفون جداً » . ونفي الاختلاف بالكلام لا يجدي ما دام الخلاف مستبطناً النفس يعمل في السرّ والعلانية . فسأل السيّد الحوراني عن مادة من مواد هذا الخلاف فقلت له : « انني لن اعود الى الماضي البعيد ولكني سأستشهد باقرب حدث وقع . فالانقلاب الذي قام به العقيد الشيشكلي على سامي الحناوي قد كان لك انت ضلع فيه . والانقلاب يستهدف منع الاتحاد بين سورية والعراق . ونحن من الموافقين على الاتحاد . فالخلاف اذاً أمر واقع . فقال السيد الحوراني : اما ان يكون لي ضلع في الانقلاب فهو مجرد اتهام . وانتم تعلمون ان العسكريين لا يقبلون التوجيه ولا يطلعون احداً على اسرارهم . وانا اقول لكم صدقاً بانه ليس لي علم بشيء من هذا . فقلت له هذا ليس هو المهم انما المهم الأمر الثاني وهو الاتحاد الذي ساعدت انت على احباطه ، فقال : لقد عرض علينا في مجلس الوزراء السابق موضوع عرش في سورية للامير عبد الاله الوصي على عرش العراق . على ان يبقى القطران منفصلين بشكل دولتين . ولم يعرض علينا موضوع اتحاد بين القطرين . ولو عرض الاتحاد لكنت موافقاً عليه قبل كل الموافقين حتى لو كان ذلك الاتحاد تحت النظام الملكي . وانا مستعد ان انشر هذه الاقوال في بيان بتوقيعي كي تطمئنوا الى صحة ما اقول . فهل قنعتم بانه ليس بيننا خلاف حتى في هذه القضية . قلت انا اكتفيت واني احيل التفصيلات وبقية الموضوع على الاستاذين عفلق والبيطار ليتوليا اتمامها . وجرى حديث ودّي ايجابي حول دمج الحزبين والبدء بالتمهيد لذلك في اوساط الحزبين حتى لا يؤخذ الاعضاء في قضية تتعلق بمستقبل حزبهم الذي يحبونه ويحرصون على وجوده وعلى اسمه ومن يضم من الاعضاء .

كانت هذه اول جلسة اقترب فيها قادة الحزبين من حدود الدمج ودرسوا الامكانية درساً جدياً . وقد توالت بعد ذلك الاجتماعات الثنائية او الثلاثية بين الاعضاء من كلا الحزبين على مختلف المستويات . وكانت اللقاءات مستمرة لكن التقدم لم يكن مستمراً او مطرداً وانما كانت

تقوم العقبات كلما اوغلوا في بحث الجزئيات والتفاصيل . وكما كان في الحزبين عناصر تميل الى الدمج فان هناك عناصر تميل عنه وتتمنّى ان لا يكون ، وكان لكل من الفئتين حججه ومستنداته . وتوقفت الاتصالات بعض الشيء عندما فوجئت البلاد بانقلاب كامل قام به العقيد اديب الشيشكلي عطل به الحياة النيابيّة واوقف الدستور واعتقل اعضاء الحكومة .

انقلاب الشيشكلي

بعد مضي ما يقرب من عامين على انقلاب الشيشكلي الجزئي الذي اكتفى به بانه اطاح برئيس الاركان سامي الحناوي ،قام الشيشكلي بانقلاب تام . فقد صدر مرسوم بتأليف وزارة يرئسها السيد معروف الدواليبي ، وكان ذلك يتضمّن شيئاً من التحدّي والاستفزاز للمسيطرين على الجيش لأن لهم يومئذ رأياً آخر في الموقف . وفي الليلة ذاتها تم اعتقال الوزراء ولكن لم يشملْ الاعتقال رئيس الجمهورية السيد هاشم الاتاسي .

وانقلاب الشيشكلي هذا لم يحظ بتأييد حزب البعث كما حظي انقلاب حسني الزعيم ، بل ان الحزب كان حذراً ومتحفظاً وكانت الشكوك تساوره في سلامة هذه الخطوة . ولكن الحزب مع ذلك لم يعلن معارضته للوهلة الاولى . ذاك ان العملية لم تكن موجهة ضد البعث وانما ضد حزب الشعب وحلفائه في مجلس النواب . واجتمع مجلس النواب بأكثريته في دار الرئيس الاتاسي واستعرض الموقف من كل جوانبه وكان الاستنكار شديداً لما قام به الجيش .

وبدا التخوّف على الشيشكلي من عمل دستوري يقوم به المجلس فبادر الى اصدار امر عسكري بحل المجلس وايقاف الحياة الدستورية . وقد عقد اجتماع رباعي مع الشيشكلي في داره ضم السادة ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وأكرم الحوراني وجلال السيّد . وكان الاجتماع بناء على طلب هؤلاء السادة وليس بناء على دعوة الشيشكلي .

وكان القصد من هذا الاجتماع الاطلاع على المدى الذي سيصل اليه الشيشكلي في خطوته هذه . وقد تم الاجتماع قبل ان يعلن حل مجلس النواب، اذ كان بين اعتقال الحكومة وبين حل المجلس عدة ايام . وبعد المداولات والحوار كان الشيشكلي يتظاهر بانه حليف للحزبين (وكانا يومذاك حزبين)، وهو في سلوكه كان يدافع عن الحرية الحقيقيّة ويقاوم الاستغلال والاقطاع السياسي وما هو في هذا الميدان من مزاعم .

وكان الموقف متفاوتاً بين هؤلاء الاربعة ، اذ كان البعثيون صريحين في اعلانهم عدم الرضا والتخوف من النتائج . بينما كان السيّد الحوراني اقرب الى الموافقة على العملية . لكن مع كل هذا لم تصدر عنه موافقة صريحة او تأييد رسمي . ودام الاجتماع أكثر من ساعتين لم يتوصل المجتمعون خلالهما الى التلاقي ولا حول نقطة واحدة . وانتهى الاجتماع بان قال له البعثيون : انك وحدك المسؤول فاكمل طريقك . بينما طلب هو الاجتماع مرة ثانية في وقت سيحدّده . لكن كان ظاهراً ان طلب الاجتماع هو اعلان عن انتهاء الاجتماع الاول ليس غير . ولم يتم اي اجتماع بعد ذلك بين الطرفين بشكل علني واضح .

كان الجو يوحي بالخطر وكأنما كانت هذه المقابلة تحريضاً وحفزاً لتوحيد العمل بين حزب البعث وحزب العربي الاشتراكي . اذ لم يصدر عن الشيشكلي ما يبعث الطمأنينة او الأمل في انه يريد التعاون معهما ولا مع واحد منهما على الاقل وهو العربي الاشتراكي الذي تربط بينه وبين رئيس الحزب صداقات ومراحل عمل مشتركة وتضامن خلال السنتين اللتين مرتا في حياة مجلس النواب . مما اشرنا اليه في البحث السابق .

وكان قد سرى الظن بان الانقلاب اميركي . وانه تم للقضاء على كل محاولة اتحادية بين سورية والعراق . وكان شباب البعث قد استعادوا ما حلّ بهم من قبل يوم قام حسني الزعيم بانقلابه . وقد توقّعوا ان يقع عليهم في الحكم الدكتاتوري الجديد مثل ما وقع لهم في العهد الدكتاتوري الماضي . فكانت ردة الفعل عندهم شديدة وكانوا متحفزين للعمل ضد العهد ما استطاعوا الى العمل سبيلا .

وسار الشيشكلي في طريقه المرسومة فاستبعد كل الاحزاب القائمة بما في ذلك حزب البعث وحزب العربي الاشتراكي الذي كان يظنّ انه حليف طبيعي له . ولكنه نبش عن حزب قديم ــ محنّط ــ اسمه « الحزب العربي القومي » وتعاون معه وألّف حكومة تضمّ عدداً كبيراً من ذلك الحزب وعدداً من المستقلين والاختصاصيين .

ثم عمد الى سنّ دستور جديد ليس فيه من الجدة الجدية الاّ الاسم والا بعض ما كانت تلوكه الالسن من تعابير شائعة . وأجرى انتخابات موجّهة فاز فيها انصاره . وكانت هذه الانتخابات عرضة للمقاطعة من الكثرة الكاثرة من زعماء البلاد وأهل الحل والعقد فيها . والنهاية معروفة اذ اصبحت تقليديّة تتم بالعادة ولا تحتاج الى اعمال فكر . فقد أصبح الشيشكلي رئيساً للجمهورية وسط غليان شعبي وعداء من جانب الفئات السياسيّة ذات الوزن الثقيل والمكانة المحترمة . وكلما لقي الشيشكلي مزيداً من العداء الشعبي كان يعمد الى مزيد من الشدّة والضغط على مختلف فئات المعارضة .

واسس الشيشكلي « حركة التحرير » وجعل منها الحزب الوحيد الصالح لممارسة العمل السياسي . وحاول ان يضم اليها كل من يستطيع ضمّه من الناس بما في ذلك موظفو الدولة والعمال والفلاحون . لكن التسارع الى مثل هذه الحركة كان من الفئات التي تنتفع من الانتساب انتفاعاً سريعاً، مثل طبقة الطامعين بالوظائف وطبقة من الموظفين ومن التجار الذين يأملون من وراء انتسابهم الحصول على مصالح ماديّة من رخص تصدير واستيراد وما يشبه ذلك .

وكان ذلك العهد عهد رخاء اقتصادي اذا قيس بالعهدين السابق له واللاحق . لذلك تباطأ التذمر الشديد بعض الشيء . والعامل الاقتصادي له اثره بلا شك في اذكاء المشاعر وفي الانتقاض . ومن حركة التحرر بدأت فكرة « الحزب الواحد » تروج في هذه المنطقة . فالشعب في سورية غير مستعد ان يتقبل نظرية الحزب الواحد لأنه يراها الدكتاتورية بعينها . ومن العجب ان يجنح « حزب البعث الجديد » الى تطبيق نظرية

الحزب الواحد بعدما رأى فشلها الذريع في « حركة التحرير » . وكان لا بدّ لهذا كلّه من ردة فعل في العراق . لاسيما بعدما تهجّم عدد من النواب في المجلس على الوضع في العراق وعلى الحكام العراقيين وصرفوا المزيد من التهديد والوعيد بلغة غير مسؤولة واندفاع عاطفي . ويبدو ان حكومة العراق قد أخذت تعد العدّة لعمل شيء ضد العهد في سورية . وقد نجح العراق في هذا . فقد علمنا بعد ذلك ان للعراق اليد الطولى — دولياً — في اسقاط عهد الشيشكلي .

دمج الحزبين

الدمج بين حزبي البعث العربي والعربي الاشتراكي هو من أهم الاحداث التي مرّت بحزب البعث العربي اذا لم نقل انه أهم الاحداث . ولا يضاهيه حدث آخر الاّ وثبته الى السلطة واستلامه الحكم في كل من سورية والعراق . على ان هناك من يجعل صلة بين هذين الحادثين . فالدمج هو الخطوة الأولى التي سبقت الوثوب على السلطة بانقلاب عسكري . وحزب البعث العربي قبل الدمج لم يكن يستبيح الانقلابات العسكريّة . واذا كان هناك اجنحة داخل الحزب ترضاها فان الحزب لم يكن متحمساً لها بهيكله العام ولم يؤيدها رسمياً ولا علانية .

اما بعد الدمج فان المناخ الحزبي حول هذه الناحية قد تبدّل . فاوساط العربي الاشتراكي الذي اصبح شريكاً في (حزب البعث العربي الاشتراكي) تؤيد الانقلابات العسكرية وتعمل لها . وبالتفاعل والعدوى بين طرفي الحزب الجديد وبضغط الحوادث فان الحزب بوجه عام قد أصبح غير مستنكر للانقلابات العسكريّة اذا لم نقل انه يسعى اليها .

ولما كان الدمج حدثاً مهماً في حياة الحزب فاننا سوف ندرسه بشيء من الاستفاضة ليمكن الاحاطة به من كل جوانبه واضاءة ما قد يكون مظلماً من ثناياه . فالدمج انقلاب أصاب حزب البعث، فقلقل ركائزه وهزّ كيانه وخرج به من مناخ فكري سياسي الى مناخ فكري سياسي

آخر جديد . وليس من حرج على الذين قالوا ان حزب البعث العربي هو غير حزب البعث العربي الاشتراكي . فالنهج دخله تبديل والمفاهيم اصابها بعض التزحلق، وحتى ما يسمّى بـ «الايديولوجية» العامة للحزب صارت عرضة للبحث واعادة النظر .

قلنا ان فكرة دمج الحزبين قديمة . وقد برزت الى الوجود قبل اتمام الدمج بسنوات عديدة . وذكرنا ان الشباب المتخرجين من الجامعات قد رافقهم عند تخرجهم شيء من الطموح والمحاولة لابراز الكيان والوجود، ولم يكن حزب البعث في سلوكه المتزمت – كما يرى هؤلاء الشباب – محققاً لهم رغباتهم . ومن الافضل عندهم الخروج من هذه القوقعة والانطلاق الى الفضاء لتسجيل الكفاءات وابراز المقدرة والقابليات وفي البلد حزب يتفق مع حزب البعث في الشعارات . وللحزب رئيس بارز ونشيط في الحقل السياسي هو الاستاذ أكرم الحوراني . فمن الممكن ان يكون هذا الحزب مشتملاً على حسنات حزب البعث من غير تزمت ولا تحرج ، فهو يبيح المساهمة في كل الميادين التي لا تتعارض مع مصلحة الوطن، ومن الخير في نظر هؤلاء ان يكون بين الحزبين وحدة وان يتم الدمج بينهما . ففي ذلك حصول على الفضيلتين .

وطفق بعض الشباب يعمل في هذا السبيل . الاّ ان هذه المحاولة لم تجد استحساناً في اول الأمر لدى اوساط البعث العربي ولا سيما في اوساط القيادة . وكان ابرز الداعين العاملين في هذا الحقل شابان احدهما اليوم سفير وكان وزيراً سابقاً، وثانيهما طبيب وكان وزيراً سابقاً ايضاً . وقد أصدر الحزب في مجلسه المنعقد في دمشق قراراً بفصل الاول منهما عن الحزب . كما اصدر فرع دير الزور في وقت لاحق قراراً بفصل الآخر . وكان ان انضم الاثنان كلاهما الى حزب العربي الاشتراكي بعد فصلهما بوقت قصير . واذا كانت اسباب الفصل الظاهرية ليست هي المساعي المبذولة لدمج الحزبين فان المساعي كانت العقدة التي بنى الحزب عليها نظريته في الفصل .

وفترت المساعي بعد ذلك الى ان تم الاجتماع الرباعي الذي ذكرناه آنفاً وقلنا انه اجتماع حاسم للدمج . اذ كان هذا الاجتماع بمثابة اباحة البحث في الدمج والتهيئة له .

وتلاحقت الاحداث . وسيطرت على البلد دكتاتورية الشيشكلي فضاقت الصدور وتمنى المواطنون الخلاص بأي شكل من الاشكال . والمصيبة جامعة كما يقول المثل الدارج، وكان جو الارهاب مساعداً على ازدياد التقارب بين الحزبين والتسارع في هذا التقارب ، لا سيما والعربي الاشتراكي قد نفض يده نهائياً من الشيشكلي وقامت خصومة بينهما لم يعد في الامكان محو آثارها .

وتدخل بعض الضباط من اصدقاء الحزبين وزينوا لهما الاندماج ليكون الحزب ضخماً وصالحاً لتأييد اية حركة تقوم في الجيش ضد الشيشكلي . وكان أن قال نفر من الضباط انهم مستعدون للاطاحة بالشيشكلي على شرط ان يتم توحيد الحزبين . وما لم يتم هذا التوحيد فان فقدان المستند السياسي الشعبي لا يكون مساعداً على عمل شيء . وزاد الاقتناع لدى الحزبين بوجوب الدمج .

وكان حزب العربي الاشتراكي اميل الى ذلك من حزب البعث العربي . واذا كان في حزب البعث جناح يميل الى الدمج بلا تحفظ فان هناك اجنحة متحفظة في الدمج واجنحة تعارض الدمج معارضة كاملة . وزادت الوساطات والاتصالات حتى ظن قادة الحزبين ان العملية لم تعد تحتاج الا الى تثبيت وتسجيل والا فهي نفسياً وفكرياً قد تمت .

الحزب العربي الاشتراكي

نحن نبحث في دمج حزبين أحدهما العربي الاشتراكي وثانيهما البعث العربي . اما البعث فقد عرف القارىء عنه الشيء الكثير خلال هذا الكتاب الذي تخصص لبحثه . ولكن القارىء لم يعرف شيئاً بعد عن الطرف الآخر في هذه الشركة التي حصلت بعملية الدمج . لذلك

فنحن نعطي لمحة قصيرة عن الحزب الاشتراكي اتماماً للفائدة .

كان في مدينة حماه تكتل يطلق عليه « حزب الشباب » ، وهو مؤلف من عدد من الشبان المثقفين وعلى رأسهم الاستاذ أكرم الحوراني . وهذا التكتل قد كان خارجاً عن سلطة الحزب الكبير التقليدي الذي كان يسمى « الكتلة الوطنية » ، واصبح بعد ذلك يسمى الحزب الوطني . فلحزب الشباب آراؤه الخاصة ومفاهيمه الجديدة . وكان له الى جانب ذلك متطلباته التي لا تلقى استجابة من جانب الثقل السياسي انذاك وهو الحزب الوطني .

واثبت حزب الشباب وجوده في حماه واشعر كل الاطراف بان له قوة شعبية وانه لا بد من ادخاله في حساب القوى السياسية التي تضطرب وتتحرك هناك . وفي عام ١٩٤٣ جرت الانتخابات النيابية فكان لحزب الشباب سهم فيها اذ مثل هذا الحزب في قائمة ائتلافية الاستاذ أكرم الحوراني واصبح نائباً من جملة نواب حماه . وبنيابة السيد الحوراني فتح الباب امام الحزب لينمو ويصعد ما استطاع الى الصعود سبيلا . وقد قضت التيارات الفكرية والسياسية باستبدال الاسم وقلبه الى « الحزب العربي الاشتراكي » . وهو بهذا الاسم يعلن استقلاله الكامل عن القوى السياسية السائدة يومذاك . فهو حزب عربي ولم يكن العمل السياسي مرتبطاً بالعروبة رسمياً وان كان من الناحية الواقعية عربياً . كذلك لم يكن العمل السياسي مرتبطاً بالاشتراكية . وبوجود هذا الحزب الذي له ممثل في مجلس النواب ولد مولود جديد في الحقل السياسي السوري .

وجمهرة المنتسبين الى هذا الحزب هم من الشبان . شأنهم في ذلك من حيث الاعمار شأن المنتسبين الى حزب البعث العربي .

وكان الحزب العربي الاشتراكي يحمل طابعاً محلياً حموياً في الدرجة الاولى، وسرعان ما انضم اليه في حماه وريفها الفئات التي كانت تناوىء بيوتات واسراً كان يطلق عليها (الذوات) . وتعني الكلمة في المصطلح المحلي الارستقراطيين او الاقطاعيين او كبار الوجهاء ومالكي الارض

ومالكي العقارات المبنية ايضاً . وقد تكون هذه المناوأة هي التي اوحت بقيام الحزب العربي الاشتراكي ، تعبيراً عن رفض هذه الفئات لنفوذ تلك الأسر ومحاولة لفرض المساواة وعدم التمايز بين المواطنين في كل مجالات الحياة .

ولم يلبث ان انضم الى الحزب عدد من الطلاب من كل فروع الجامعات ومن طلاب الكلية الحربية . ولم يكن الحزب العربي الاشتراكي يمنع اعضاءه من الانتساب الى الكلية او يرفض قبول العسكريين في صفوفه كما كان يفعل حزب البعث . وانضم الى الحزب عدد من الفلاحين اذ استهواهم ما سمعوا من وعود لانصافهم وعمل لخدمتهم . وهكذا وجد هذا الحزب الذي نبحث قضية اندماجه مع حزب البعث العربي .

رأي الحزبين احدهما في الآخر

لم يكن من السهل اتمام عملية « الدمج » او التوحيد بين الحزبين . اذ لم يكن رأي احدهما في الآخر حسناً . بل انهم كانوا يتبادلون الاتهام وقوارص الكلم . ومن المفيد تلخيص رأي كل من الحزبين في الآخر حتى لا يفوت القارىء شيء من التركيب السياسي القائم في هذه المرحلة التي نكتب عنها .

يرى اعضاء العربي الاشتراكي – والرأي للاكثرية لا للجميع – ان حزب البعث العربي ليس حزباً سياسياً وانما هو أقرب الى الجمعية الثقافية ، ويمكن ان يسمى « لجنة طلاب » ، لولا اعضاء القيادة . وهو حزب نظري خيالي عاطفي .

اما احد اعضاء القيادة فيبدو عليه التردد والحيرة . وهو يطبق ما قيل على لسان السيد المسيح : من ضربك على خدك الايمن فادر له الايسر . وهو منغمس في الخيال عاطفي المزاج ولا يصلح لقيادة سياسية في هذا المعترك القائم في سورية وفي بلاد العرب . وجاءت رسالة هذا العضو الى حسني الزعيم لتكون مستنداً لما يريد ان يقوله الخصوم .

اما العضو الثاني فهو دمشقي عريق . ومعنى ذلك عندهم انه يستجيب عفوياً الى مصالح الدمشقيين . والدمشقيون عندهم هم الرأسماليون ورجال الطبقة الوسطى ومن يسمى « البورجوازيين » . وهو رغم تفكيره ذي الطابع العلمي لا يخلو من اوهام متراكمة لديه تسيره في دروب التيه المسدودة . وهو يتصف مثل زميله ذاك بالبطء والركود وانعدام المبادرة السياسية، وفوق ذاك وهذا ، فانه غير جذّاب، وانما هو منفر جاف ، وانّه بالتالي لا يصلح للعمل السياسي وهو غير مؤهل لـــه .

وأمّا الثالث في القيادة فانه ارستقراطي او اقطاعي يلبس ثياب الاشتراكية ، وهو بعيد عنها بعد الارض عن السماء . وهو صديق لزعماء الاحزاب التي تناوىء حزبه وعزيز عليهم وأثير عندهم الى درجة عظيمة . وهو فوق ذلك غامض مشبوه . انه يعمل للاتحاد السوري العراقي . فهو بذلك قد يكون صديقاً لنوري السعيد مرتبطاً معه . وهذا يصل الى حدّ انّه قد يكون صديقاً للانكليز ايضاً . انه يهاجم التدخّل العسكري في شؤون السياسة هجوماً عنيفاً والسلطات العسكرية لا تتخذ بحقّه اي اجراء . فما تعليل ذلك ؟ ان ذلك عندهم مدعاة للشبهة وهو غموض محيّر .

ومن خلال هذه الاحكام يمكن للقارىء ان يعرف منزلة حزب البعث لدى الحزب العربي الاشتراكي . هذا قولهم في البعث فما هو قول البعث فيهم ؟

جمهرة البعثيين تقول : ان الحزب الاشتراكي حزب محلي بلدي اقليمي ، وهو حزب « شعوبي » . وانه لم يقم استجابة لرغبة قومية عالية وانما قام استجابة لدوافع اجتماعية في مدينة حماه . وان الصراع بين الاسر النافذة وسائر الاسر هو الذي ادّى الى قيام الحزب . وهو حزب لا يرتبط بالمثل العليا او يقيد نفسه بما توحي وانما يرتبط بالتيارات البلديّة ويستخدم كل سبيل للانتصار على القوى التقليديّة المناوئة له لا سيما في مدينة حماه . وبالتالي فهو حزب ولدته الاحقاد المحليـــة

الضيّقة لا الآمال القومية العراض .

اما القول في قائد الحزب ، وهو الاسم اللامع الوحيد في هذه المنظمة، فهو انه انتهازي ، بعيد عن الرحمة والعطف على المواطنين ، عنيف في معاملته للخصوم ، وهو يفقد اي شعور بالمواطنة معهم في حال انتصاره عليهم . وجمهرة الحزبيين من البعث بمن فيهم بعض القياديين ينسبون الى السيد الحوراني سعيه والحاحه على حسني الزعيم ليتخذ التدابير الزجرية بحق حزب البعث، تلك التدابير التي اشرنا اليها سابقاً.

ونحن لا نكتفي بسرد هذه الآراء وانما يجب علينا ان ندلي برأينا الخاص فيها . وسنتولى ابداء الرأي حول العربي الاشتراكي لا حول حزب البعث، فهو حزبنا ولن ندافع عن انفسنا ضد اقوال الخصوم بل نترك الى الآخرين مهمة الدفاع عنا اذا رأوا اننا نستحق الدفاع .

ان الاتهام بالشعوبية الذي يصبه البعثيون على الحزب العربي الاشتراكي قد نجم عن فتور في النزعة القومية وعن اهمال المغرب العربي في برنامج الحزب وعن ان عميد الحزب كان منتسباً الى الحزب القومي السوري . وليس من الانصاف ان يؤخذ هذا دليلاً على شعوبية الحزب او شعوبية عميد الحزب . ويمكن ان تعد من حسنات عميد الحزب انه كان قومياً سورياً ثم اصبح عربياً اذ معنى ذلك انه رأى طريق الحق فسلكه . والشعوبية أمر خطير لا يجوز اسنادها الى مواطن ما لم تقم الدلائل غير القابلة للنقض على منهجه الشعوبي المعادي لامة العرب .

اما انّ الحزب قد انطلق من اسباب اجتماعية محلية فهو قد يكون صحيحاً . وهذا أمر لا يعيبه ايضاً ما دام قد وسع مجاله وخرج عن صعيد حماه وعمل في الحقل السوري ثم في الحقل القومي الفسيح . والحزب قد وصل الى المدى العربي كله في دستوره بما في ذلك المغرب العربي . اما الفتور في العاطفة القومية فهو مزاج، ولا يعاب المرء على مزاجه الذي لا يستطيع التحكم فيه . وهو ليس دليلاً على ضعف الروح القومية بشكل قاطع .

أما الانتهازية المنسوبة الى السيد الحوراني فلم يقم عليها دليل لأنه في سلوكه السياسي قد كان بعيداً عن ملاحقة المناصب الحكومية الا في حالات شبه اضطرارية . واذا كان هناك انتهاز فرص سياسية يحكم فيها ضربته فهذه من خصائص السياسيين .

وكل ما آخذه انا شخصياً عليه هو انه قاس على المواطنين ، وانه لا يرحم خصومه اذا انتصر عليهم . وهو يسعى الى النصر دوماً ويرتاح له . فهو بذلك لا يسلك مسلكاً ابوياً مع المواطنين . والمسلك الابوي الرحماني يقضي عليه ان يشارك حتى المغلوب من خصومه آلامه لانكساره . ومشاركته للمغلوب في آلامه يخفف من اندفاعه في فرحة الانتصار ونشوتها . ومن الحق علي لشرف البحث العلمي ان ادون هذا في كتابي . أما سائر الاوصاف في عميد الحزب وفي الحزب فانها لا تعنينا لأنها تدخل في نطاق الشخصيات .

ومن الملاحظ ان الطعن الصادر من الحزب الاشتراكي ، ولا ادري اذا كان من عميده ايضاً، هو طعن ينصب علي شخصياً في الدرجة الاولى . وتعليل ذلك انهم عفوياً يخشونني أكثر مما يخشون سائر زملائي وانهم يريدون خفض مقامي حتى لا أكون لهم بالمرصاد . مع ان الحقيقة هي انني في واد وهم في واد آخر . فانا لو عرفوني على حقيقتي ما خشوني . فوجداني وضميري وخلقي لا تسمح لي ان اقف دون صعود الصاعدين ، وانا لا ابخس الناس اشياءهم . وان الحقيقة عندي هي غاية الغايات ولن احيد عن تحقيقها وتسجيلها ولو كان في ذلك ضرر سريع علي ، فهذا الضرر العاجل يشفع له نفع آجل من تقدير الأجيال وسمعة الدهر .

وأحسبني قد اكتفيت بتصوير المناخ الذي كان يعيشه الحزبان والعلاقة القائمة بينهما . والموضوعية تتضمن الصدق والحياد والانصاف . وشرف البحث والحرص على الحقيقة والابتعاد عن غش التاريخ هي اسمى من نزوة نفسية يطلقها المرء شفاء لغلة او تنفيساً لحقد . ونحن في هذا البحث نقف على مفترق الطريق فإما الموضوعية وإما التدليس .

وقد تكون الموضوعية مرة كما قد يكون التدليس عذباً . ولكن هذه العذوبة وتلك المرارة هما أمران سريعا الزوال ولا يمكنهما الاستمرار ولو بعض الوقت ، فلا يخدعن المرء نفسه ويتبع اللذة العابرة على حساب الحقيقة وخلل الوجدان . وانا اقول هذا لأن لي ارائي الخاصة في موضوع الدمج بين الحزبين، ولكني انطلق في افكاري واحكامي من قواعد قيدت بها نفسي ، فانا اظنّ بالناس كما اظنّ بنفسي ، وانا مؤمن بابناء امتي وانا افسر كل ما يصدر عنهم افراداً وجماعات انه عمل صالح اذا لم يثبت العكس .

وبعد، فمن يقرأ هذا لا يصدق ان يتم الدمج بين الحزبين، ولكن الدمج قد تمّ . هنا ننتقل الى تفصيلات أخرى نصف بها الاحداث وكيف جرت وكيف تمّ الاتفاق والشروط التي قام عليها الدمج والدقة في تنفيذ تلك الشروط . ثم ننتقل بعد ذلك الى وقائع أخرى كانت ذات اثر جسيم في مصير الحزب وفي خلخلة كيانه ووجوده العام .

شروط الدمج

عقدت اجتماعات ثلاثية متوالية في قيادة حزب البعث العربي لاقرار الدمج بعدما تكاملت الضغوط واشتدت حماسة المتحمسين له وكثرت الاتصالات بين اعضاء الحزبين . وكان الموقف في قيادة الحزب يشير الى انني كنت في جهة وكان السيدان عفلق والبيطار في جهة . وكان الاستاذان عفلق والبيطار يقومان باتصالات مع اعضاء الحزب الراغبين في الدمج ويجريان معهم المذاكرة حول الشروط وهما يبحثان الأمر معي .

ولقد كنت انا متشدّداً ضد الدمج . ولم يكن زميلاي اقل مني تشدداً، لكنهما كانا يواجهان الضغط مباشرة من الاعضاء ومن الجهات الأخرى خارج الحزب فيلينان بعض الشيء بينما انا لا اواجه ما يواجهان . وبعد مداولات مستمرة بيني وبين الزميلين عفلق والبيطار

عهدا اليّ في ان اضع مشروع الاتفاق والشروط التي اراها لتحقيق الدمج.

ويبدو ان عفويتي قد مالت بي الى وضع شروط ما كنت أظنّ انها ستقبل من الجانب الآخر . فانا لم أكن ميالا الى هذا الطراز من تضخم الحزب، اي طراز التجميع والضمّ، وانما كنت أميل الى طراز النمو والتكاثر الذاتي . ففي هذه الحال لم ينمُ الحزب وانما هو قد جمع اليه مادة أخرى فكبر بها .

ان الطفل لم يكبر فيصبح رجلاً وانما الطفل ضمّ اليه طفلاً آخر فعادلا قوة الرجل . انا كنت اريد ان ينمو الطفل فيصبح رجلاً لا أن يكون بدل الرجل طفلان كما حدث .

بالاضافة الى ذلك فانا غير متفاهم مع السيد الحوراني في الخطط السياسية وقد اشبع أحدنا الآخر عناداً ومقاومة وتحدياً في مجلس النواب . وللانصاف أقول انني كنت انا الذي يتصدّى له أكثر مما كان يتصدّى هو لي . ومهما تكن بداية هذا التصدّي والنكاية فهذا هو الأمر الواقع .

رضخت للواقع ، فنحن ثلاثة كان اثنان منهم في جانب وكان واحد في جانب . وانا ديموقراطي بطبعي . فقبلت عن غير اقتناع ان اسير مع زميليّ في هذه الطريق .

والموضوع مختمر في ذهني وانا متمكن منه فلم أكن بحاجة الى إعمال الفكر في سبيل وضع الشروط . وقد سجلتها في خلال الجلسة الليلية المعقودة بيننا . وهذه هي الشروط بعد أن تمت الموافقة عليها من جانب حزب البعث العربي والتي كانت بحاجة الى موافقة الحزب الآخر العربي الاشتراكي عليها :

« ١ ــ دستور الحزب الجديد هو دستور حزب البعث العربي بلا زيادة حرف ولا نقصان حرف .

٢ ــ النظام الداخلي للحزب الجديد هو المنهاج الداخلي لحزب البعث .

٣ ــ تصبح القيادة رباعية بعد ما كانت ثلاثية وذلك بانضمام الاستاذ أكرم الحوراني اليها .

٤ ـ سائر الاعضاء من الحزب العربي الاشتراكي يتقدمون بطلب انتساب الى الحزب كل واحد بمفرده . والقيادة تقبل من تقبل منهم وترفض ضم من ترفض الى الحزب . ولا يمكن قبول اعضاء العربي الاشتراكي في الحزب مجتمعين . بينما هذا الشرط لا يسري على اعضاء البعث العربي فهم اعضاء طبيعيون في الحزب .

٥ ـ اسم الحزب هو حزب البعث العربي » .

وبعد مجادلات امتدت الى آخر الليل طلب مني زميلاي الموافقة على اضافة كلمة « الاشتراكي » على اسم الحزب على ان توضع هذه الكلمة بحرف صغير تحت الاسم . ولقاء هذا فانهم يوافقون على الشروط ويستمسكون بها ولا يقبلون التنازل عن شيء منها . وكنت اقول لهما : ان حزب البعث العربي هو غير حزب البعث العربي الاشتراكي . فلا تستهينوا بايحاء الاسم وآثاره . فالاسم هو صندوق المعنى . انه الجسم والمعنى النفس . وكما لا يمكن ان يكون هناك نفس للانسان بلا جسد فانه لا يكون هناك معنى بلا اسم . ودلالة الاسم لها اثر خطير في النفوس . لكن الزميلين ألحا عليّ بوجوب التساهل في هذا الأمر وحده . وأخيراً وافقت على مضض لأني شعرت وكأنما المناخ كله قد تبدّل عليّ واصبحت غريباً عنه . ومع ذلك فقد كنت على مثل اليقين ان هذه الشروط لن تحوز على القبول من جانب الطرف الآخر وكنت كمثل المطمئن الى ان الصفقة لن تتم ولن يكتب لفكرة الدمج بين الحزبين النجاح .

وقد غادرت دمشق بعد ذلك على عجل الى مدينتي لاتلقى هاتفاً من الاستاذ صلاح الدين البيطار يخبرني فيه ان الشروط قد قبلت وان الدمج قد تمّ . ولقد فرح من فرح من اعضاء الحزبين بهذه النتيجة واغتمّ من اغتمّ . ولم يكن لأيّ منهما قدرة على استجلاء المستقبل وما يحمله للحزب من مصير .

الواقع ان الحزب بهذه العملية قد كبر سياسياً وظاهرياً . ولكنه قد تجمد عن النموّ من الداخل . وان الطاقات لم تعد تستطيع التفجر لأن

مناخ التفجير لم يعد ملائماً لها . وكان ضغط الشيشكلي على المواطنين قد اشتدت وطأته . وكان في تضامن اعضاء الحزبين وعملهم المشترك ما يشجع على الثبات في الميدان ويبعث الأمل والتفاؤل في النفوس ، وهذه سحابات تمرّ على الانسان فتنشر بعض ما يخالج ضميره من تحسبات للمستقبل حول مصير الحزب الجديد .

ولم يترك الشيشكلي مجالاً لادامة التفكير في ما وقع . بل انه انسى الحزبيين كل شيء الاّ واجب النضال والكفاح ضد حكمه . وكانت العلاقة قد ساءت الى أبعد حد بين قيادة الحزب كلها وبين الاعضاء ايضاً وبين الشيشكلي . الى ان اضطرت القيادة الى اتخاذ قرار بالنزوح الى خارج الوطن السوري وبعثوا اليّ بكتاب حمله اليّ أحد الأعضاء الى دير الزور يطلبون مني فيه مغادرة الوطن الى أقرب مكان فليس من الضروري النزوح الى لبنان او مكان بعينه . وما دام العراق قريباً مني فلا بأس من اللجوء الى العراق . وغادر اعضاء القيادة الثلاثية دمشق الى بيروت ولكني لم اغادر دير الزور . وهنا لا بدّ من تعليق صغير حول الدمج . فالامور ليست خيراً كلها وليست شرّاً كلها . ويندر ان يكون هناك خير مطلق كامل لا يخالطه شيء من الشرّ ولا شرّ مطلق متكامل لا يخالطه شيء من الخير . وقياساً على ذلك فان دمج الحزبين كان فيه الى جانب الخير شر اذا اعتبر خيراً ، كما ان فيه الى جانب الشرّ خير اذا اعتبر شرّاً .

فالى جانب القوة السياسيّة (الاعتبارية) التي اصبح الحزب يتمتع بها تجاه الاحزاب الأخرى وتجاه العسكريين فانه خسر الوحدة والانطلاق المنسجم ودبّت في صفوفه الفوضى الى حد بعيد .

وكان الدمج دمجاً سطحياً سياسياً لم يصل الى الاعماق فيوحّد الامزجة والميول والمقاصد . لذلك كنت ترى في الحزب أمراً بارزاً هو تقاسم المهمات. فاذا عين وزير من اصل بعثي فانه لا بد من تعيين وزير من أصل اشتراكي . واذا ندب الحزب مندوباً لأمر من الأمور من أصل فلا بد من انتداب مندوب آخر من الاصل الثاني . وقد عاش

الحزبان وكأنهما اتحاديان لا حزب واحد . وكأنما كان كل شيء يوحي بان هذا الدمج انما هو « زواج متعة » يقضي وطراً ثم ينتهي . وكنت ترى الى جانب هذا وذاك تكتلاً ملموساً بين افراد كل من الحزبين بل انك ترى مماحكات وتنافساً وتحزباً مما يدل على ان الالتحام كان « فوقياً » ولم يكن باطنياً لامس الاعماق وازال الخلاف ووحّد الاهداف.

ولكن الحزب سار متفق الاعضاء في فترة الكفاح ضد عهد الشيشكلي الى ان حان الوقت الذي برزت فيه الخلافات من جديد .

مؤتمر حمص

في هذه الاثناء عقد مؤتمر وطني في حمص ضمّ كل الفئات المناوئة لحكم الشيشكلي . وكنت انا لم أخرج من سورية بعد قرار القيادة القاضي بخروج القيادة الى حيث يتاح لها النشاط والعمل الحرّ . فالحدود القريبة منّي هي حدود العراق . وليس في استطاعتي ان اذهب الا الى العراق بعد ما هبّ رجال المخابرات وما كانوا يسمونه المكتب الثاني في البحث عن اعضاء قيادة (حزب البعث العربي الاشتراكي)، وهذا هو الاسم الذي سنطلقه على الحزب بعد الآن . لكني تواريت في بعض الاحيان عن عيون السلطة وذهبت الى الريف وأقمت مدة يسيرة لم تلبث وطأة الاعتقال والملاحقة أن خفّت فخرجت امارس سلوكي العادي .

وكنت أعلم ان العراق سوف يستقبلني بالترحيب والتكريم ولكني كنت على مثل اليقين ان العراق في الوقت نفسه قد يكلفني بسلوك يتفق مع رغبة حكومته بصرف النظر عن اتفاقه مع سلوكي وتخطيطي . فاذا لم أفعل فان الجفوة لا محالة واقعة . ولهذا فضّلت البقاء في المنطقة على النزوح الى العراق .

وكان بقائي مفيداً حيث تمكّنت من حضور مؤتمر حمص كما تمكّنت من الاشراف على اعمال الحزب النضالية . وخلال ذلك جرت اتصالات مع الفئات السياسيّة للاتفاق على ما بعد الشيشكلي اذا

تمّ أمر الاطاحة به . وطلب اليّ بعض العسكريين التذاكر في الوضع الراهن ولكنّي لم أبحث معهم لان البحث يتضمّن الانقلاب العسكري وانا غير موافق على الانقلابات العسكرية واتمنّى لو يتمّ الانقلاب بالطرق الديموقراطية الشعبيّة . لكن اذا حدث انقلاب بغير رضانا ولا موافقتنا فماذا نستطيع نحن ان نفعل . فعملية الانفصال بين سورية ومصر قد تمّت بانقلاب عسكري ولم يكن لنا رأي فيه ولا اطلاع عليه . كما لم يكن في امكاننا منع حدوثه او عرقلته او تصحيحه .

وعندما قرّرت الفئات السياسيّة عقد مؤتمر لها في حمص لمعالجة الحال الراهنة كنت من الموافقين على ذلك والمتعهدين بحضور المؤتمر مهما تكن العراقيل .

وفطن الشيشكلي الى خطورة المؤتمر ونتائجه فكان يزمع منعه بالقوّة . لكنه اخذ رأي محافظ حمص بصفته المسؤول عن مثل هذه الاحداث في محافظته . وكان المحافظ هو « سعيد السيد » ، فاشار عليه المحافظ ان يسمح بعقد المؤتمر ويعطي الحريّة للمواطنين . على ان يضمن المحافظ النتائج الامنيّة وحدها دون النتائج السياسيّة التي قال انها لا تحتاج الى ضمانات ، فالمد الشعبي متدفّق رغم المنع ، ومن الافضل للشيشكلي نفسه ان يسمح بعقد المؤتمر . وتمّ السماح للمؤتمر بالانعقاد . وقد القيت كلمات من ممثلي الفئات تحدثت كلها عن وجوب الاتحاد ورصّ الصفوف والتجاوز عن الامور الثانوية والتمسّك بما يؤول الى حرية الوطن والمواطن وحدها .

واتخذت بعض القرارات التي تنمّ عن الحزم والاستمرار في مكافحة العهد والعودة الى الديموقراطية ووجوب بذل كل جهد في هذا السبيل . وكانت جلسة واحدة تكفي لتقرير هذه الامور كلها فكانت جلسة البداية والافتتاح هي جلسة النهاية والاختتام .

مكالمة هاتفية مع الشيشكلي

بعد ارفضاض المؤتمر عدت ومعي عدد من الاصدقاء الى بيت

حافظ ، وما استقر بنا المقام حتى دقّ جرس الهاتف . فتناوله المحافظ سمعنا ما يلي :

– مساء الخير ابو حجدر . هنا ابو حسّان يتكلّم .
– اهلاً ابو حسّان .
– كيف حال ابي حجدر ؟
– بخير وانت كيف حالك ابا حسان .
– نحمد الله بخير .
– هل انتهى المؤتمر يا ابا حجدر ؟
– نعم انتهى .
– لقد شتمونا وتحاملوا علينا كثيراً ، اليس كذلك ؟
– لا . فالمؤتمرون لم يبحثوا في الاشخاص وانما بحثوا في القضايا العامة.
– هل أنت متأكد ؟ ارجوك ان لا تعتمد على معلومات (المكتب الثاني) لانها غير دقيقة .
– معلوماتي ليست من المكتب الثاني فانا لم اتلقَ بعد التقارير التقليديّة من دوائر الشرطة والمكتب الثاني ، ولكن معلوماتي من مصادر ثقة .
– من هي الثقة ؟
– ثقة وكفى .
– هل يمكنني ان اعرف من تكون هذه المصادر . وهل حضرت المؤتمر؟
– يمكنك ان تعرف . هذه الثقة ، جلال .
– نعم ثقة . واين هو جلال .
– ها هوذا الى جانبي يسمع حديثك .
– هل يمكنني ان أكلّمه ؟
– يمكنك ذلك ، واني سأناوله السماعة لتتحدث معه .

وناولني أخي سعيد سماعة الهاتف ليجري الحديث بيني وبين الشيشكلي على الوجه التالي .

– مساء الخير أبو قيس .
– مساء الخير .

– عسى ان تكون بخير .
– احمد الله .
– لقد اشبعتموني سباً وشتائم ، اليس كذلك ؟
– على قدر الامكان .
– لقد كنّا مطمئنين الى نتائج المؤتمر عندما عرفنا انه يضمكم وبعض الاخوان من أهل السابقة في الوطنية والنضال .
– انشاء الله .
– ماذا قررتم بحقنا ؟
– الموقف حاسم في هذه المرة فامّا رؤوسنا وإمّا رأسك .
– وهل تفرطون بي أبا قيس ؟
– الوطن اغلى من الاشخاص .
– هل يمكن ان نراك في دمشق غداً ؟
– لا .
– ولو ساعة واحدة
– لا . ذلك غير ممكن فانا مسافر صباحاً الى دير الزور .
– ان ساعة واحدة لا تؤخر عملك .
– وكيف تراني . وزملائي في المنفى واعضاء الحزب في السجون والمواطنون في قلق ؟
– ومن نفى زملاءك . انهم ذهبوا بملء اختيارهم الى المنفى .
– انت نفيتهم .
– انا لم اصدر أي قرار بحقهم ولم امنعهم من العودة .
– اذا كنت لم تتخذ قراراً بنفيهم فانك ضيّقت عليهم الخناق وعكرت الاجواء حتى كادوا يختنقون فنزحوا .
– اذا كان الجو خانقاً حقاً فلم لم تنزح انت ؟
– بعض الامزجة تحتمل المصاعب أكثر من بعضها الآخر .
– اذن لن نراك في دمشق .
– كلاّ .

– على رأيك . اعطني ابا حجدر من فضلك .
– ابا حجدر هل يمكنك اقناع ابي قيس بالحضور الى دمشق .
– سأحاول
– اصبحوا على خير .
– مع السلامة . وانتهت المكالمة .

قال لي أخي سعيد انه (الشيشكلي) يرغب ان يراك فهل عندك مانع ؟ فقلت له اذا عاودك حول هذا الموضوع فاعرض عليه امراً هو أن يستقدم الاساتذة من ايطاليا ويطمئنهم ويمنع ملاحقتهم ، وعندئذٍ ازوره شاكراً على عمله . وبغير هذا فانّي لن اقابله .

وبالمناسبة فان صداقتنا الشخصيّة مع اديب الشيشكلي تعودالى سنة ١٩٤١ . فقد كان ضابط الموقع في مدينة ابو كمال على الحدود العراقية . ويومها قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني . وكنّا نذهب متسللين الى العراق في جنح الظلام سالكين الدروب البعيدة عن الطريق العام .

وفي يوم جاءنا صديق لنا وشريك في العمل الوطني وهو يعمل معلماً في مدرسة ابو كمال يقول لنا : اديب الشيشكلي يسلم عليكم . فقلنا ومن هو هذا اديب ؟ فقال : ضابط الموقع . وكنا نحن لا نفرق بين الضابط السوري والافرنسي في الجيش بل كنا نعتبرهما مادة واحدة لأننا في الواقع كنا بعيدين عن مخالطتهم ومعاشرتهم . وقلنا للصديق : وبعد ؟ فقال انه يعرف تحركاتكم وهو مطلع عليها وانه يريد التعاون معكم . وانه وطني متحمس . وقد خامرنا الشك في هذه الاقوال ولكنّا كنا مرغمين على مقابلته، فلما قابلناه ابدى كل استعداد للعمل القومي ، وقال انه مستعد ان يلتحق مع جنوده بالثورة . واعطانا بعض الكتب كان قد طلبها منه فوزي القاوقجي ، فاخذناها الى فوزي ، وكان يومئذ في « عانة » . واستمرت الاتصالات . ولما وقع العدوان الافرنسي عام ١٩٤٥ كان اديب الشيشكلي قائداً في موقع «الرقة» برتبة نقيب على ما اذكر . وجرت بيننا وبينه الاتصالات فكان من اول المنتفضين على العهد الافرنسي مع نفر من زملائه الضباط الذين التحقوا

بالقوات الوطنية المناوئة للافرنسيين .

وكان سبب ذبول الصداقة بيننا وبينه « السياسة » . فهو قد فرض التدخل العسكري في امور الدولة بينما كنّا نحن ضد مثل هذا التدخّل، كما ان هناك سبباً آخر لفتور الصداقة هو علمنا انه كان منتمياً الى الحزب السوري القومي ولم ينفكّ عنه والبعث كان خصماً له . لكن مع كل ذلك فان العلاقات الشخصيّة ظلت متينة الى حد .

ولم تقطعها كلياً مواقفنا الشديدة في مجلس النواب ضده .

غادرنا حمص منتظرين تطور الاحداث . وما لبث الجو ان تحسّن بعض الشيء ونشر عبير من الحريّة المحدودة طبعاً . وهذا ما ساعد الاساتذة المقيمين في ايطاليا (عفلق والبيطار والحوراني) على العودة الى الوطن .

وكنت حريصاً على عودتهم لأن امور الحزب لم تعد تسير في مجراها الطبيعي، فالاتصالات العلنية ممنوعة . ومع انّه كان هناك قيادة سريّة احتياطياً، فان التخلخل كان بادياً .

من مقاومة الشيشكلي الى المزة

عادت الامور ثانية الى التأزم وهب المواطنون جميعاً الى مقاومة العهد ، وكان اعضاء حزب البعث العربي الاشتراكي بجناحيه من انشط العناصر الوطنية ، فانهم اقضّوا مضجع رجال السلطة بما كانوا يقذفون من متفجرات ، وما يقومون به من تظاهرات ويلقونه من خطب في الشوارع والاندية والمدارس والجامعة .

وهنا عاد الشيشكلي الى اسلوب القمع والسجن والنفي، فعاد الجو ثانية الى التكهرب، وكادت البلاد تجمع على المقاومة الا نفراً من المنتفعين الذين اتخذ منهم الحكم بطانة وخصّهم ببعض المنافع المعنوية والماديّة .

في سجن المزة

اعتقلت السلطة عدداً كبيراً من زعماء مختلف الاحزاب واودعتهم

في مستشفى المزة العسكري ، لكن العدد كان أكبر من ان يتسع له هذا المكان ففتحوا السجون واودعوها من شاؤوا .

واعددنا برقية وقعناها ووقعها معنا عدد من اعيان المدينة وشبابها الناهض من مختلف الفئات التي تمثل المدينة وارسلناها الى الشيشكلي . خلاصتها انه مذ استولى على السلطة فانه سار في طريق القمع والبطش حتى ضاق به الشعب ذرعاً . وقلنا له في البرقية ان الشعب لم يعد يطيق السكوت فلا بد لك ان تتنحى عن الحكم وتسلمه الى ممثلي البلاد والا فان الاضطرابات بالمزيد ، او كما قلنا له . وامتعض من هذه البرقية حتى كاد يطير صوابه . وقرر اعتقال موقعي البرقية واعتقال اربعة من الطلاب البعثيين معهم . ومضى اسبوع كامل ولم يتم الاعتقال لأن خلافاً نشب بين الشيشكلي والمحافظ وقائد الموقع ، وكانا يرفضان اعتقال هؤلاء . الا ان الرأي الاعلى قد تغلب وتم اعتقالنا .

وما كدنا نصل الى المزة حتى فوجئنا بعدد كبير من اعضاء الحزب ومن الفئات الأخرى . فالمهاجع العليا من سجن المزة كانت تغص بالمقيمين فيها ، كما علمنا ان الانفرادية وسائر المهاجع كانت مليئة . وكان المعتقلون من كل الاصناف ، ففيهم المحامون والأطباء والمدرسون والضباط المتقاعدون والطلاب . وكان وجود هؤلاء في السجن دليلاً حياً على ما يشبه الاجماع في البلاد على السخط والنفور من عهد الشيشكلي ، وكان كل شيء يؤذن بزوال العهد بلا ابطاء ، ومن الاحصاءات التقريبية التي اجريناها في السجن تبين لنا ان أكثر من ثمانين في المئة من السجناء كانوا من حزب البعث العربي الاشتراكي .

كما كان هناك عدد من حزب الشعب ومن الحزب الوطني ومن المستقلين . وكثرة العدد تدل بوجه من الوجوه على مدى فعالية الحزب الذي ينتمي اليه العدد الأكبر ومدى النشاط الذي يبذله لازالة العهد .

معنى ذلك ان حزب البعث العربي الاشتراكي هو الذي قضى على عهد الشيشكلي وسبب قيام فئات من ضباط الجيش السوري بتنفيذ عملية اسقاطه . هذا هو ظاهر الأمر .

لكن المفاجأة التي ظهرت لنا في ما بعد هي ان الحزب لم يكن الا ّ وسيلة ومخلباً . وانه لم يكن مطلعاً على تخطيط يجري من وراء ظهره . فقد كان للعراق ضلع كبير بل وضلع وحيد في اسقاط الشيشكلي . اذ تم ّ الاتفاق بين حكومة العراق وزعماء الحزبين الوطني والشعب على ذلك وحزب البعث مقصى لا وجود له . لكن الجماعة قد استغلوا نشاط البعث فاستفادوا من تطرفه في المقاومة ونجحوا في اجراء العملية .
ولم يمضِ على وجودنا في السجن الا ّ اقل من شهر واحد .

الانقلاب على الشيشكلي

فهمنا في ليلة من ليالي آذار ١٩٥٤ ان الشيشكلي قد غادر البلد وان انقلاباً قد وقع ضده وأن امر الافراج عنا قد صدر وهو في طريقه الى ادارة السجن لتنفيذه . قال الفلاسفة : ان الحجر لو سئل لقال انه سقط بملء ارادته . فهو لا يدري بانه يسقط رغماً عنه بحكم الجاذبية وانه لاخيار له في هذا السقوط . وحزب البعث كان لا يعترّف باي دافع خارج عنه قد جعله يسلك هذا المسلك في مقاومة عهد الشيشكلي . بل انه يعتبر تحركه هذا تلقائياً وانه جرى بملء ارادة الحزب وحده . والحقيقة هي ان الحزب كان مساقاً من حيث لا يشعر وبوحي زين له وجوب مقاومة عهد الطغيان ، وان واجب الحزب الاول هو الدفاع عن حرية الشعب وعن وجود الحزب الذي كان لا يستطيع النمو والتكاثر الذاتي الا ّ في ظل ّ الحرية والديموقراطية . هذا كان من قبل ، اما في الحزب الجديد فان الرأي قد تبدل كما قلنا من قبل .

وهنا يجوز لنا ان نتخذ قراراً في هذا المعنى ، ونجيب على تساؤل مستمر في هذا الميدان ، اذ الاحداث متلاحقة ولا تعطي مجالاً ً للسكوت او التغاضي .

السؤال : هل يجوز العمل في ميدان لفئات أخرى دولية او حزبية نفع فيه ؟ وللتخصيص ، هل يجوز لحزب البعث ان يشتد في مقاومة

الشيشكلي دفاعاً عن حرية الشعب اذا كان للاحزاب الأخرى فائدة من زوال العهد واذا كانت حكومة العراق قد خططت لاسقاطه ؟

والجواب عندنا هو بالايجاب . وحتى لو عرف حزب البعث ان للعراق يداً – وهو لم يكن يعلم – وعرف ان الاحزاب الأخرى مشتركة في التخطيط ، فان هذا لا ينبغي ان يقعد حزب البعث عن محاربة عهد الطغيان . ذاك ان الامور متشابكة ومن النادر ان تكون مفردة بل انها متلاحمة . والعمل النافع قد يساعدنا الآخرون على انجازه لأن لهم فيه منفعة . فيجب اتمامه ولو انتفع منه الآخرون .

اما غير ذلك فانه من نوع الوسواس . واذا استقرت هذه القناعة ، قناعة التفرد بنتائج الاحداث ، فانها تؤدي الى الشلل المطلق والتقاعس الكامل . ولو انا احصينا الاحداث ما وجدنا فيها ولا حدثاً واحداً الاّ وفيه عناصر كثيرة واطراف متعدّدة تحاول الاستفادة منه . واستفادة الآخرين لا تمنع استفادتنا .

وان العاملين في الحقل السياسي يتبعون الهدف الذي تغلب منفعته على ضرره . فمن النادر ايضاً ان يكون في الكون عمل كله منافع وهو يخلو من اي ضرر . والسياسة هي اختيار أهون الشرّين . لكن اختيار أهون الشرّين يحتاج الى حس سليم والى تجرّد مطلق ونزاهة وبعد عن الاغراض الشخصية والعقد النفسية . فاذا توافر هذا فان الاختيار يكون سليماً ، والاّ فقد يجنح المرء الى اختيار الاشد ضرراً من النتائج وهو يحسب انه اختار أخفها ضرراً . ومن هنا فان للسياسة شروطاً قل من تمتع بحيازتها من السياسيين .

توزيع التركة

اجتمع مؤتمر حمص الثاني بناء على طلب قيادة الجيش وذلك لوضع الترتيبات وبناء الحياة الجديدة وتأليف حكومة بعد رحيل أديب الشيشكلي . وكان المؤتمر برئاسة السيد هاشم الاتاسي الذي اعتبر الرئيس

الشرعي للبلاد وبعضوية ممثلين عن الاحزاب الثلاثة الرئيسية وعن المستقلين . وبناء على اعتبار عهد الشيشكلي عهداً غير شرعي فانه عدّ لاغياً بما اتخذه من اجراءات، فقرّر بناء على ذلك دعوة مجلس النواب المنحل الى الانعقاد .

وكنا قد تأخرنا بعض الوقت في سجن المزّة عن الدفعة الاولى من المعتقلين الذين كانوا في المستشفى العسكري بسبب مضاعفات حدثت بين صفوف الضباط . وعندما تمّ الافراج عنا كان مؤتمر حمص على وشك الفراغ من مهمته . وكان الرئيس الاتاسي قد طلب حضوري ولكن لم يبلغوني ذلك الاّ بعد ارفضاض المؤتمر . فمن هو المسؤول عن عدم التبلغ ؟ لا شك في ان اكثر من فئة واحدة من المؤتمرين كانت مسؤولة .

وكان هنالك أمر بيت بين المؤتمرين لاقصاء حزب البعث عن الاشتراك في الحكومة الجديدة . فالعراقيون الذين كانت لهم الكلمة النافذة لم يكونوا ميالين الى البعث رغم ما يظهر به حزب البعث من دعوة الى الاتحاد السوري العراقي ورغم ما يقوله بعض زملائنا في الحزب وبعض الشيوعيين من صداقتي انا شخصياً مع حكومة العراق .

ولا بد هنا من ذكر الحقائق، وهي ان زملائي في الحزب الذين مثلوه في مؤتمر حمص لم يظهروا كفاءة سياسية، اذ مكنوا الاطراف الأخرى من ابعادهم عن دخول الوزارة بناء على طلبهم هم لا بناء على طلب تلك الفئات . فالطرفان في الحزب – وفي الحزب طرفان رغم الدمج – قد امعنا في المزايدة وتسابقا في التعفف واوغلا في الزهد والعزوف عن الوزارة . وهما بذلك قد انطلقا من المنطلق العامي الشائع الذي يفترض ان الوزارة مغنم وربح ورفه . في حين أن أناساً من مستوى قيادة البعث كان عليهم ان ينطلقوا من الحقيقة التي تعتبر الوزارة مسؤولية ونصباً واعباء ، وان الابتعاد عنها في الظروف القاسية انما هو هرب وبعد عن تحمل المسؤولية .

وقد تمّ تأليف الوزارة الجديدة من اطراف ثلاثة . المستقلون

وحزب الشعب والحزب الوطني . ولم يظهر ممثلو حزب البعث اي اعتراض على ذلك، بل على العكس فانهم هم الذين وجهوا المؤتمر الى هذه الطريقة .

وعاد ممثلو الحزب الى دمشق وكنت انا مريضاً من اثر رطوبة السجن وكنت لا استطيع السير الا بصعوبة . فجاءني الزملاء واطلعوني على كل ما جرى، فلم اوافق على ما صنعوا بل انني قررت ان أحمل المسؤولين على اعادة النظر في شكل الحكومة . واقنعت الزملاء بذلك .

انني لم اجد من الحكمة في شيء ان نكون نحن المخلب الذي اقض مضجع الطغيان وسبب سقوط العهد ومع ذلك لا نكون من الوارثين ان لم نكن الوارثين الوحيدين . فقد آن الاوان لتنفيذ برامجنا القومية جزئياً على الاقل . وهل ابتعادنا عن الوزارة والحكم بعد كل ما حدث يفسر الا بشيء واحد كان يقوله عنا زعماء الاحزاب ، وهو ان حزب البعث كمية من الطلاب يصفقون لنا ويهتفون عندما نمر في الشوارع وان حزب البعث ليس مؤهلاً لقيادة سياسة او ادارة دولة . وهل ابتعادنا عن السلطة في هذه المرحلة الا اقرار منا بالعجز والشعور بالضعة .

والواجب علينا ان نشعر الاحزاب بوجودنا في كل ميدان ومنها ميدان الحكم والسلطة . فالشعب يقيس قوة الحزب على عدد ممثليه في الوزارة ، ولما لم يكن لحزب البعث ولا ممثل فان الشعب قد يلقى في روعه ان قوة البعث لا تمنحه حق التمثيل في الحكومة . واذا كنا نتساهل ولا نريد خلق المصاعب والتعقيدات في وجه العهد الجديد فاننا نطلب ان يكون لنا وزراء على قدم المساواة مع الحزبين الآخرين والمستقلين من حيث العدد .

وقبلت قيادة الحزب نظريتي هذه ووافقت على بذل المساعي لتحقيق الغرض المنشود . وباشرت اتصالاتي لدى زعماء الاحزاب ووصفت لهم الخطر الذي يحدق بالعهد اذا لم نكن نحن من دعائمه . وحذرتهم من مغبة وقوفنا في المعارضة ، فان ذلك قد يجمع من ورائنا

بعض اعداء الوطن ايضاً ، وليس عليهم مأخذ ماداموا يقفون وراءنا .
وبعد مداولات ومذاكرات امتدت اياماً تدخل في الأمر اشخاص من خارج الاحزاب ومن خارج سورية ايضاً . فكان من الوسطاء قائد الثورة السورية سلطان باشا الاطرش . كما كان من الوسطاء الاستاذ كمال جنبلاط الذي قدم من لبنان خصيصاً للمساعدة على حل الازمة .
وكان ان اظهرت الاحزاب والمستقلون قبولهم بان نشارك في الحكومة بثلاثة مقاعد وزارية على ان يبقى ثلاثة وزراء ايضاً لكل حزب او فئة . وكنا قد عينا وزارات اشترطنا استلامها . لكن الوسطاء ألحوا على ألاّ يكون هنالك شرط من هذا النوع فقبلنا ان تكون وزاراتنا على مستويات متفاوتة من الاهمية فلا هي كلها ثانوية ولا هي كلهاعيون الوزارات .
وابلغتنا الاحزاب هذه الموافقة طالبة ان نسمي وزراءنا خلال ثلاثة ايام ليكون التحضير والاستعداد، فينسحب من وزرائهم من ينسحب ليخلي المكان لنا ،ويطلع رئيس الجمهورية على الاتفاق الجديد ، فلا بد له ان يطلع ويوافق ايضاً ، وما من احد يستطيع ارغامه على اصدار المراسيم اذا لم يكن موافقاً عليها مسبقاً . وقد ابلغنا اعضاء الحزب بما توصلنا اليه في هذا الباب فحاز القبول والاستحسان . وقد اجتمعت انا والاستاذ ميشيل عفلق لتسمية الوزراء وتداولنا في الاسماء وكان الاتفاق تاماً .
وهنا اريد أن اصحح للدكتور منيف الرزاز ما ورد في كتابه « التجربة المرّة » عن هذا الحادث . فالدكتور الرزاز قال انه عرض علينا في هذه المناسبة الدخول في الوزارة فرفضنا . والحقيقة هي اننا نحن الذين طالبنا بالدخول في الوزارة والحفنا في الطلب ولكن الاحزاب نكلت بعدما أعلنت موافقتها .
ويبدو ان جهات غير سوريّة — وقد تكون حكومة العراق — هي التي اوحت الى الاحزاب بالنكول . ونحن قلنا ان لحكومة العراق يومئذٍ الباع الطويل في تقويض العهد . وكنا ذكرنا ان لحكومة العراق

يداً في الانقلاب ضد حسني الزعيم وذلك من باب الترجيح . اما في الانقلاب على الشيشكلي فان الامر لم يكن من باب الترجيح وانما من باب اليقين . فقد اطلعنا بعد ذلك على اتفاق تام بين الحزبين الوطني والشعب وحكومة العراق ، تقرّر فيها الانقضاض على العهد وتهديمه . وكنّا نحن خارج (المباراة) ، وكل مهمتنا في الأمر ان اعضاء حزبنا قد اندفعوا لا يلوون على شيء في كفاح العهد وان ثمانين في المئة من مجموع السجناء كانوا من الحزب كما ذكرنا سابقاً .

وابلغنا في اليوم الثاني انه قد استغني عن عملية اشراكنا في الوزارة ، وهي وزارة موقتة قامت لتسيير الامور الى ان يحلّ موعد الانتخابات النيابيّة بعد ثلاثة اشهر ، وعندها يتمّ تأليف حكومة غير هذه تشرف على الانتخابات وتكون ائتلافيّة وسيكون لحزب البعث فيها ممثلون على نحو ما يطلب الحزب اليوم .

واذا كان البحث بيني وبين السيد عفلق قد تمّ سرّاً وانه قد يعتبر بحثاً خاصاً فانّي أرى عرض هذا البحث على القراء ليعرفوا المناخ النفسي والخلقي الذي كان يخيّم على البعث العربي يومذاك .

لقد جاء الاستاذ عفلق صباحاً على غير عادته . ولما سألته عن سرّ هذا النشاط قال اني جئتك لتسمية الوزراء الذين يدخلون في الحكومة ممثلين لحزبنا ، فانهم (الحكومة) قد يطلبون منّا هذه الاسماء في اية لحظة . فقلت : حسناً اجلس .

قال : من تقترح ان يكون وزراؤنا . فقلت له : علينا ان نبدأ من العكس بمعنى انه يجب علينا تعيين الاسماء التي لا تدخل الوزارة ثم بعد ذلك ننتقل الى تسمية من سيدخل . فقال : حسناً . قل .

قلت : الاسم الاول الذي لا يدخل الوزارة هو انت . وأمّا الاسم الثاني فهو انا . هذان الاسمان هما الممنوع دخولهما . ومن بقي من الحزبيين فكلهم يعتبرون مرشحين ويخضعون للانتقاء . قال حسناً ولكن هل لك ان تشرح لي فلسفة ذلك لارى هل انها هي الفلسفة التي اؤمن بها ام أن لديك اشياء اخرى غير ما لديّ .

قلت : انك كنت وزيراً . وانك حزت من الشهرة ولمعان الاسم حداً معقولاً ، وان عليك مهمة ادارة الحزب وضبطه وكبح جماح بعض اعضائه . وهذه مهمة كبيرة في هذا الظرف . وان الوزارة قد تعيقك عن القيام بهذه المهمة . وان انشغالك بواحدة من الاثنتين سيكون على حساب الاخرى . فامّا انك وزير فاشل في حالة انصرافك الى الحزب وإمّا انك فاقد السيطرة على الحزب في حال انشغالك بالوزارة . ولا ينبغي لنا ان نحمل احداً فوق طاقته والحملان ثقيلان مجتمعين وان حمل احدهما عسير فكيف بهما معاً .

اما انا فانّي قد قمت بما قمت به في الندوة النيابية وحزت كذلك ما قد يعد نجاحاً واصبت شهرة يجب ان اقف عندها لنمكن بعض الزملاء من الحصول عليها ، وهؤلاء الزملاء أكفاء ذوو مقدرة وقابلية . وان ميداني اليوم يجب ان يظل مجلس النواب . والوزارة قد تكمّ فمي وتنقلني من متكلم الى صامت . وفي الحزب من يمكنه ان يقوم بمهمة الوزارة . وفوق ذلك فانّه يجب ان يبقى لنا في الوزارة وجود كما ان لنا في المجلس وجوداً . فاظهر الاستاذ عفلق ارتياحه وتأثره من هذه البيانات وسألني بعد ذلك هل تضيف اسماء أخرى على قائمة المحظور دخولهم في الوزارة فاجبته بالنفي .

وعندئذ سألني ان انتقل الى الناحية الايجابيّة فاسمّي الاسماء التي ارى دخولها في الوزارة بعدما فرغت من الناحية السلبيّة . فقلت : الاسم الاول هو الاستاذ صلاح . فهو من بيننا الوحيد الذي لم يقم بمهمة رسميّة ولم تمتحن كفاءاته في هذا المضمار . وقد يكون عدم ممارسته للوزارة او النيابة سبباً في التهوين من شأنه لدى بعض الجهّال الذين لا يعرفون حقيقته واستعداداته الفكريّة وكفاءاته الأخرى . وما دام الاستاذ صلاح متفرغاً ، اي انّه ليس نائباً ولا مشرفاً على الحزب ، فان من الأفضل ان يكون وزيراً ليستعمل قدرته في هذ ا الميدان . فقبل السيد عفلق هذا التحليل وابدى ارتياحه التام . وسألني ان استمرّ في تعداد الاسماء فقلت له أما الاسم الثاني من وزرائنا فهو الاستاذ أكرم .

فقال وما هو السرّ في هذا فقلت له : ان الاستاذ أكرم سيتعب الوزارة اذا لم يكن فيها حاملاً مسؤولياتها الرسميّة . واذا بقي طليقاً فانه لن يقف في مطالبه عند حدود معقولة ، وهو سيطلب من الحكومة كل شيء . اما اذا كان داخل الوزارة فانّه سيضطر الى الاعتدال لأنّه عندئذ يعرف ما يمكن وما لا يمكن تحقيقه من الامور . والمسؤولية تروّض صاحبها وتسير به نحو شيء من الواقعية والاعتدال . والوزارة بالتالي هي ضبط له حتى لا يشتط ولا يجمح . وانت ترى ان الاسباب الموجبة لاقتراحي هي اسباب متناقضة . فبالنسبة الى الاستاذ صلاح ، فانا اريده ان يخرج بعض الشيء عن هذه الانطوائية ويعايش عناصر من العالم الخارجي عن الحزب ويلمس بيده كيف يجب ان تكون العلاقة بين المواطنين على تعدد مشاربهم ومنازعهم . وامّا بالنسبة الى الاستاذ أكرم، فانا أريد الحدّ من علاقاته غير المحدّدة مع المواطنين ، واريد ان يشارك الآخرين في حمل مسؤولية مشتركة لعل ذلك يخلق نوعاً من التقارب والتعاطف بينه وبين الزملاء، وقد يتدفق هذا التعاطف يوماً فيسري الى قطاعات أخرى فيصبح الاستاذ أكرم ايجابياً عطوفاً على المواطنين .

فقبل الاستاذ عفلق ايضاً هذا التعليل وسألني عن الاسم الثالث ، فقلت اذا فوجئنا بطلب الاسماء فاضف اي اسم تراه الى الاسمين السالفين فالشباب كلهم تلاميذك وانت عظيم الخبرة فيهم او « المفروض » انك عظيم الخبرة . فضحك وقبل هذا التكليف وافترقنا .

لكنا فوجئنا كما قلت سابقاً برفض الاحزاب والعناصر المؤلفة للحكومة التعاون معنا عارضة الاسباب التي ذكرتها من قبل ، فطمس البحث كلّه ولم نكشف للاعضاء ما دار بيننا من حديث .

وقد قصدت ان اطلع القراء ومن بعد ذاك الرأي العام على المناخ الخلقي والفكري الذي كان يعيش حزب البعث في ظلاله . اذ كان زعماؤه وحتى الفئات الأخرى منه عازفة عن السلطة الى حدّ بعيد . وكانت تحصر مهمتها في التبشير الخلقي والقومي . ولم تكن الوزارات

من الامور التي تستهويهم . وهذا يعدّ شيئاً غريباً اذا قورن بما وصل اليه حزب البعث اخيراً ، اي عندما اصبح – دولة . لقد انقلب الأمر حتى لم يعد المراقب من بعيد يصدّق وهو يرى ما يرى من تهافت على السلطة والمنافع والمصالح الخاصة ، لم يعد يصدّق ان الحزب كان في ماضيه على النحو الذي بينته في المداولة التي جرت بيني وبين الاستاذ عفلق . واذكر للتاريخ ان هذه المداولة لم يطلع عليها لا البيطار ولا الحوراني ، وليس من السهل اقناعهما بدخول الوزارة لو تم الاتفاق بيننا وبين عناصر الحكومة يومذاك .

الانتخابات النيابية والحزب

بعد الانقلاب على الشيشكلي اجتمع مجلس النواب السابق . وبعدما فشل الاتفاق بين البعث والحكومة على الاشتراك في الوزارة اتخذ حزب البعث موقف المعارضة من الحكومة . ولما جاءت ببيانها الوزاري الى المجلس كان المفروض ان يلقي كلمة الحزب نائب واحد . لكن الذي حدث ان الحزب القى كلمتين . احداهما بعثية والأخرى اشتراكية . والمعاني ليست خصبة في هذا الميدان والكلمة الثانية لا بد أن تكون ترديداً لما ورد في الاولى . ومع ذلك فانّه لا بد من كلمتين . فالحزب فيه ثنائيّة واضحة . وايقن الرأي العام ان الدمج لم يكن عميق الجذور وقد يكون (اتحاداً) ولكنه على اي حال لم يكن (فدرالياً) ايضاً وانما كان واسعاً (كونفديرالي) .

فكان الحزب مثل كثير من المنظمات والجماعات والدول ايضاً يتألف من جناحين ، بل وان القبيلة نفسها تتألف من عدة بطون . ويمكن اعتبار كل فئة من الحزب بطناً من بطون القبيلة في البادية لها كيانها الخاص ومشيختها ولكنها تنتمي الى القبيلة الأم . وحرص واقع الحزب على التناظر ،فالى جانب كل بعثي يقوم بمهمة لا بد من وجود اشتراكي يقوم بهذه المهمة او بما يعادلها . لذلك كانت الانتخابات النيابية التي

اعلن عنها في تموز من عام ١٩٥٤ محكاً لمدى التلاحم بين الفئتين .

وهنا اعود بالقارىء الى الشروط التي بيّنتها في ما مضى لدمج الحزبين، فانها لم تطبق تماماً وانما انضمّت الفئات كلها الى الحزب الجديد، حتى العضوان اللذان فصلا لنشاطهما في السعي الى دمج الحزبين اصبحا عضوين في الحزب الجديد . فهما كما يقول المثل خرجا من الباب ليدخلا من الشباك .

واشتدت البلبلة في الحزب وضعف التماسك الذي كان في الاصل ضعيفاً وسعت كل فئة الى مصلحتها الخاصة في موضوع الانتخابات . وكان من المفروض ان تقوم حكومة ائتلافية من كل الاحزاب ومن المستقلين تشرف على الانتخابات كما هو صريح الوعد في ابحاث الحزب مع الحكم الناقص الائتلاف يومذاك .

وجرت اتصالات بين الفئات ، وبين رئيس الجمهورية الذي كان حريصاً على حرية الانتخاب ، فهو يريد اشراك كل الفئات في الحكومة حتى لا يبقى لأحد ذريعة او مجال لاتهام الحكومة بالتزوير وهو الاتهام الذي يلجأ اليه الفاشلون عادة في الانتخابات . واستقر الرأي على ما سأقوله حول هذا الموضوع .

وزارة الانتخابات

دُعيتُ ذات مساء الى القصر الجمهوري فوجدت الرئيس المرحوم هاشم الاتاسي رئيس الجمهورية كما وجدت الاستاذ رشدي الكيخيا وكان يومئذ زعيم حزب الشعب، وحزب الشعب أكبر الاحزاب عدداً في مجلس النوّاب . قال لي الرئيس الاتاسي : فكرنا في تأليف وزارة تشرف على الانتخابات وان رشدي بك يشرح لك ما فكرنا فيه .

قال السيد الكيخيا : كلفني الرئيس بتأليف حكومة تشرف على الانتخابات والح في التكليف فقبلت المهمة . وانا انوي تأليف حكومة حيادية تضم وزراء مستقلين . وأنوي ان اضم وزيراً واحداً من كل

حزب من الاحزاب الثلاثة العاملة في البلاد . وهي حزب الشعب والحزب الوطني وحزب البعث . اما حزب الشعب فانه يكتفي بوجودي ولا يريد وزيراً منه . اقول هذا لأني سانسحب من حزب الشعب اذا أكملت تأليف الوزارة لأكون حيادياً كامل الحياد . ومع ذلك فان حزب الشعب لا يشترط وجود وزير له الى جانب وزيري الحزبين الوطني والبعث . فما قولكم في هذا . قلت اني لا أملك حق الاجابة القطعية على هذا السؤال والأمر كما تعلم يحتاج الى قرار من الحزب . فاكمل لي مخططك ليصير بحثه كاملاً في قيادة الحزب . قال : انا اشترط ان يكون لي حق اختيار الوزير من كلا الحزبين . وليس الحزب هو الذي يبعث وزيره الى الوزارة . قلت له الا ترى ان هذا الشرط يجعل من الممكن اعطاء الجواب السريع . وهو الرفض من غير عودة الى الحزب . ومن اين لك الحق في استعمال مثل هذه الصلاحية او محاولة استعمالها . والا ترى انك فرضت رأيك الخاص على الحزبين ؟

قال : اني لم أقصد فرض رأيي ولا سيطرتي على الاحزاب ، فليس هذا من خلقي وليس لي فيه مصلحة ايضاً . ولكني قصدت ايجاد الانسجام . وقد تبعث الي الاحزاب بوزراء لا اعتراض عليهم من ناحية المبدأ ، ولكن الاعتراض يقع عليهم من ناحية عدم الانسجام والبعد عن التفاهم وما هو في معنى ذلك . وماذا تنفع الوزارة التي تضم عدداً متنافراً من الوزراء .

قلت له أكمل مخططك الذي تراه . فهل انت تضع التحفظ على عدد معين او اسماء مخصوصة من الاحزاب وتقبل ما سواها وفي هذه الحال اطلب منك تسمية الوزراء الذين لا تنسجم معهم . ام هل انت تريد اشخاصاً بعينهم من الاحزاب وفي هذه الحال اطلب منك تسميتهم للبحث في الموضوع برمته . قال انا اريدك انت من حزب البعث . اما الحزب الوطني فاما ان يكون وزيره السيد ليون زمريا او السيد ظافر القاسمي . فقلت له هذه الاسماء قطعية لا يجوز البحث في سواها ام هي قابلة للاخذ والرد ، فقال انها قطعية . وانا اريد الجواب سريعاً

اذا امكن ذلك لأن الرئيس يطلب مني سرعة البتّ في الأمر . فودّعت الرئيس وودّعت السيد الكيخيا وانصرفت وكان الرئيس الاتاسي يودّعني ويرجو ان يكون البحث في هذا الامر بحثاً ايجابياً فمصلحة الوطن تقضي بمثل هذا الائتلاف . واذا تم ذلك انقطعت الشكوى المحتملة من نتائج الانتخابات ما دام لكل حزب وزيره الذي سيكون عضواً في لجنة تشرف على الانتخابات . وقد وعدته خيراً .

كان الاخوان ينتظرونني في مكتب الحزب ، وعندما عدت وجدت السادة ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وأكرم الحوراني مع عدد من الاعضاء الحزبيين الآخرين . وقد تحدّثنا في الامر علانية ومن غير ان تأخذ الجلسة شكلاً رسمياً بل ان كل الحاضرين اشتركوا في البحث .

لخصت لهم ما دار في الجلسة مع السيد الرئيس والسيد الكيخيا . وسردت عليهم كل ما قاله الكيخيا ، وطلبت اليهم البتّ لاعطاء الجواب لأنه ينتظر منا الرد في الفندق لا في القصر . وقد قال لي انه سيقبل التكليف او يرفضه على ضوء جوابنا .

وقد وجّه الحاضرون السؤال اليّ باعتباري انا المفاوض عنهم وطلبوا ان أعبّر عن انطباعاتي الشخصية ، وعن تقديري للموقف وهل انا ميال الى تلبية طلب السيد الكيخيا ام اني غير ميّال الى ذلك . فقلت لهم هذه اوضاع تجري في كل الدول وهي من الاساليب المألوفة في مثل مراحل الانتخابات . لكن الوضع عندنا يختلف . فانا شخصياً اميل الى عدم الاشتراك في الوزارة . وانا لست الذي سيطعن في الانتخابات مهما تكن نتائجها . وان وجودي في الحكومة لا يقطع طعن الطاعنين . فالتماسك الحزبي والتوافق والفناء الكلي في خدمة الحزب ليست اموراً متوافرة لدينا . ولهذا فانا غير واثق من سلامة الموقف داخل الحزب . وبعد مداولات تقرر رفض طلب السيد الكيخيا فاعلمناه بذلك . وما كان من السيد الكيخيا الاّ ان قدّم اعتذاره الى الرئيس . وفي صباح اليوم الثاني اجتمع في مكتب الحزب الاشخاص الذين كانوا امس وعاد السيد ميشيل عفلق الى بحث موضوع الوزارة . وطلب منّي ان الخّص

له الموقف ثانية فلخّصت فقال : انا لا ارى بأساً في هذا العرض وهو يصلح لأن يكون اساساً لدراسة . وسألني اذا كنت اقدر على الاتصال بالكيخيا لئلا يتعجّل في الاعتذار لأنا قد نصل الى الموافقة على طلبه . فسألته أنا ما الذي جدّ حتى تبدّل رأيك . فقال فكّرت في الأمر ملياً فلم أجد بأساً بل قل لم اجد سبباً قاهراً للرفض . اما بالامس فانك انت السبب في الرفض لانك سقت المسألة بشكل منفّر فاصابتنا العدوى ونفرنا. فقلت له ان العمل السياسي لا ينطلق من المشاعر الشخصيّة ومن العواطف . وعلى كل فان السيد الكيخيا قدم اعتذاره وانتهى الأمر ولم يعد بالامكان الرجوع عن قراره هذا .

وجرت مداولات في هذا الاجتماع لا ارى كتمانها على القرّاء لأن فيها بعض الفوائد، فهي تدلّ ايضاً على المناخ الخلقي والنفسي الذي كان يعيشه حزب البعث في تلك المرحلة من تاريخه، وتعطي صورة عن طراز التفكير الوطني الذي يتمسك به عدد كبير من قيادة الحزب ومن الاعضاء ايضاً . والحزب كله ملك للوطن وللامة كما اراه انا . لذلك لا اجد بأساً من عرض بعض امور الحزب الخاصة على الرأي العام .

قال الاستاذ عفلق : انا اخشى ان يضطر حزب الشعب الى تأليف الوزارة وحده مستقلاً فلا يعاونه احد من الاحزاب . والظرف دقيق وقد لا يستطيع حزب الشعب وحده حمل اعباء الحكم فيثقل عليه وتنيخ الحوادث بكلكلها فتزل به قدمه وينحرف عن الصراط المستقيم ونكون نحن من بين الاسباب التي ادّت الى هذا الانحراف .

فقال عضو قيادي : مع السلامة ، وهل نحن مسؤولون عن خيانة الآخرين ؟

كنت ملتزماً جانب الصمت ولكنّي انطلقت بعد هذا القول فقلت : نعم . نحن مسؤولون عن خيانة الآخرين اذا كنّا نحن الذين نسبّب لهم الخيانة . ان مهمتنا هي اخلاقيّة قوميّة . وليست سياسية . وليس من المروءة ان نضع « قشرة » الموز تحت رجل المواطن لنزحلقه ونضحك عليه بعدما يقع . بل ان مهمتنا هي ازالة قشرة الموز من بين

رجلي المواطن حتّى ننقذه من ان يهوي ويقع على الارض . وما لم نفعل ذلك فاننا نكون شركاء في الزلل ونكون قد خرجنا عن مثلنا التي نحياها والتي يجب علينا ان نظلّ نحياها . ان واجبنا القومي والاخلاقي يدعونا الى مشاركة الآخرين حتّى لا تكون هناك جريمة ولا خيانة وما لم نفعل فانا مرتكبون معهم الجريمة والخيانة .

وعدنا الى المجادلة ثانية وخرجنا بما يشبه الاجماع على ان حزب البعث يجب ان يكون منقذاً لا للوطن وحده ولكن للمواطنين ايضاً ، وانه مدرسة قبل أن يكون تنظيماً سياسياً وهو مدرسة للاخلاق والتفكير معاً . واستمرت بعد ذلك مشاورات في القصر لتأليف حكومة الانتخابات ، ولكني رفضت انا الاشتراك فيها شخصياً ، فقد اعتبرت مهمتي منتهية من المباحثات الاولى التي فشلت مع السيد الكيخيا فقام زملائي بهذه المهمة . وبعد أخذ ورد تألفت حكومة كان جلّ اعضائها من المحايدين .

وجرت الانتخابات وفاز حزب البعث العربي الاشتراكي بسبعة عشر مقعداً في المجلس الجديد . وكان من الفائزين من اقطاب الحزب الاستاذ أكرم الحوراني وصلاح الدين البيطار مع عدد من الشبان المثقفين من مختلف انحاء البلاد ولا سيما في محافظة حماه . وكان الحزبيون الفائزون في الانتخابات النيابيّة في كثرتهم من شق العربي الاشتراكي . وحتّى الفائزون من حزب البعث اصبحوا ميالين الى ذلك الشق . وضمر بعض الشيء جناح البعث العربي في مجلس النواب بينما نما وتضخّم الجناح الاشتراكي حتّى كاد يطغى على الائتلاف ويسيطر عليه . وساعده على ذلك بعض اقطاب مجلس النواب الذين يريدون ان يقع التخلخل في الحزب فسندوا جناحاً منه دون جناح مما لا حاجة لتفصيله .

٥ - قبل الوحدة

من انسحابي من الحزب الى حلّه نفسه

ظهر على الحزب ممثلاً بنوابه العناية بالأمور السياسية أكثر من العناية بالامور العقائديّة او الفكريّة . وقد قامت محالفات « وديّة » لا رسميّة بين الحزب وفئات أخرى هي في تركيبها الاجتماعي والاقتصادي على النقيض من تركيب الحزب وافكاره وشعاراته ومبادئه وكانت حجّتهم في ذلك « مقتضيات السياسة » . والحزب الذي لم يكن يعترف للسياسة الا بمنزلة ثانوية جداً أصبح يتحرّك انطلاقاً من السياسة .

وهبّت على البلاد في تلك المرحلة تيارات شغلت الناس عن العقائد والشعارات وألهتهم عن كل ما كانوا ينادون به وساقتهم الى معترك السياسة ، فالظرف في رأيهم يقتضي مثل هذا السلوك .

وكما هبّت على الحياة المدنيّة التيارات المختلفة فقد هبّت في اوساط الجيش ايضاً تيارات مثلها فحدث الانقسام عندهم كما حدث عند المدنيين . ودهمت البلاد في الداخل بعد ذلك بقليل انتخابات رئاسة الجمهورية وكان للحزب حليف يدعمه الحزب ويسانده بينما كان مرشح الاكثريّة النيابيّة شخص آخر هو غير مرشح الحزب . وكان على الحزب أن يعلن موقفاً في هذه القضية فاعلنه ودعم بذلك الأسم الأول في سورية من بين الرأسماليين والاقطاعيين والبعيدين عن آمال الشعب وآلامه . والحزب بذلك قد أهمل بعض مبادئه ولم يتمسك حتى بالحدّ الادنى من القيم التي يحترمها .

ان الحزب يفعل هذا بينما هو اتخذ قراراً في الانتخابات بانّه لا يجوز للحزبيين التعاون مع فئات أخرى غير فئة الحزبيين . وقد نفذ هذا

القرار بعض الحزبيين فخسروا الجولة بينما لم ينفذه آخرون ففازوا . ان بعض الحزبيين أخذ القضية بجدّيتها بصرف النظر عن النتائـــج . بينما لم يأخذ بها بعضهم وتظاهر بالتطبيق والتنفيذ بعيداً عن حقيقـــة التنفيذ والتطبيق . ويمكن القول ان الحزب في هذه الفترة قد تجمّد في مركزه الحزبي الشعبي وتمركز في الهيئة البرلمانية . حتّى ساد الجو عرف يعطي بوجه من الوجوه معنى ان الحزبي غير النائب ليس بالشخص الذي يستحق منزلة في الحزب رفيعة . وانتقـــل الحزب من الصعيد الحزبي الشعبي الى الصعيد الرسمي فاشترك في الوزارات وفي الوفادات والزيارات وانطلق الى العالم الخارجي وكأنه طليق لا يقيده قيد ولا يحدّه حدّ . وساءت العلاقات بين الجيش وبين الجهات السياسيّة وحدث انقسام وتكتل داخل الجيش وقامت عصيانات وتمرد على قرارات الحكـــم واختلط الحابل بالنابل حتّى أصبح الجو ينذر باحداث لا تعرف حقيقتها .

تصدع في الحزب

في هذه الاثناء حدث حادث كان له اثره البعيد في تصديع الحزب وزحزحته عن مواقعه التي احتلّها خلال عقد ونصف العقد من الزمان . فقد حصل صدام بين اعضاء حزب البعث العربي وبين الســوريين القوميين في دير الزور .

وقد قتل شاب من اعضاء الحزب السوري القومي على يد شاب من البعثيين فتكهرب جو المدينة وثارت النزعات القبليّة وتأزم الموقف وكان ينذر بالانفجار بين لحظة ولحظة . وكنت انا في دير الزور . وكان لا بد من القيام بعمل يطفيء اللهيب المستعر ويعيد الطمأنينة الى النفوس الثائرة ويقضي على التوتـّر الذي قسم المدينة قسمين وكأنما هما في معسكري اعداء لا في مناخ وطني .

في هذه الاثناء تلقيت برقية من قيادة الحزب اثبتها بنصّها :

دير الزور — الاستاذ جلال السيد .

لما كانت الحوادث الاخيرة في محافظة الفرات قد تطورت بشكل غير طبيعي واستناداً الى المادة الأولى من بـــاب الطوارىء من النظام الداخلي قررت القيادة القوميّة بناء على توجيه اللجنة التنفيذيّة تفويض الاستاذ جلال السيّد بالاضطلاع بمسؤولية الحزب وبمعالجة الموقف الحاضر في فرع دير الزور ويطلب من قيادة الفرع تنفيذ تعليماته .

ا.هـ.

صلاح الدين البيطار

لكن التفويض شيء وابتداع الحل شيء آخر . وأنا لم أكن بحاجة الى التفويض قدر حاجتي الى علاج يفتحه الله عليّ لانقذ به الموقـــف الخطير .

مضت عدة ايام لم امارس فيها الحلّ الذي انتويه . ولكني قمت بكلّ ما يوحي للآخرين بثبات الحزب وثقته بنفسه واعتداده بتأييـــد الشعب ، فكنت اغشى المحال العامة واقوم بزياراتي المعتادة حتى كأنّه لم يحدث حادث . وكانت شرارات الثأر قد انطلقت من عقالها والثأر لا يقع على مرتكب القتل وانما يحاول اهله ان يوقعوه بالرأس الأكبر من فئة الفاعل . فقلق الكثيرون عليّ وحاولوا ان يقنعوني بتعديل برنامجي وباطالة مكوثي في البيت ولو مدة قصيرة من الزمن حتى يذهب بعض ما في النفوس من غـــلّ وتنطفىء الجذوة المتّقدة المتعطشـــة الى الثأر والقصاص .

وكان الضعف بعينه أن أعدل في برنامج حياتي اليوميّـــة ، فقلت لاصحابي لو انطلقت علي نجوم السماء قنابل ما بدّلت سيرتي . عندئذ عمدوا الى نوع من الحماية والمراقبة ، فكان المقهى الذي أجلس فيه يحاط بجنزير من الشبان المسلحين يتراوح عددهم بين الاثني عشر والستة عشر شاباً .

وقد قلّبت الأمر على وجوهه المختلفة . فانا أعرف المسببين من الحزبيين الذين مهدوا للحادث وساعدوا على ارتكابه . وهذه الفئـــة

ليست صالحة للبقاء في الحزب لا لسبب هذا الحادث وانما لاسباب أخرى لا يطاوعني قلمي على تسجيلها ولا على تسمية المقصودين منها . وليس من الحكمة فصلهم من الحزب لأن في هذا الفصل ادانة لهم امام ذوي القتيل وامام القانون ايضاً . وليست هذه المناسبة صالحة لفصلهم من الحزب فيجب انتظار فرصة أخرى .

ولقد أعلنت في منشور اصدرته حل فرع الحزب ليعاد تنظيمه من جديد . ولقد كنت اقصد من ذلك ان اقوم بعملية تسجيل جديدة يتقدم بها الاعضاء فرداً فرداً فيقبل منهم من يقبل ويرفض من يرفض . وهنا يتم رفض الاعضاء الذين لم يعودوا صالحين الى الانتماء الى هذا الحزب . وليس من الغريب ان ينهي هذا المنشور حالة التأزم ويقضي على كل اسباب العداوة والبغضاء وكأنما كان هذا البيان ماء تدفق على نار فأطفأها . وعادت الأمور الى مجاريها في المدينة وزال التوتر . واعتبر أهل القتيل هذه العمليّة انصافاً لهم وترضية تستحق الامتنان والاحترام .

لكن الاعضاء المعنيين قد ادركوا المغزى من حلّ الفرع واعادة تنظيمه وشعروا أنهم لن يعودوا بعد اليوم الى الحزب ، فثارت ثائرتهم وهرعوا الى دمشق يستعدون المركز علي مستعينين بجهة في داخل الحزب تعمل ضدي وضد الحزب ايضاً . وكان الاضطراب بادياً على هؤلاء الشباب وقد صوروا للقيادة ان الحزب قد انتهى في تلك المنطقة وان عندي انا تصميماً لانهائه . فقبل بعض اعضاء القيادة هذه الشكوى . وقرّرت بعدها القيادة ان توفد عضوين من كبار الاعضاء لتقصّي الحقائق ودراسة الموقف عن كثب ...

ووصل العضوان ممثلا الحزبين « الحزب ؟ » ، وكان احدهمـــا الاستاذ منصور الاطرش . ومن البداهة يومئذ ان يكون الآخر من العربي الاشتراكي ما دام الاستاذ منصور من البعث ، فكان الثاني هو الاستاذ خليل كلاّس . وبدأ العضوان الدراسة والاتصالات .

ومهّدت للعضوين الجوّ ومكّنتهما من الاتصال بمن يشاءان من الحزبيين ومن غير الحزبيين . وسألاني عن الاسباب الموجبة لهذا القرار

وعن مستندي الشرعي في اتخاذه لأن عضو القيادة بمفرده لا يملك صلاحية مثل هذا التصرّف . وقد شرحت لهما الاخطار التي تعرض لها الحزب والمدينة ايضاً وكيف ان هذا القرار قد قضى على كل اسباب الفرقة . واطلعتهما على برقية التفويض المسطورة في اول هذا الفصل . فاظهرا اقتناعهما بصواب ما جرى وغادرا دير الزور بعدما أكملا مهمتهما .

من الطبيعي ان يصاب بعض اعضاء الحزب بهزة عنيفة عندما يتوقعون ابعادهم عن الحزب . فوجودهم وكيانهم وكل شيء فيهم انما هو قائم على انتمائهم الى حزب البعث العربي ، ولو فصلوا عن الحزب لم يعودوا شيئاً مذكوراً ، فلا قابلياتهم الشخصيّة ولامراكزهم الاجتماعيّة تستطيع التعبير عن وجودهم . ومع ان الحزب يومئذ لم يكن يستطيع ان يمنح اعضاءه الشيء الكثير الا ان كل قليل هو كثير بالنسبة الى هؤلاء الشبان . ولقد اعطيتهم بعض العذر في نشاطهم واضطرابهم من احتمال ابعادهم عن الحزب ولو انّهم سلكوا المسالك الشريفة في الدفاع عن انفسهم لكان ذلك اجدى لهم وللوطن وللاخلاق ولمبادىء الحزب ، ولكان يمكن اعادة النظر في موضوع رفض عودتهم الى الحزب اذا بدر منهم ما يدل على اعادة نظرهم هم في سلوكهم . لكن الذي حدث انّهم مالوا الى التهويل والى الاختلاق وتشويه الحقائق بشكل لم يسبق ان قام في الحزب مثله في يوم من الايام السالفة .

اهمية الحدث

لا بد هنا من بيان أهمية الحادث بالنسبة الى حزب البعث العربي ، وبياني هذا ليس خيالاً ولا امنية ولكنه حقيقة واقعة . ودلّت عليها نتائج الانتخابات النيابيّة . وكذلك العطف الذي يتمتع به الحزب بوجه عام : من شرق محافظة حلب الى حدود العراق الغربيّة ، ومن مدينة تدمر في الجنوب الى حدود تركيا . كان الجو مختمراً ومهيئاً ليحتل حزب البعث الساحة هناك كاملة بلا شريك له .

فهذه المنطقة عربية كلها . وبينها وحدة طائفية . وكنا نعمل في سبيل انتماء ابنائها جميعاً الى الحزب . وهي في الحقيقة حزبية وان لم تنتسب الى الحزب ، فهي مؤيدة له عبر تأييدها التام لنا . وحتّى الأكراد في شمال الجزيرة كانوا متعايشين مع العرب تعايش الاخوة ، لا تعايش الجيران . ولنا فيهم مؤيدون واصدقاء مثل ما لنا من العرب .

ومدينة دير الزور يشملها هذا الوصف . واذا كان هناك فئات صغيرة قد انتسبت الى احزاب أخرى ، كالقومي السوري ، فان ذلك لا ينقص ما قلنا من عروبة المنطقة وتأييدها لفكرة البعث وتوقّع انتمائها اليه .

فهناك بعض الشبان تقدّموا بطلب انتساب الى الحزب فلم يمكن قبولهم في ذلك الوقت . وكانت فيهم فعالية وحيوية فبحثوا عن متنفس لها فلم يجدوا هذا المتنفس في البعث فمالوا الى القومي السوري . وهم مع انتمائهم الى ذلك الحزب فانهم عرب التفكير والعواطف والولاء . وكانت مدينة دير الزور تتأهب نفسياً لتكون بعثية . الاّ ان هذا الحدث قد بدّل الموقف وجمّد السير في هذا الطريق ولو الى حين .

وانك لو سألت اي واحد ممن تلقاه من سكان تلك المناطق التي تؤلف ربع عدد السوريين عما اقوله لوافق . وفي الانتخابات النيابيّة تتوقف حتى المشاعر العشائريّة والنزعات المحليّة ليظهر العربي فيها على حقيقته وأصالته . فقد كنت انا انال من اصوات القبائل الأخرى مثلما انال من اصوات قبيلتي التي انتمي اليها . معنى ذلك ان الضمير العربي كان يتحرك ويمنح الثقة لمن يتوقّع منهم الخدمة والاخلاص .

وحادث القتل ليس من الحوادث العادية وانما هو مثير للمشاعر الحادة وحافز على المناوأة ومحرض على العداء . وكان لا بدّ من محو آثاره وكان تدبيري كفيلاً بتحقيق الغرض .

وهنا ابدأ بذكر الشكوك التي تساورني فاضيف الى ما احمله منها شيئاً جديداً هو أن الحادث مفتعل وكان يقصد به سد الطريق امام حزب البعث لكيلا يتضخّم ويحتل المنطقة كلّها . فالمناوشات التي قامت بين

البعث والسوري القومي لم تكن لها اسباب موجبة والسوريون القوميون فئة قليلة وهم عرب الشعور كما قلت من قبل .

ذكرت من قبل ان بعض الحزبيين قد اضطربوا من اعلاني حلّ الفرع موقتاً ليعاد تنظيمه من جديد . وهم ادركوا انهم لن يعادوا الى الحزب بعد اليوم . واقصاؤهم عن الحزب هو تدمير لهم اذ ليس لهم لا كيان ولا وجود مطلقاً الا انهم من هذا الحزب . وليس عجيباً ان يكون هذا ، ففي كل حزب نوعيتان . نوعية تحمل الحزب على كتفيها ونوعية يحملها الحزب على كتفيه . وليس معيباً ان يكون هذا لو اقترن بالاستقامة والضمير الحي والخلق الكريم ، ومن يوم خلق الله الخلق كان منهم اناس يحملون اناساً آخرين ويقاسمونهم مردود اتعابهم ومجهودهم .

وقد هرع عدد من اعضاء الحزب الى دمشق واستعدوا القيادة على هذا القرار وصبّوا علي اتهامات كثيرة لقيت عند بعض المغرضين قبولاً فروّجوا لها حتى بلغت قريباً من حدّ اليقين . ولا بدّ لي من عرض بعض هذه الاتهامات ليكون القارىء على بيّنة من الأمر :

١- قالوا انني اقطاعي . وانا عندما انفي هذا فما انفيه الا لأنّه غير واقع . ولست استحي ان اكون مالكاً قد ورثت عن ابي قرية او مزرعة كبيرة ، فالملكية كانت مباحة مهما تكبر مساحة الارض المملوكة، بل انها كانت مستحسنة من جانب المجتمع . والقانون يسهلها للناس ويحثهم على التملك لأن التملك كان يعني العمل الزراعي والانتاج . وكانت نظرة الناس الى المالكين نظرة احترام وتقدير . ولا تزال رواسب هذه النظرة باقية الى اليوم بالرغم من ظهور المفاهيم الجديدة والتيارات الاشتراكية وما اليها . والاقطاع يعني الملكية الواسعة اذا لم نقل انه يعني اموراً أخرى مثل السيطرة السياسية والطغيان الاجتماعي والترف والترهل الناجم عن الجمود والتقاعس في العمل اليومي .

فالاقطاع المنسوب اليّ خرافة . والأمر لا يحتاج الى دليل فدليله منه كما يقول المثل . فانا الاقطاعي الكبير لم أكن مشمولاً بقانون الاصلاح الزراعي حتى بعدما ضيّق الملكية وقلّصها وجعلها خمسين هكتاراً في

الاراضي التي نعمل فيها ، اي على ضفاف نهري الفرات والخابور . والاصلاح الزراعي هو الذي فضح هؤلاء وبين زيف ما زعموا .
وفي هذه المناسبة تذكرت قصة خلال الثورة الافرنسية . فقد كان كما هو معروف في فرنسا طبقتان ، طبقة الاشراف وطبقة الشعب . وطبقة الاشراف تملك الأرض في الغالب الراجح . وكانت موجة الحريّة والمساواة هي العارمة بين كل الامواج . وقد قام أحد الاشراف في الجمعيّة الوطنية ودعا طبقته الى التنازل عن اراضيها وكان اسمه « جان » . واستحسن الناس قوله واعتبروه من المضحين في سبيل الشعب . ولكن تبين عند البحث ان جان هذا لم يكن يملك ارضاً وانما ورث المنزلة الاجتماعية ولقب الشرف عن الاباء والاجداد فسموه يومئذ Jean sans terre اي جان بلا ارض . ولعل الشبان الذين نسبوا اليّ الاقطاع يعتبرونني اقطاعياً بلا ارض . لكن هذه الخرافة قد لقيت لها سامعاً في مركز القيادة .
ففي يوم ذهبت الى مكتب الحزب لأسمع سؤالاً من أحد الحضور ، وكان عدد من القياديين والاعضاء يجتمع في المكتب ، سؤالاً عن ارضي وملكيّي وحقيقتها وما يقال حولها . فعجبت من السؤال وتباطأت في الاجابة استهتاراً منّي بالسؤال الذي عرفت دوافعه . فما كان من الاستاذ ميشيل عفلق الاّ ان تصدّى للجواب جواب العارف وهو قد نفى طبعاً هذه الشائعة وقال عنها انها مغرضة . فكان عجبي أكبر مما سمعت من السيد عفلق ، فسألته ومن اين لك انت بهذه المعلومات ، فقال لقد سألت الضابط « فلاناً » الذي يشغل منصب مدير العشائر في الجزيرة فحدثني الحقيقة . فقلت له : والله لقد ازعجني دفاعك أكثر مما ازعجني سؤال الآخرين . فهذا يعني انكَ قمت بتحقيق وتحرٍ واستقصاء . فقال قمت بتحقيق لأكون على مقدرة بتصحيح الخبر ولَيس لي قصد آخر . فانا اعرف جلية الأمر قبل المعلومات الجديدة ولكن المعلومات الجديدة هي رسميّة ولا يمكن دحضها او الرد عليها .
٢– وقالوا انني رأسمالي . والقول هزل وليس فيه اثر من الجدّ

عند العارفين بوضعي المالي في المنطقة . فنحن اسرة هي مضرب المثل في الفقر منذ عدة اجيال في بلدنا . فالقول بانني رأسمالي قول يبعث على الاستخفاف والازدراء بحق قائله لأنّه منافٍ للحقيقة والواقع .

والفقر في العقل العربي الذي يعيشه شعبنا اليوم له واحد من مصدرين . فاذا كان الفقر ناجماً عن عجز وكسل وقرب همة وتواكل فانه فقر معيب يحول بين صاحبه واحترام المجتمع . اما اذا كان الفقر ناجماً عن سخاء وانفاق وتعهّد للمحتاجين وبذل في سبيل المكرمات فانه فقر شريف يمنح صاحبه الاحترام والتبجيل . وما قول القارىء بهذا الرأسمالي الذي يصفه بعض اصحابه من حزب البعث بهذه الصفة وهو لا يملك شيئاً الاّ ديوناً عليه مقدارها مئات الألوف . ولو سأل سائل عن مصادر هذه الديون لكان الجواب سهلاً . فان رداءة المواسم الزراعية في السنوات الاخيرة لم تكن السبب الرئيسي في هذه الديون وانما كان حزب البعث ، وكانت فلسطين ، وكانت الجزائر ، وكانت المكرمات القومية والوطنية والمبرات الخيريّة هي السبب الاعظم في ذلك . وانا لا اريد التبسط في الحديث عن هذه الا مور ما دامت تتعلق بشخصي ، بل اترك الحديث عنها الى الذين قد يكتبون عن تاريخ سورية وعن منطقتنا بصورة خاصة . ولا شك في ان الذين سمعوا هذه التهمة من ابناء بلدنا ومنطقتنا ، واعني بهم الخبراء والمطلعين على ثروات المواطنين بحكم عملهم الاقتصادي ، قد قهقهوا وضحكوا كثيراً عندما سمعوا القول بانني رأسمالي . وقد اعتبروا هذا القول من باب تسمية الاشياء باضدادها ، فكما تقول العرب للملدوغ سليم او تقول للجبان شجاع احياناً فانها قد تقول للفقير : رأسمالي .

٣ — وقالوا انني قاسٍ جبار اضرب الفلاحين بالسياط فيسمع صراخهم على بعد مئة كيلومتر ، اي ما بين مزرعتي ومدينة دير الزور . والجواب على هذا جوابان . الأول ان أهل المنطقة كلهم يعرفون حسن صلاتي مع الفلاحين واني رحيم بهم شفيق عليهم واني احتمل الديون لسد عوزهم واني انزلهم من نفسي منزلة الاخوة والابناء واني حاولت

رفع مستواهم بكل وسيلة ممكنة مما كان له اثر لا ينسى في تلك البقعة من الارض السورية . وهذا أمر يشهد به كل العالمين . واذكر ان بعض الجهات الرسمية بعد انقلاب اذار عام ١٩٦٣ واستلام البعث للسلطة ، حاولت التحقيق في علاقتي مع الفلاحين فكان جواب الفلاحين هو ما قطع هذا التحقيق واسكته الى الأبد .

اما الجواب الثاني فهو انني لو حاولت جلـد الفلاحين بالسياط وخرجت عن انسانيّتي وقوميّتي وخلقي فانني لا استطيع ذلك . فالفلاح كما اشرت الى ذلك في مناسبات عديدة وفي منطقتنا خاصة ليس فرداً وانما هو قبيلة برمتها . واذا حصل اعتداء عليه او وقع غبن فان القبيلة كلّها تضع ثقلها في الميزان وتنصره وتدفع عنه الظلم والامتهان . فالواقع الاجتماعي لا يمكنني من ضرب الفلاحين فضلاً عن خلقي . وتوجيه تهمة من هذا النوع لا يأتي على اصحابهـا الا بمردود من الازدراء والاحتقار .

٤ ـ وقال بعض الشباب الحزبيين اني استغلّ نفوذ الحزب لمصلحتي. بعد الثامن من اذار ١٩٦٣ أصبح البعث دولة او على الأصح اصبح دولتين في كل من سورية والعراق فطغى نفوذ الحزب واصبح الحزب ملاذاً ومتكأً لكل لائذ ومتكيء . اما قبل ذلك فالناس تعرف ان بعض المناطق كان الحزب كله يتمتع فيها بنفوذ فرد واحد ولا عكس ، فقد يمنح الفرد قوة للحزب ولا يمتص شيئاً من نفوذ الحزب إذ ليس للحزب نفوذ الا ما يستمدّه من ذلك الفرد .

وليس هذا الاتهام الذي سردت عناصره بالأمر المهم لولا ان فئة حزبية أخرى كانت تتلقف كل ما يقال بصرف النظر عن صحة ما يقال لتقوم بعملية التشهير والتشكيك . فتلك الفئة كانت تعتبر نفسها مهددة من قبلي بمصير كالذي كنت رسمته لبعض الاعضاء في دير الزور الذين لم يعودوا صالحين للانتساب الى مثل حزب البعث يوم كان حزب البعث يعبّر عن ضمير الامّة بكاملها .

والاحداث بمفردها لا تؤلف عقدة ما لم يتراكم بعضها فوق بعض .

وقد اجتمعت أمور جعلتني مضطراً الى اعتزال الحزب ساذكر بعضاً منها مما لا ضرر من ذكره ، وهي أمور مرتبطة باحداث واتجاهات كانت تطبع تلك المرحلة . وسنذكر اولاً هذه الأمور ثم الاحداث والاتجاهات المتصلة بها :

١ - لمست وكأنما في داخل الحزب تآمر من فئات ضد فئات ومن جناح ضد جناح ، وهذا أمر لا يتفق لا مع مصلحة الحزب ولا مع مصلحة القضية القومية التي نذر الحزب نفسه لها . كما ان هناك تحالفاً من جانب فئات حزبيّة مع عناصر من خارج الحزب ضد فئات حزبيّة أخرى . وفي هذا خروج واضح على سلوك الحزب ونظامه الداخلي وتحطيم لمثله واهدافه . وكان واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار ان التماسك اصبح مفقوداً في الحزب وان أموراً يجري تبيتها في الظلام لتنقض فئة على فئة في الحزب ، مما دعا الاستاذ عفلق في اوقات كثيرة ان يقترح فصل عميد هذه التحركات اللاحزبيّة .

٢ - لقد انسجم الحزبيون مع الشيوعيين وساروا في تيارهم اللاقومي . ومضغوا الاشتراكية الماركسية ارضاء للشيوعيين وتناسوا كل حديث عن العروبة والقوميّة والوحدة العربية وتحالفوا مع الشعوبيين وساروا في ركابهم . والمراقب يومئذٍ لا يستطيع الحكم على حزب البعث بانه عربي وانما هو منظمة سياسية من المنظمات الشيوعية التي تحمل اسماء غير الاسم الشيوعي كالشبيبة الديمقراطية او انصار السلام او ما هو في معنى ذلك . وتغلب السلوك السياسي وركدت النزعات المثالية .

٣ - وتخلّق الحزبيون باخلاق الشيوعيين وتنحوا عن الخلق العربي الاصيل الذي هو التراث الثمين ، مثل الوفاء والايثار والمروءة والنخوة والنجدة والبذل وما هو قريب من هذا . ووقف هؤلاء الحزبيّون موقف العدو من كلّ مواطن لا يدين لهم او لا يسير وفق منهاجهم وسلوكهم . واستباحوا دم الخصوم من المواطنين اذا لزم الأمر ذلك . والدافع العفوي الى استباحة قتل المواطن هو القناعة بان هذا المواطن ليس من انصار الفرد الحزبي لا اليوم ولا في المستقبل ، فالتخلص منه تخفيف للاعباء

عن كاهل الحزبيين . اما الذين يتملكهم الأمل والتفاؤل وبان مصير هذا المواطن النهائي سيكون مع تيار الحزب القومي فانه لا يسمح سفك دم المواطن او التفريط به .

ويمكن ان يوصف موقف الحزبيين من المواطنين مثل موقفهم من الاجانب اعداء الأمّة العربيّة . والمفروض في الانسان الذي يتمتع بكافة الخصائص الانسانية ان يكون رحيماً حتى بالاعداء فضلاً عن كونه رحيماً بابناء امّته ووطنه . وهذا سلوك قد شق الحزب شقّين لا من ناحية الفلسفة الحزبيّة ولكن من ناحية الخلق والسلوك .

٤ ـ وسلك الحزبيون مسالك المحاور القومية فتحالفوا مع دول عربية ضد دول عربيّة أخرى . وما قول القارىء بحلف يقوم بين جماعة اشتراكية وبين دولة يصفها هؤلاء الجماعة بانها بؤرة الرجعيّة والتخلّف ومرتع الرأسمالية العربيّة ، ويجر الحلف الى تعاون واتفاق في بعض الامور السياسية المحليّة ، كانتخاب رئيس الجمهوريّة او علاقة مع دولة عربيّة أخرى لا تتمتع بعطف تلك الدولة وما يشبه ذلك من سلوك .

وما قول القارىء بحلف يقوم بين الاشتراكيين وبين زعماء القبائل وكبار ملاك الارض في مجلس النواب لتحقيق اغراض معينة .

نحن نتمتع بثقة زعماء القبائل العربيّة وبصداقتها غير المحدودة . وفي العلاقة الشخصيّة تقوم بيننا كما يقول المثل (وحدة حال) . ولكنا لم نكن نربط هذه العلاقة بالامور السياسيّة . وعندما كنّا في مجلس النواب كان زعماء القبائل يقفون منّا موقف الخصم ونحن نقف منهم كذلك موقف الخصم في الامور السياسيّة ، وعندما تنتهي المواقف الرسمية المبدئيّة فان صلاتنا مستمرة على ما هي عليه من القوّة .

والحزبيون النافذون ولا سيما النواب منهم لم يعودوا يتقيدون بمثل هذه الاساليب . وقد تجمعت قوى كثيرة مختلفة المشارب والنزعات فتحالف البعثيون معها ومع حلفائها من العرب خارج سورية وعلى الاخص السعودية ومن بعدها مصر .

ومن هنا يمكن القول ان حزب البعث قد « تدوّل » ولم يعد ملك

أهله في داخل الوطن ، وان تحركاته تتأثر كثيراً او قليلاً باطراف تلك الاحلاف الداخلية او الخارجيّة التي لمحنا الى كثير من عناصرها .

وكان البعث يسير في طريق مسدود ، والذي يقيس الافعال على برنامج الحزب فانّه لا يجد علاقة ولا صلة بينهما . وكأنما هنالك يد خفيّة تزين للبعث مثل هذا السلوك لتنصبّ عليه النقمة وتستطيع تلك اليد بعد ذلك ان تنهي وجوده .

وتراكمت الحوادث واثقل بعضها بعضاً في نفسي . كما لمست ان هناك مناخاً مصطنعاً قصد به تنفيري وابعادي عن الحزب . فانا معروف الاتجاه والخلق والاسلوب ، وفي الامكان السلوك ضد هذا الاتجاه والخلق والسلوك لايجاد الهوّة والخلاف تمهيداً ليوم حاسم .

وعدت الى الاصدقاء الاولين من زملاء التأسيس وشرحت لهم ما هو كائن وما هو مخالف لابسط قواعد الحزب القومية ، وكيف انهم قد ارتموا في احضان الوجاهة والزعامات التقليديّة ومالوا الى نوع من المحالفات العربيّة والاجنبيّة التي لا تخدم الحزب ولا الأمّة ، فلم اجد عندهم اي استعداد للقيام بعمل يعيد الحزب الى حقيقته واصالته ووجدتهم كالمستخزي المغلوب على أمره . وايقنت ان الحزب يندفع في طريق مرسوم له ولا بد له أن يبلغ نهايته . ولا بد للذي يريد صون مواقفه والحفاظ على انسجامية السلوكية ان يكون بعيداً عن الحزب .

وأعملت الفكر طويلاً لعلي أجد مخرجاً فلم أجد الا مخرجاً واحداً هو السلامة بنفسي . ومن لم يستطع انقاذ المنظمة كلها فلا أقل من أن ينجو بنفسه ، فقررت اتخاذ الاجراء اللازم رغم المرارة التي اشعر بها من جرّاء ما أنوي عمله . ولكن هكذا قدّمت الى الاستاذ ميشيل عفلق بصفته الامين العام للحزب الكتاب التالي :

« دمشق في ٢١ آب ١٩٥٥

الى حزب البعث العربي الاشتراكي بواسطة :
حضرة الامين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي الموقر .

ظهرت بوادر خلاف بيني وبينكم في وجهات النظر ، في ما يتعلّق بالقضايا القوميّة والاجتماعية والخلقية ، ولمّا لم استطع تصحيح الخطى وفقاً لارائي ومعتقداتي فاني لم أجد بدّاً من الانسحاب من الحزب . وآمل أن تبقى علاقات الودّ قائمة بيننا رغم الانسحاب .

تعلمون يا حضرة الامين اني ضحّيت بكل شيء في سبيل صنع الحزب ورعايته فلمّا شبّ الحزب وترعرع تبيّن لي انه اتى على غير الصورة التي رسمتها وعلى غير المثال الذي مثلته في خاطري .

ان انساناً متجاوباً مع حاجات امته مرهف الحسّ يستطيع ان يتصوّر ما يعتلج في نفسي من حرق الآلام لهذا الانسحاب . ولكن القدر لا يغالب .

وختاماً ارجو ان يسدد الله خطاكم ويلهمكم من أمره رشداً والسلام عليكم .

جلال السيد » .

ولا أظنني بحاجة الى شرح هذا المتن وتفصيل هذا الموجز من الكتاب المعلن عن استقالتي او انسحابي من الحزب . فقد ورد في فصول سابقة من الاشارات ما يكفي القارىء من معلومات يريد الحصول عليها .

ولست اريد أن ابني بطولتي على أكتاف رفاقي او على أكتاف اي مواطن ، فالتبجح والفخر لا يكونان الاّ من حساب الآخرين .

ولا شك في أن هذه الرسالة المختصرة تنمّ عن أمور كثيرة . فهناك خلاف في النظرة القوميّة والاجتماعيّة والخلقيّة . واذا لم يكن اتفاق في الحزب حول هذه الامور فان ذلك يعني ان الانسجام مفقود والتجانس معدوم ولا سبيل الى العمل المشترك ما دام هناك طرق متعدّدة وكل طريق تسير فيه فئة من فئات الحزب .

وقد طلب الي الصديق عفلق أن أعده بان لا اقف ضد الحزب ولا أعمل ما يقف في طريقه . فوعدته بذلك وكنت أنا متخذاً مثل هذا القرار من غير تكليف من أحد . فليس من طبعي ان اتفرغ لمقارعة

اصدقاء الأمس أشنّع عليهم واشهّر بهم وكنت قبل يوم واحد من هذا التاريخ على خير حال معهم .

واني اعتبر من التناقض الانقضاض عليهم ومهاجمتهم . فطويت الكشح على مستكنة وصبرت رغم ما لقيته من عنت من بعض الحزبيين الذين اشاعوا فصلي وابعادي عن الحزب ونفوا انسحابي .

فقد اشاع بعض المغرضين ان الحزب هو الذي اتخذ قراراً بفصلي . ولكني لم اهتم بهذا اذ الأمر عندي سواء . فانا انسحبت من الحزب لأنّه لم يعد مناخاً صالحاً لي فانسحابي وفصلي سيان في منطق الواقع ، لكن هؤلاء المغرضين اعتبروا الفصل انكى من الانسحاب . وفي الحقيقة ان تهيئة الجو لانسحابي هو مثل فصلي . وانا قد تمثلت بقول المتنبي في هذا المعنى :

اذا ترحّلت عن قوم وقد قدروا

ان لا تفارقهم فالراحلون هُمُ .

وبعدما سلّمت كتاب الانسحاب الى السيّد عفلق غادرت الى لبنان حيث كنّا نقيم في قرية قرب شتورا لاسباب صحيّة . وما كدت استقرّ هناك حتى فوجئت بالسيد عفلق يلحق بي . وظنّ الناس انه انما لحق بي ليقنعني بسحب كتاب استقالتي . ولم يكن أحد يدري انه لحق بي ليقول لي أن اصرّ على الانسحاب . وقد قال لي انّا جميعاً سنفعل مثلما فعلت ونترك الحزب بعد تجميع العناصر الصالحة ونخرج بها جميعاً وسوف نترك الحزب لهؤلاء الذين انحرفوا عن اهدافه . واتبع ذلك قائلاً : نحن بعد الآن لا نعارض في استلامك منصباً رفيعاً في الدولة بعدما أعلنت انسحابك من الحزب . فقلت له ليس هذا الأمر موضوع بحث اليوم ولكل حادث حديث . وانا لم افكر في شيء من هذا . فقال : انا أعلم ذلك ولكني اقول لك هذا من أجل المستقبل ، فالقيود زالت عنك ولك حرية التصرّف اذاً .

موفد القوتلي

بعد يومين من هذا الحادث جاءنا الى لبنان المرحوم السيد محمد

العايش وقال لي : انا موفد من قبل فخامة الرئيس شكري القوتلي . وهو يهديك السلام ويقول لك انّه يدعوك لاستلام المنصب الوزاري الذي تريده . وهو يعلم بعدك عن المناصب ولكنه يريد ان يثبت لرفاقك القدامى انك انت ذو منزلة محترمة بهم وبدونهم ، ويرجوك ان لا ترفض هذا العرض . وانا اضمّ صوتي الى صوته وارجو تلبية التكليف . فقلت له ، اشكر الرئيس على هذه الثقة واشكرك انت ايضاً على تجشّمك مشاق السفر . وانا سأحضر الى دمشق خلال اسبوع واتصل بكم ان شاء الله وسوف نعمل على تنفيذ رغباتكم جميعاً باذن الله .

وغادر السيد العايش لبنان عائداً الى دمشق . فقال لي الاصدقاء الذين استمعوا الى رسالة القوتلي : ما عليك الاّ الاستجابة ما دام الرجل اهتمّ هذا الاهتمام وانه ليس عليك من بأس اذا قبلت هذه المهمة فهي التي سعت اليك وانت لم تسع اليها . فقلت لهم ، هل تعلمون ماذا سيقول السفهاء من الناس أهل الغرض ؟ قالوا : لا . قلت : انهم سيشيعون ان الانسحاب من الحزب قد تمّ بناء على بحث سابق مع الرئيس القوتلي وعلى وعد بالوزارة . فالوزارة عندهم مضمونة قبل الانسحاب . وهي لم تأتِ بعد الانسحاب عفواً . لذلك فانا سأرفض التكليف . وقد رفضت ذلك ، فلم أذهب الى دمشق في الموعد المتفق عليه ولم اتصل بأحد . ولما تساءل السيد العايش باسم القوتلي قلت له اننا قيد المعالجة ولن نفرغ الاّ بعد مضي وقت طويل . ففهم ان هذا ما هو الاّ ذريعة وسبب لعدم تلبية الطلب .

وعجبت من توارد الخاطر بين الاستاذ عفلق الذي ذكر المنصب الرفيع وبين تكليف القوتلي في دخول الوزارة وحاولت أن أجد الرابط بين الحديثين ولكني لم أجد فعزوت ذلك الى ما قد يسمى « توارد الخواطر » او الحدس من جانب السيد عفلق .

هنا انتهى وجودي في حزب البعث العربي . وانا طبعاً لم أكتب الاّ ما يسمح به الذوق السليم وما لا تحظره امانة المجالس الخاصة . كما انني ابتعدت عن الطعن في الذين يختلفون معي بالاراء واعطيت لكلٍ

حقّه في ان يجتهد كما يريد . وليس من المحتّم ان يكون مخالفي في الرأي هو المخطىء بل قد يكون مصيباً وقد يظهر لي وجه هذا الصواب . وقد حاولت ان ابرز الاحداث ذات الأثر في مصير الحزب مع شرح الاهداف والمقاصد البعيدة .

فانا بعد انسحابي من الحزب لم أعد من صانعي احداثه ولست مطلعاً على الامور من داخلها . وانا انما اصبحت مراقباً انظر الى الاحداث كما يراهاالناس الآخرون . ولذلك تختلف لهجتي في الكتابة عن الحزب بعد انسحابي عن اللهجة التي كنت استعملها وانا من انا في الحزب . وسوف اجتاز بعض المساجلات والمناقشات التي قامت بيني وبين بعض الصحف الشعوبيّة والشيوعيّة وكيف كنت ارد عليها بما تستحق ، فذلك شيء لا يتعلق بالحزب وانا قصرت هذا الكتاب على الحزب وما يتصل بهمن الأمور والاحداث وان تلك المساجلات تخصّني وحدي .

ذيول الانسحاب

جاءت وفود عديدة من الحزبيين من كل الفروع تقريباً تطلب الايضاح عن الاسباب الدافعة الى هذا الانسحاب . وكان الكثير منها يعرب عن تصميمه على القيام بعمل مشابه . وكان من فرع لبنان عدد كبير . دعك عن المنطقة الشرقية في سورية ومن فرع الأردن . وكنت أجيبهم : ان الانسحاب لا يدل على فقدان الايمان بالحزب ومبادئه واهدافه بل قد يمكن ان يكون العكس هو الصحيح ، بمعنى ان الانسحاب هو وجه من وجوه التمسك بالحزب والحرص على كيانه العام . لكن الانسحاب كان نتيجة لضعف الانسجام بيني وبين بعض الاعضاء في القيادة . وانا بعملية الانسحاب كأنما اعطي الآخرين فرصة لتجربـــة سلوكهم فلعله يكون هو السلوك الناجح الذي يخدم الحزب والأمّة بعد ذلك . وانا غير غاضب ولا ناقم والعمليّة لم تتم بنتيجة انفعال او هيجان عاطفي وانما تمت بملء العقل وعمق الدرس .

وان الخلاف بيني وبين الآخرين يمكن ان يعزى الى تباين في الاجتهاد واختلاف في وجهات النظر . فانا لذلك اطلب من جميع الاعضاء ان لا يقتدوا بي فلا ينسحب احد منهم بل عليهم ان يتمّوا مسيرتهم داخل الحزب ، فلعلّ المستقبل يكشف عن امكانات جديدة واسلوب جديد .

لكن هذه الموعظة لم تستقر على شيء عملي . فان كثيراً من الاعضاء قد انفصلوا نفسياً عن الحزب ولو لم يقدموا كتباً بالانسحاب منه وجمدوا اعمالهم ونشاطاتهم في الحزب ، ومع مرور الزمن ظهر انهم قد انسحبوا بالتدريج لا بالسرعة واصبحوا بعد ذلك خارج الحزب . ويمكن القول ان الفئة الرصينة ذات الوجود الاجتماعي في المناطق الشرقية قد اصبحت كلّها مع الزمن خارج الحزب مما سبّب تدفق العناصر الأخرى الى الحزب سدّاً للفراغ .

لكن بعض هذه الوفود لم يقف عند هذا الحدّ بل انه جاء محتجّاً وساخطاً على الأسلوب نفسه ، فهو يرى أن ألجأ الى المنهج الايجابي بدل المنهج السلبي . وكان عليّ ان اعلن احتفاظي باسم البعث وان اصدر بياناً بفصل الآخرين بدلاً من الانسحاب . وقالوا لي ان جمهرة الاعضاء غير العاملين في ميدان السياسة من الحزبيين سوف يعلنون تأييدهم لك ، فهم نافرون من الأساليب التي يمارسها الحزب رسمياً اليوم .

ومع ما في هذا الرأي من وجاهة فانّه غير ناجح ولا مجد أن أطبق ما يرمي اليه . اذ الذي تدل عليه البوادر والدلائل ان هناك مخططاً خارجياً ينوي ان يسير بالحزب الى نهايته . فالحزب لو حقّق اهدافه واستمرّ في خطته الاولى وعمل على لمّ الشعث العربي فان ذلك سيهدّد مصالح الكثير من القوى المعادية للأمّة العربيّة ، فيجب في نظر تلك القوى اجهاض هذا الحزب ووأده قبل أن يكتمل نموّه .

وهذه المخططات اقوى منّي واقوى من الذين استمرّوا في الحزب . وانا لا استطيع ان احول دون تنفيذ ذلك المخطّط ، لذلك لم أجنح الى هذه الخطّة التي تقترحونها والاّ لكان الانحراف والانزلاق والابتعاد عن حقيقة الحزب كلّها تمّ بوجودي وبالرغم عنّي . ولذلك فانّي

لم أجد فائدة من الدخول في مماحكات وتحدّيات وتضارب في الرأي بين فئات الحزب المناصرة والمخاصمة . وقد وجدت أسلم طريق هو هذا الطريق ، اي الانسحاب واعطاء الفرصة الى مسيري الحزب ليكملوا تجربتهم التي اتمنّى ان تكون ناجحة وان يكون تقديري للامور ولحساب النتائج تقديراً خاطئاً . ومع ذلك فما يزال اللوم يحتل عقول الكثيرين من انسحابي ، واذا لم تقدم طلبات انسحاب على نطاق واسع فان الذي لا شك فيه والذي تدل عليه الاحصاءات هو ان المدّ البعثي قدتوقّف وركد . وان المناطق الشرقيّة من سورية التي كانت بعثيّة التكوين والتي كان من المتوقّع انتسابها الرسمي الى الحزب قد خالطها اليأس وحلّ فيها النفور فازورت عن الحزب ولم تعد ترتبط به نفسيّاً فضلاً عن كونها لم تكن مرتبطة به رسميّاً .

وفي لبنان واجه الحزب ركوداً ايضاً . والشبان في لبنان كما قالوا لي قد انتسبوا الى حزب البعث وهم لا يعرفون أحداً من قادة البعث الاّ قليلاً منهم ، ولكنهم كانوا مشدودين الى مبادىء الحزب ومعجبين به من مواقف يرونها واصوات قوميّة يسمعونها في مجلس النواب السوري . واذا كانت هذه الاصوات هي التي انسحبت من الحزب فماذا يعني هذا الاّ خللاً جسيما اصاب الحزب في صميمه .

ومرّت فترة طويلة لم يعد الحزب فيها موضع عناية الجماهير . وجاء عهد الوحدة المصريّة السوريّة ولما يمض على انسحابي أكثر من ثلاث سنوات يوم أجهز الحزب على نفسه وانحلّ بقرار من القيادة .

اما في سائر الفروع فان الحزب في الاصل كان بطيء الخطى وظل بطيئها بعد ذلك . لكن افراداً من الحزبيين كانوا يدرسون في الجامعات الاوروبيّة قد استمرّوا في حزبيّتهم تعبيراً عن نشاطهم الاجتماعي الى أن أنهوا دراساتهم وعادوا الى الاوطان فاصيبوا بخيبة أمل من واقع الحزب الذي لم يكن صداه الخارجي معبّراً عن واقعه . فكان هناك تباعد بين مثالية الحزب التي يعيشونها في العالم الخارجي وبين السلوك الرسمي للحزب في ذوبانه الواضح في سبلٍ واتجاهات غريبة عنه .

ولا بدّ هنا من ذكر شيء آخر لعلاقته بحزب البعث . ذلك اني ظللت اميناً على كيان الحزب فلم اتصدّ له بطعن او تجريح . واذا صدر منّي بعض الملاحظات فانما كانت تنصبّ على الاشخاص لا على مبادىء الحزب . فمبادىء الحزب من صنعنا ولسنا نحن من صنعها . وايماننا بمراميها هو الذي أخرجها الى الوجود نظاماً ونحن لم ننضوِ تحت لوائها انضواء وانما هي ذاتها رشحت من نفوسنا وافكارنا . فلا غرابة اذا كنت حريصاً عليها . وكل ما كنت افعله في مثل هذه المواقف انني اشرح للسامعين مبادىء الحزب المسطورة في دستوره واقارن بينها وبين التطبيق العملي . وكنت اضرب لهم مثلاً على الدقّة في اصطفاء الاعضاء وتعرضهم عند انتسابهم الى مختلف « الامتحانات » والتزكيات .

يوم كان الحزب حريصاً على النوعية الصالحة والمعدن النفيس ويوم كان يعنى بالكيفيّة دون الكميّة ، اضرب لهم مثلاً في ان أحد شيوخ القبائل المعروف بحسن خلقه واستقامة سلوكه وتوافر الخلق العربي فيه قد قدّم اليّ طلباً للانتساب الى الحزب فرفضت قبوله لا لشيء الاّ لأنّه شيخ قبيلة . وقد تتعارض مصلحة قبيلته مع نظام البعث ولو موقتاً . فماذا يكون موقفه عندئذٍ ؟ هل ينحاز الى الحزب وبذلك يخسر مركزه ونيابته ووجوده السياسيّ والاجتماعي والحزب يومئذٍ لا يستطيع التعويض عليه بشيء مما يفقده ، ام يسير مع قبيلته ويخرجَ على الحزب . لكن هذه المواعظ لم تثنه عن عزمه فقدّم الطلب في دمشق وقبل . هذا الى جانب ما حدث من فتح باب الحزب على مصراعيه ليدخل فيه ما هبّ ودبّ واعتبار العدد هو الأصل في بنيان الحزب . الى جانب امثلة كثيرة لا مجال لسردها . وموقفي هذا هو في حقيقته دفاع عن الحزب وليس هجوماً عليه او تجريحاً او طعناً فيه .

تيارات واحداث جرفت الحزب عن مثاليته الاولى

ذكرنا الاسباب المباشرة التي ادّت الى استقالتي من حزب البعث

العربي الاشتراكي وهي متصلة ، كما بيّنا ، بما لمست من انحرافات طرأت على الحزب وحرفته عن مثاليته الاولى . وقد ذكرت ان هذه الاسباب متصلة بتيارات واحداث كانت تتنازع الحزب في تلك الفترة . واني احاول هنا سرد تلك الاحداث والتعرض لتلك التيارات المعاصرة لأزمة الحزب وتصدّعه :

(أ) البعث والمدّ الشيوعي

بعض الامجاد التي حصل عليها حزب البعث في انطلاقته الاولى كانت من مقاومته للشيوعيين وتصديه لهم في مناسبات عديدة . لكن الحزب لم يستمر في هذا الاسلوب بل انه تعرّض لبعض التعرّجات فكان طوراً يقترب من الشيوعيين الى حد التحالف الكامل معهم ، وطوراً يبتعد عنهم الى حد الصراع المسلح .

والايحاء لم يكن تلقائياً وانما كان من اماكن بعيدة أخرى . وهو ايحاء ذو اثر وكان يتفق مع مصلحة الحزب في نظر قيادة الحزب .

فالدول الشيوعية ليس لها مكان في بلاد العرب التي للحزب فيها وجود ونفوذ . وانما المكان للدول الغربية سابقاً . والدول الشيوعية تريد لها اصدقاء . والاصدقاء لا بدّ ان يكونوا من بين المعارضين . وهكذا دلّت الشيوعيين بصيرتهم الى انه يجب ايجاد مناخ صالح بينهم وبين البعثيين للتعاون ضد الغربيين وضد الحكّام الموالين لهم .

ومن هنا كانت بداية الخطوات والانطلاق . واصبح هناك شيء من التعاطف بين حزب البعث والشيوعية الدولية . ومن جهة أخرى فان للتعاطف البعثي الشيوعي اسباباً لا بد من ايرادها في هذا المقام . فقد تسلل الى حزب البعث عدد من الشيوعيين لم يتخلوا عن شيوعيّتهم الاّ ظاهراً ولم ينتسبوا الى حزب البعث الاّ للحصول على مكاسب حزبيّة للشيوعيّة والاّ لنخر حزب البعث من داخله وتوجيهه توجيهاً هو في مصلحة الشيوعيّة . واذكر بهذه المناسبة قصة جرت في العراق ، فقد دخل

الى المعتقل على عهد الحكم الملكي ثلاثة وعشرون شاباً ، منهم ثلاثة بعثيين وعشرون شيوعياً . وبعد عدّة اشهر افرج عن هؤلاء فخرجوا جميعاً بعثيين . وليست هذه معجزة بعثيّة تمكّنوا بها من سحر الشيوعيين وادخالهم حزب البعث . لكنّها مكيدة من بعض هؤلاء على الأقلّ ان لم تكن منهم جميعاً . والمراقب يرى آثار النفوذ الشيوعي اليوم في ثنايا حزب البعث .

في منتصف الخمسينات من هذا القرن حدث ما يمكن تسميته بالمدّ الشيوعي في القطر السوري . فقد انتشر التفكير الشيوعي واصبح الفرد يزهو ويفخر اذا نسب الى الشيوعية ولم يعد يستحي من هذه التهمة او يأنف كما كان الحال قبل اعوام خلت ... وحانت الفرصة لسحق ما يسمونه باليمين ، كما المحت الى هذا في فصل سابق ، وجرت محاكمات من قبل محكمة عسكريّة خاصة يرئسها ضابط شيوعي ، فنكّلت المحكمة بهؤلاء المتهمين تنكيلاً مادياً ومعنوياً اذ لقوا الاهانات والسخرية من جانب رئيس المحكمة كما صدر حكم على عدد منهم بالاعدام ، لكن الحكم لم ينفذ لاسباب خلقتها ظروف طارئة اذ تمّ الافراج عن هؤلاء المحكومين على عهد الوحدة السورية المصريّة .

في هذا الظرف قام تحالف واقعي بين حزب البعث وبين الشيوعيين فساعد هذا التحالف على تسهيل مهمة المدّ الشيوعي . والمواطنون في اول الأمر على مختلف مشاربهم لم يكونوا مرتاعين من هذا المدّ ، ولهذا اسباب عديدة لا بدّ من ذكر أهمها :

١ ــ ان الاساءات الّتي ارتكبها الغرب بما في ذلك اميركا ضد العرب ، وان الدعم الكامل وغير المتحفّظ لاسرائيل الذي منحه الغرب لها ، وان محاولات الدول الغربيّة واصرارها في استمرار على استعمار بعض البلدان العربيّة كما كانت فرنسا تفعل في المغرب العربي وكما كانت تفعل بريطانيا في الخليج وعمان وعدن وغيرها ، وان الموقف غير الودي الذي تقفه تلك الدول من العرب في قضاياهم جملة ، كل هذا قد زرع النقمة والاحقاد في نفوس العرب . والعرب اذاً يتحينون الفرص للتشفي

من الغرب . ولاحت الفرصة اذ ان الاتحاد السوفياتي قد نفذ الى هذه المناطق واصبح ينافس الغرب الى حدّ . فانضمّ العرب الى خصم الغرب وهو الاتحاد السوفياتي والدول الشرقيّة انضماماً عفوياً وارادياً نكاية بهذا الغرب الظالم المعادي لكل القضايا العربيّة . ومن هنا فان المرء عندما يعلن تأييده للشرق فكأنما هو يؤدي خدمة قوميّة او وطنيّة اذ هو يعتبر نفسه قد انتقم لشرفه وكرامة امته بان ازعج الغرب وقوّى جبهة الخصم عليه .

٢ ــ ان المخطط الاجنبي الصهيوني ونصيره الامبريالي يهدفان الى تحقيق الخلخلة والارتجاج والتخبّط والاضطراب في الوجود العربي كلّه .

وهذا المخطّط هو الذي سهل للنفوذ الشرقي الدخول في هذه الاقطار العربيّة قصد أن يقسم الناس قسمين ويجعلهم معسكرين لا يلتقيان .

ويصطرع المعسكران ويصرفان كل ما لديهما من قوى أحدهما ضد الآخر حتى لا تبقى اية فضلات من هذه القوى يمكن استعمالها ضد اسرائيل . والغرب واثق من ان هذا المدّ الشيوعي لا يستطيع ان يضرب في جذوره الى الاعماق ، فسيظلّ على السطوح نظراً لما بين البنيان العربي النفسي والعقائدي وبين الشيوعية من تعارض واختلاف ، وان الغرب يستطيع ان يقتلع هذا المدّ حينما يريد اقتلاعه بعدما يستنفذ اغراضه منه . وما جرى في مصر حينما طردت الخبراء الروس هو شاهد حيّ على ما اقول . لكن المواطنين شعروا بعدما اعتبروا غليلهم قد شفي من الغرب بان هذا المدّ خطير على دينهم وقوميّتهم وتراثهم فعمدوا الى التخلّي عنه وطرده من الساحة الفكريّة والنفسيّة لدى الانسان العربي الذي دهمه هذا المدّ .

ويمكن التأكيد على ان الانتماء للشيوعية قد كان زينة وحلية لدى الشبان ، فالمناخ أصبح يقبله ولا يشمئز منه . واستغلت هذا المناخ صحف شيوعية وشعوبية فهاجمت كرام القوميين فهوى الضعفاء منهم تحت ضربات تلك الصحف ، ومن كان قوياً واثقاً بنفسه فانه قد رد الضربة

ضربات الى هذه الصحف وفضح اصحابها فظل في الميدان طوداً لا يتزعزع الى ان انكفأت عنه تلك القوى بعدما ايقنت انها كناطح صخرة يوماً ليوهنها .

كلّ هذا يجري والبعثيون من وراء تلك الصحف ، فهي حليفهم وهي الناطقة باسمهم في كثير من الاحوال . وقد ساعد على خلق مثل هذا المناخ الخدر الذي اصاب الشعار القومي في جماعة حزب البعث العربي فان الشعار الاشتراكي قد أضحى هو الوحيد في الميدان من شعارات الحزب . فالوحدة والحريّة لم يعد لهما ذكر واحتلّت الاشتراكيّة على مختلف دلالاتها . احتلت الساحة وكأنما القطر من الدول الشيوعيّة . وانتشرت الكتب الباحثة في الشيوعية ووزعت على الناس بالمجان وأصبح انصاف المثقفين وحتى الجهّال يعرفون عن ماركس ولينين والحركة الشيوعيّة أكثر مما يعرفون عن الحركة العربيّة وزعمائها وقادة نهضتها وأكثر مما يعرفون عن الاسلام واهدافه .

ولا شك في ان الشيوعيين قد أثروا في عقلية الحزبيين وجعلوهم في الواقع تحت تأثيرهم المعنوي . والشيوعيون كما هو شائع لا يتنفّسون برئتهم بل برئة غيرهم ولا يشمون بانافهم بل باناف الآخرين من القوى التي يتعاملون معها . بينما البعثيون ليسوا كذلك . وهذا جعل البعثيين كمن يشعرون بعجز امام القوة الشيوعية المدعومة دولياً .

على ان هذا يظهر جلياً في السلوك الفردي العام ، فان كثيراً منه وكثيراً من الشيم والاخلاق متوافقة في ما بين الشيوعيين وبين البعثيين الذين تأقلموا في المناخ الحزبي الجديد . فانت لا ترى مثلاً اثار النوازع العربية والاعراف العربية ، لا ترى ذلك لا في البعثيين المحدثين ولا في الشيوعيين . وبات التصافي والتوافق كاملين اليوم بين حزب البعث العربي في مناخه الجديد وبين الشيوعية .

ونزل في ذلك الحين الى الميدان العربي اولاً ثم الى الميدان الدولي المرحوم الرئيس جمال عبد الناصر الذي لم يلبث ان تحالف هو الآخر مع الموجة الشيوعية ، بل قل انه هو الذي فتح لها الباب للتغلغل في هذه

البلاد . فكان اذاً حليفاً طبيعياً لحزب البعث في هذه الخطّة .

وكما كان الناس في عهد الانتداب الافرنسي ينقسمون الى فئتين ، فئة الوطنيين وفئة الموالين لفرنسا وكان الوطنيون يعتزون بهذا الاسم ويفخرون به ، فان الناس قد انقسموا فئتين ، فئة الشرق وفئة الغرب . وفئة الشرق في عرف ذلك الزمان هي الفئة الوطنية اما فئة الغرب فهي « العميلة الخائنة الرجعية المستغلّة » ، لكن من هي فئة الغرب ؟ ليس للغرب هوية محدودة المعالم او معروفة الصفات والسمات . وانما كل الفئات التي لا تدين للشرق بالولاء والتأييد او العقيدة هي فئات غربيّة تنطبق عليها كل التهم التي سردناها . والبعث قد حمل وزر هذا التوجيه كما حمله الشيوعيون وباسلوب أكثر تطرفاً وعناداً .

(ب) المد اليساري

في هذه المرحلة من تاريخ الحزب كان نجم المرحوم جمال عبد الناصر يتألق ونفوذه يزداد . وكان السفير المصري في دمشق يتمتع بمنزلة خاصة من بين السفراء العرب والاجانب ولا يضاهيه في ذلك الاّ سفير المملكة العربية السعودية . وكان الحلف قائماً بين مصر والسعودية حول أمر واحد هو منع اية وحدة او اتحاد او تقارب بين سورية والعراق .

وحزب البعث انضمّ الى هذا التحالف وساهم في ميدانه . وقد صنع له في سورية حلفاء جدداً لهم المشارب نفسها . وهؤلاء الحلفاء هم أقصى اليسار واعني الشيوعيين ، وأقصى اليمين واعني خالد العظم . وسار الجميع في ركاب مصر والسعوديّة . وكان الخطّ البياني قد بدأ يتعرّج ، فالنفوذ الغربي هبط بعض الشيء ليحلّ محلّه النفوذ الشرقي . والنفوذ الشرقي وعد بعض كبار الاقطاعيين بمساعدته ليكون رئيساً للجمهوريّة ، فبدل هذا الاقطاعي ثوبه وسار في دروب الاشتراكيّة وحالف البعث . والصراع بين مصر والعراق على سورية هو صراع تاريخي تمتد جذوره الى عدّة قرون خلت ، كما ان السعودية حريصة على

اقصاء سورية عن العراق لدوافع اسروية اشرنا اليها في ما مضى .

وبرزت في هذه الآونة صفة الاشتراكية على الحزب واختفت الصفة القومية . وفي الحزب فئات عديدة كل منها يميل الى تفضيل شعار واحد على الشعارات الأخرى . وان بروز جناح العربي الاشتراكي من الحزب في هذه المرحلة يعني بروز الشعار الاشتراكي ، واشتدت الاتصالات الجانبية بين كثير من الحزبيين ، قياديين واعضاء ، مع ممثلي الدول الشرقيّة الشيوعيّة وازداد التعاطف والميل الى تمتين الصداقة بينهم .

وتمتاز هذه الفترة بنشاط ما يسمّى « اليسار » . فقد قامت جبهة في البلد من البعثيين والشيوعيين وكان معهم – ولو من خارج اليسار – انصار مصر والسعودية . والجبهة لم تكن رسميّة ولكنّها وديّة . وعندما اغتيل المرحوم عدنان المالكي على يد شاب من السوريين القوميين استغلّت الجبهة الحادث فقامت بمحاولة تصفية ذلك الحزب . وادعى البعثيّون ان المرحوم عدنان منهم وان قتله كان يقصد به التشفّي من الحزب . والشيوعيون هم اعداء طبيعيون للسوريين القوميين فنفخوا في النار واستعدوا السلطات على القوميين فكان من الأمر ما كان . والحقيقة ان المالكي لم يكن حزبياً وانما كان صديقاً لبعض الحزبيين على الصعيد الشخصي ، ولكن الحزبيين كانوا يتوسّمون فيه الخير ويرغبون في انتسابه الى الحزب .

وبعد اغتيال المالكي وبامتداد الموجة ذاتها قامت محاكمة بعض اليمينيين وشيوخ القبائل بتهمة تدبير مؤامرة مع حكومة العراق لقلب نظام الحكم في سورية . وكان القصد من كل ذلك اثبات سيطرة « اليسار » ثم تعقّب اليمين اينما كان واجتثاثه من الاعماق . واعطى بعض من يسمّون باليمين الفرصة لليسار وادانوا هم انفسهم فجرأوا اولئك على ادانتهم .

وكنت تلمس في هذه الفترة اختفاء الفكرة القومية من حزب البعث العربي ونشاط الشعار الاشتراكي ، وهو شعار غامض متعدّد المفاهيم

مختلف الدلالات، وقد استفاد الشيوعيون من هذا الغموض ومن تضعضع اليمين وانهزامه امام هذه الموجة اليساريّة فامعنوا فيهم نقداً وتجريحاً وهم لا يحركون ساكناً ، مما القى في روع الكثير من الناس ان هؤلاء اليمينيين هم مجرمون حقاً ، ومتآمرون على الوطن وعلى سلامة البلاد .

وكان من دلائل المدّ اليساري ان سورية قد لبّت الدعوة الى مؤتمر جاكارتا الذي أصبح في ما بعد مؤتمر « باندونغ » . وتحمّست له ونشطت فكانت من اعضاء المؤتمر البارزين . والمؤتمر هو المؤتمر الذي يضمّ دول عدم الانحياز . وهو في حقيقته مؤتمر انحياز لا مؤتمر عدم انحياز . ولكنه انحياز نحو الشرق . وهذا في عرفهم لا يعد انحيازاً وانما الانحياز هو للدول الغربيّة وحدها .

وأي انحياز أكبر من مؤتمر يحضره اساطين الدول الشيوعيّة . وانتشرت في الجو نغمات لا تدلّ على شيء الاّ على محاولة تركيز بعض المفاهيم في اذهان الشعب . فكثُر التغني بالمؤتمر واهدافه وساهمت الصحف في تمجيده حتى عدّ من الاهداف القوميّة . والدعاية تفقد اثرها اذا لم تكن مرتكزة على شيء من الحقائق اما اذا كانت تدجيلاً صرفاً ، فان مفعولها السريع يزول بالسرعة ذاتها . والدعاية العربيّة جملة هزيلة تمجّها النفوس . الم ترَ في يوم من الايام ان الدعاية الرسميّة قالت : القوميّة العربيّة تعني الحياد الايجابي ؟ فما هي العلاقة بين الأمرين . فالحياد الايجابي سلوك سياسي معين تسير الدولة عليه ما دام يحقّق مصلحتها ، وقد تتحقّق مصلحتها في الانحياز والتحالف مع الآخرين فتسلكهما . والم ترَ ان القوميّة العربيّة كانت تعني في ظرف آخر من الظروف العربيّة تأميم القناة . والمراقبون الاجانب لا يستطيعون الربط بين هذه المقولات . فالقومية العربيّة شيء وجنوح الدولة الى تأميم مرفق يحق لها تأميمه بموجب الاتفاقية ذاتها هو شيء آخر ليس على صعيد ذاك ولا هو في مستواه .

ولمع نجم مؤتمر باندونغ زمناً ثم انطفأ كما ينطفىء عود الثقاب الذي يملأ البيت ضياء ولكنّه لا يستطيع الاستمرار في الانارة لأن قابلياته

في الاستمرار معدومة .

وبرز حدث آخر في هذه الاثناء كشف موقف الحزب من حيث تحالفه مع رجال بعيدين عن الحزب واهدافه وشعاراته . فقد تنافس على رئاسة الجمهورية السورية رجلان هما السيدان شكري القوتلي وخالد العظم . وشكري القوتلي هو من الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها خالد العظم . فهو من بيت ارستقراطي كبير . ووقوف البعث الى جانبه مثل وقوفه الى جانب خالد العظم مبدئياً . لولا ان هناك ميزات أخرى يتمتع بها السيد القوتلي ولكنّها لم تشفع له عند نواب الحزب اذ بقوا متمسكين بالسيد العظم . ان السيد القوتـلي من الرعيل العربي الأول ، فهو من العاملين في الحقل القومي والحقل الوطني وله تضحيات كثيرة في هذا السبيل . وهو اذ ينطلق ينطلق من المدعيات القوميّة والوطنية وسواء أكان مخلصاً متفانياً في ما يدعي ام لم يكن ، فانّه على كل حال كان يلبس هذا الرداء . اما السيد خالد العظم فلم يسبق له ان سار ولا خطوة واحدة في مضمار القضية الوطنية ولم يبذل شيئاً في سبيلها ولا هو يدعيها .

وما دام المتنافسان معروفين فانه لا بد من اختيار أهون الشرّين اذا صحّ اعتبارهما كليهما شرّاً . ولا بدّ من اللجوء الى الأمر النسبي في مثل هذه المواقف . وعلى فرض ان هناك تشدّداً وتطرفاً فانه يمكـن القاء اوراق الانتخاب بيضاء او مقاطعة الجلسة التي يجري فيها الانتخاب . ان كلّ هذا لم يحدث بل ان حزب البعث على الصعيد الرسمي او النيابي تبنّى انتخاب خالد العظم مع شيء من الزهو والفخر وهو ما اساء الى سمعته بعض الشيء لدى جمهرة المواطنين .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان الصراع على رئاسة الجمهورية السورية لم يكن صراعاً محلياً سورياً وانما كان هناك جبهتان خارجيّتان تصطرعان. والجبهتان ليستا عربيتين فحسب وانما هما اجنبيّتان . وقد انقسم العرب ايضاً قسمين فحالف كل قسم جبهة اجنبيّة في هذا المجال .

وكبار ضبّاط الجيش ايضاً كانوا يعملون في هذا الحقل . وكان

الاثر البارز في هذه القضية الاثر السعودي . فان سفير المملكة السعودية كان يلقّب « بالمفوض السامي » قياساً على منصب المفوّض السامي الحاكم بامره في عهد الانتداب الافرنسي على سورية .

وكان حزب البعث منغمساً في خضم السياسة حتى لم يعد يهمّ بالمحافظة على شعاراته ولو من الناحية الشكليّة . وكان أن فاز السيد القوتلي بالرئاسة بينما لم يحصل العظم الاّ على اصوات حزب البعث وعلى عدد ضئيل آخر لا ندري كيف امكن الحصول عليه .

ونتيجة لهذه المعركة وموقف الحزب فيها ، فان التلاحم قد اشتد بين بعض الحزبيين وبين العظم ، وبالتالي بين البعثيين وبين حكومة الاتحاد السوفياتي التي كانت تدعم العظم لقاء ان يكون العظم اشتراكياً تقدمياً يعمل ضد الغرب واعوانه في هذا البلد . وليس سرّاً ما نقوله من ان هذا الحلف العظمي البعثي لم يكن حلفاً متعادلاً وانما كان متفاوتاً . فالنفوذ والقيادة كان من اختصاص العظم مع عدد قليل من كبار الحزبيين يطبخ معهم ويخطّط وما على الحزب الاّ ان يكون اداة تنفيذ . وللعظم فضل على الحزب اذ انّه دعم مرشحه في الانتخابات النيابيّة في دمشق ومنحه من الاصوات ما انجحه .

البعث والعلاقة مع مصر قبل الوحدة

تصدع الجبهة وحلّ الحزب

كانت العلاقة بين حزب البعث ومصر قبيل الوحدة السورية المصرية علاقة طيّبة ، فالسفير المصري نافذ القول والمشورة لدى قيادات الحزب التقليديّة الرسمية . والحزب كان عضواً في الجبهة الواقعية المؤلفة من مصر والسعودية والشيوعيين . وكانت الجبهة ايضاً تحالف بعض كبار الضبّاط في الجيش السوري وتتخذ منهم ادوات لتنفيذ مآربها وتطبيق سياستها المناوئة للعراق ولكل العناصر البعيدة عن الشيوعية والبعث والتي سموها جميعها بـ « اليمين » . وانا سأروي هذه الحادثة

على سبيل المثال لا على سبيل الحصر لأن مثيلاتها كثيرة على ما يبدو للمراقبين .

فقد كنت مدعواً عند رئيس الاركان انا واخي وصديق آخر . وكانت الدعوة في بيته عشاء . وبينما كنّا جلوساً دوّى جرس الهاتف فتناوله رئيس الاركان ليسمع خبراً من سفير عربي يقول له فيه ان الرئيس القوتلي قد كلّف السيد فلان بتأليف الحكومة وعليك ان تحول دون ذلك . فقص علينا المخابرة وسألته انا سؤال المتجاهل عن علاقته هو بهذا الأمر وعلاقة السفير . فقال ان الرئيس المكلّف رجعي ويجب ان يكون العهد تقدمياً . وطلب القصر الجمهوري او بيت رئيس الجمهورية وقال للرئيس ان الجيش في حالة غليان شديد وانه يصعب عليه تهدئته وذلك لأنه قد بلغه تكليف فخامتكم للسيد فلان بتأليف الحكومة الجديدة وهو يرجو الرئيس ان يساعده على اخماد ثورة الجيش بعدوله عن هذا التكليف . وكان أن صرف الرئيس النظر عن التكليف . ورئيس الاركان استغلّ اسم الجيش لاحباط الخطّة ولتنفيذ مطلب ذلك الحلف الذي قلنا انه يضمّ مصر والسعودية والشيوعيين والبعثيين وبعض الآخرين .

وعلى ذلك فان حزب البعث قد ساهم في التمهيد لقيام الوحدة السورية المصرية ولكن لم يكن يخطر في بال الحزب ان الوحدة سوف تتحقّق بهذه السرعة وبهذا الالتحام . وعلى فرض انه ستكون هناك وحدة فانها ستكون من نوع الاتحاد المتراخي . والواقع انه كان البحث يدور حول قيام اتحاد أبعد أهدافه ان يكون من نوع « الفيدارل » .

ووقع الحزب وله ضباط في الجيش ، وقع في المزايدة مع فئة أخرى في الجيش ووصلت بهم جميعاً هذه المزايدة الى حدّ اتخاذ قرار بالوحدة الاندماجية المركزية الكاملة مع القطر المصري .

واذا كان حزب البعث في هذه الخطة ينسجم مع شعاراته ونظامه ودستوره فان هذا يفكك الجبهة التي ينتمي اليها . فالشيوعيون لا يرضون بالوحدة ولا بعض حلفاء الحزب من الارستقراطيين يرضون بها .

الاّ ان الاحداث لم يعد ممكناً السيطرة عليها . وكان نجم الرئيس عبد الناصر في سطوع ، وصيته يزداد بعداً ، ومكانته الدولية في ارتفاع فكان الأمر بيده وحده . ورغم ما بدا عليه من تردد ظاهر في قبول الوحدة الكاملة فانّه كان ضمناً يسعى اليها وهو الذي مهّد لها . وكان سفيره في دمشق من انشط من عمل لها واقنع السوريين بها .

والسعوديّة نفسها لم تكن تتصوّر ان تمّ الوحدة بهذه السرعة أو أن القضية برمّتها ستصبح جدّية نافذة . فلمّا ايقنت بذلك فترت وتجمدت عن العمل في تلك الجبهة . بل قل انها ندمت على تهيئة مثل هذا الجو . والشيء الذي لا بد من ذكره هو ان العملية الوحدوية قد قام بها الضبّاط . وأمّا الجهات المدنيّة من كل العناصر فانها كانت ضعيفة الاثر ، ومهمتها التأييد الاعلامي ليس غير .

ولقد وصل الوضع الرسمي في سورية خلال تلك المرحلة الى درجة من التمزق يدفع المسؤولين من حكّام واحزاب وضبّاط الى الموافقة على اي شيء ينقذ الوضع من الاحتمالات التي سوف يتعرّض لها القطر السوري . وعندما اشترط الرئيس عبد الناصر حلّ الاحزاب للموافقة على الوحدة قَبِل حزب البعث بذلك لأن قيادات الحزب كانت تشعر بثقل وطأة الحزب عليها وبالتشرذم والانقسام الذي حلّ بالحزب وهذه فرصة قلّ نظيرها فليكن حل الحزب في سبيل قضية مقدسة هي الوحدة والاّ فان الحل قد يأتي بلا ثمن اذا استمرّت اوضاع الحزب على ما هي عليه او سار في دربه التي ينتهجها .

ولم يكن حلّ الحزب لدى بعض قيادات الحزب مأسوفاً عليه لأن هناك تعويضاً منتظراً للحزبيين الكبار هو احتمال تسلمهم زمام السلطة في سورية نظراً لمساهمتهم في قيام الوحدة ومنهجهم الوحدوي وحسن علاقتهم بالسفير وبالسلطة المصريّة في المركز عبر السفير .

وقامت دولة الوحدة ونال بعض اعضاء حزب البعث مراكز منها نيابة الرئاسة وبعض الوزارات . لكن الارتياح لم يكن تاماً فان مراكز أخرى معادلة للتي نالها الحزبيون قد نالها بعض الفئات الأخرى مما يبعث

على الظنّ ان الرئيس عبد الناصر قد حاول ايجاد التوازن بين جميع الفئات السورية وانه لم يخصّ حزب البعث بمركز ممتاز .

اما الشيوعيون حلفاء الحزب فانهم اعلنوا موقفهم المناوىء للوحدة كما ابدى حلفاء آخرون تحفظاً ازاءها وطلبوا وقوفها عند حدّ الاتحاد . وبهذا تكون الجبهة القديمة قد تصدّعت نهائياً وذلك بعدما انعزلت عنها السعودية التي هي الأخرى لها رأي في هذه الوحدة يختلف عن رأي حزب البعث . ولكن الجبهة لم تعد بالأمر المهمّ لأن الحزب قد استبدلها بالدولة وبما حظي به من مناصب قد تساعده على استمرار وجوده في ما اذا عاد الى الوجود .

وحدث تذمر في داخل الحزب من قرار حل الحزب . فهناك بعض الحزبيين لم يعتبروا الحلّ شرعياً لأن نظام الحزب لا يسمح به . فالحزب يقبل دمج غيره به ولا يقبل دمجه بغيره . يضاف الى ذلك ان جمهرة من كبار الحزبيين لم يصيبوا مغنماً ولم يكن لهم وجود في الحدث الاخير . واصيب كثير من ضباط الحزب بخيبة أمل عندما لمسوا ان زملاءهم في الجيش من ضباط الجوانب الأخرى يتمتعون بمكانة أعلى من مكانتهم لدى الرئيس جمال عبد الناصر .

٦ - البَعث وَالوحـدَة

قبل طرق موضوع البعث والوحدة السورية المصرية لا بد من الاحاطة بموقف البعث المبدئي من الوحدة ثم مواقفه العمليّة في مختلف الظروف والحالات وصولاً الى دوره في قيام الوحدة السورية المصرية .

الحزب والوحدة العربيّة قبل تجربة الوحدة السورية المصريّة

حزب البعث العربي حزب وحدوي بلا جدال . وقد تكون الوحدة العربيّة الدافع الأول الى تأليف الحزب . هذا من الناحية النظريّة . فما هو موقف الحزب التطبيقي من الوحدة ؟

المفروض ان يكون الموقف التطبيقي ، متفقاً مع نظرية الحزب . ولكن ذلك غير واقع . فان الحزبيين القائمين على شؤون الحزب لم يستجيبوا في سلوكهم الوحدوي استجابة تامة لمنهاج الحزب وشعاره . وعندنا مثلان نسوقهما للتدليل على ابتعاد الحزب من الناحية التطبيقيّة عن اساس النظرية الوحدوية التي جعل حزب البعث منها دعامته الاولى :

١ – لاحت في الافق في يوم من الايام بارقة احتمال الاتحاد بين سورية والعراق . فماذا كان موقف الحزب منها . ان موقف الحزب العاطفي والمنطقي ايضاً كان موقفاً صحيحاً فهو يحبذها ويرغب فيها ويتمنّى ان تتحقّق . ولكنها لم تتحقّق لا لأن الحزب قد تخاذل وركد عن ملاحقتها ولا لأن قواعد الحزب كانت تعارض القيادة في شأنها كما كتب كاتب ناشىء في لبنان . بل ان الاتحاد لم يتحقّق لأنه لا يتمتع بانصار جادين ومخلصين لتحقيقه من الفئات النافذة في العراق وفي

الاوساط الدولية ذات النفوذ في المنطقة . ولأن القوات الأخرى في الدولة السورية واهمها قيادة الجيش كانت تعارض هذا الاتحاد لأسباب تعرّضنا اليها من قبل . فهذه القيادة وقعت فريسة للنفوذ المصري والسعودي والشيوعي وحتى الاميركي فسارت في اتجاه معاكس للاتحاد . وان عملية انقلابية قد قام بها ضباط الجيش ضد رئيس الاركان سامي الحناوي لاشتباههم بانه يسعى لتحقيق الاتحاد .

وفي العراق كانت تيارات قويّة تعارض الاتحاد . فهناك طائفة كبرى لعلها أكبر الطوائف في العراق كانت تخشى ان يتلاشى وجودها وتصبح هي الاقلية في دولة الاتحاد بعدما كانت هي الاكثريّة .

وفي العراق فئات تنظر الى الموضوع من الجانب الاقتصادي وترى الوضع الاقتصادي في العراق امتن ، فهو منتج للنفط ، والزراعة كانت فيه افضل مما هي في سورية . وكانت تلك الفئات خاضعة للاثرة فهي لا تريد ان تشرك السوريين في خيرات العراق التي تصبح ملكاً مشاعاً لشعب الاتحاد عندما يتم الاتحاد . كما ان في العراق نفراً من السياسيين المحليين الذين يخشون تضاؤل وجودهم في حال الاتحاد . كل هذه الفئات – بصورة اجمالية – كانت تعارض الاتحاد .

أضف الى ذلك ان بريطانيا ، وكانت يومئذ صاحبة اعظم نفوذ في هذه المنطقة لم تكن موافقة على الاتحاد ولو تظاهرت بخلاف ذلك . فبريطانيا لو كانت راغبة في الاتحاد لحقّقته بلحظة واحدة . ذلك انه في خلال الحرب العالمية الثانية وقعت هذه المناطق كلها تحت النفوذ البريطاني بل قل تحت الاحتلال البريطاني . فالعراق والاردن وسورية ولبنان كانت كلّها بريطانية النفوذ . ولو ان بريطانيا اعلنت وحدتها لما وجدت معارضة ، وحتى المعارضون ما كانوا يجرؤون على اعلان معارضتهم ولكانت انتهت الحرب وهناك دولة عربيّة واحدة مؤلفة من تلك الاقطار .

ومن الطبيعي ان نذكر من المعارضين للاتحاد فرنسا التي تخشى على ضياع نفوذها الادبي والثقافي من سورية ولبنان في حال قيام الاتحاد .

هذه الاسباب هي التي منعت الاتحاد بين سورية والعراق . وليس لحزب البعث العربي يد في المنع . والبحث لا يستهدف العمل من حيث انجازه وانما من حيث الموقف الرسمي والنظري لحزب البعث في قضية الاتحاد.

قلنا ان هناك تيارات عنيفة معاكسة للاتحاد . وذكرنا من بين هاتيك التيارات دولاً ضخمة ومنظمات ومدارس فكريّة كالشيوعيين والشعوبيين جملة . وهذه التيارات ذات نفوذ اعلامي جبّار مستمد من قوتها هي . وقد تمكن النفوذ الاعلامي من ان يرمي بالشبهة كل اتحادي في ذلك الزمن ، واوقع الارهاب الفكري حتى أخذ الناس يفرّون من الاتهام بالاتحاد خوفاً على سمعتهم أن تتلوث . وكان حزب البعث من الخائفين على سمعتهم فكان يتأرجح في مواقفه . وعندما ينطلق بعفويته كان يعلن ميوله الوحدوية . وعندما يلوح له سيف الاتهام مصلتاً عليه كان يغمغم ويجمجم ويتهرّب من الصراحة والبوح بما في ضميره من اخلاص وتفان للاتحاد .

ومن المآخذ التي عرفت عن حزب البعث انه خضع لموجة الارهاب الفكري في المرحلة التي نتحدث عنها فكتم نظرياته الاتحاديّة والقوميّة المتطرّفة خشية على نفسه من الاتهام والتعرّض لبعض المصاعب السياسيّة .

ولم يعد ممكنا التوفيق بين مواقف حزب البعث من الوحدة . وليس من قبيل الفخر ان اقول اني انا حللت المشكلة فلبست وحدي ثوب الاتحادية وحملت التهم دون الحزب وتعرّضت لسهام النقد تصوب اليّ من كل الجهات التي تحدثت عنها وهي سهام تشرّفني فان هذه الاتحاديّة هي من المفاخر التي ازهو بها بل هي على رأس تلك المفاخر (اذا كان لي مفاخر) . وجعلت بذلك الموقف الذي وقفته ، الحزب بمعزل عن الهجوم . لكن هذا الواقع قد جرّ الى شيء آخر . فقد بدأ الشك في سلامة الخط الوحدوي يتسرّب الى النفوس . واستعمل كثير من الناس التبرير الرائج الذي يدافع ضد الوحدة باعتبارها قد تؤدّي الى ثلم استقلال القطر ولم يقف هذا على فئة دون فئة ولكن العجب ان يشمل هذا المنطق البعثيين ايضاً . والى القارىء هذه القصة .

فقد استدعاني الشيشكلي بعد انقلابه الجزئي الذي اطاح بسامي الحناوي رئيس اركان الجيش . دعاني الى الاركان . فاستقبلني استقبالاً حسناً وقال لي : ان نَفَس الجريدة يا استاذ ليس معنا . وهو يعني جريدة البعث . فقلت له ان للجريدة مذهبها الخاص بها وهي لا تبدل طريقها ، فمن كان من الناس موازياً لها ، سائراً معها فهي لا تدهمه ولا تقف في طريقه . فقال : هلاّ زلتم مع الاتحاد السوري العراقي . قلت له : نعم .

فقال : والمعاهدة البريطانية . قلت له : الاتحاد يبقى والمعاهدة تزول . ونضال القطرين معاً ضد المعاهدة اقوى من نضال قطر واحد . فقال : لقد ثار اليزيديون في جبل سنجار على الحكومة العراقية فعجز الجيش العراقي عن تأديبهم . فقلت : وهذا مما يدفعنا الى الاتحاد دفعاً . فلو أن الاتحاد قائم بيننا وبين العراق لهان الأمر اذ كنت تسوق انت جيشك من هنا لاخضاع سنجار . فقال : اني اشم رائحة الهزء والسخرية ، فقلت : فسّر الأمر كما تشاء . اما نحن فلو سلطت دباباتك التي تصنع بها الانقلاب على الحزب ما تراجع عن فكرة الاتحاد . وان الدفاع عن استقلال القطر بالوقوف ضد الوحدة هو منطق لا قومي . فقال ما لهذا اجتمعنا . فقلت اذاً علام اجتمعنا . فقال : لنحظى بنفس حلو من جانب الحزب والجريدة . فقلت له : ان الجريدة ما سارت يوماً في طريق غير طريق شعارات الحزب . وتكهرب الجو بعض الشيء ثم انصرفت ولم اجتمع به بعد ذلك الاّ في جلسات رسميّة لم تكن فيها العلاقة بيني وبينه على ما يرام الى ان قام بانقلابه الكامل . وحزب البعث قد أصبح يتكلّم بهذه اللغة في الفترة التي نتحدّث عنها خلافاً لمنطقه السابق الذي تحدّثت به مع الشيشكلي .

فمع الزمن وفي نهاية المطاف ركدت الاندفاعة الوحدوية في حزب البعث وخمدت جذوتها التي كانت ذات لهيب لا ينطفىء . فقد قامت فلسفة تمزج بين الوحدة والاشتراكية وجعلت الاشتراكية شرطاً للوحدة وليس لهذه الفلسفة مصدر منطقي ولا منبع قومي . ولكنها فلسفة

طارئة تسرّبت الى الحزبيين من خلال اتجاه الحزب اخيراً الى التحالف مع الدول الاشتراكية . وقد تغلّبت النزعة الاشتراكية وقويت دعامتها على حساب النزعة الوحدوية التي كادت دعامتها تضمر وتسبب عرج الحزب وخروجه عن منطقه القومي .

ويمكن ان يعزى هذا الفتور الوحدوي في حزب البعث الى امور أخرى غير التحالف مع الشيوعيين : منها ومن ابرزها أن البنيان الشخصي لبعض القادة في حزب البعث لم يكن البنيان المتين الذي يحتمل الاثقال الجسام . والقادة في جملتهم مخلوقون للعمل والبروز ثم التألق في قطر واحد ، فاذا اتسع المجال وبعد المدى لم يعد ذلك البنيان قادراً على ان يسبح في الافلاك البعيدة . فكان الميل العفوي هو البقاء ضمن دائرة صغيرة محدودة هو قطر عربي واحد .

اما البنيان الضخم فهو لا يستمرىء العمل الاقليمي ولا يستطيع التحرك فيه ومن المعروف ان الحوت لا يسبح في السواقي ولا في الانهار الصغيرة ولكنه يحتاج الى البحر الخضم ليأخذ فيه مداه . وهكذا لم يعد حزب البعث في نظر المراقبين البعيدين حزباً وحدوياً كما كان من قبل .

ففي مطلع الخمسينات وكان الاستاذ عفلق قد سافر الى البرازيل للاستجمام والتخلص من جو حزبي ثقيل ، جاءنا وفد فرع الحزب في الاردن وهو مؤلف من النائبين المرحوم عبد الله نعواس والاستاذ عبد الله الريماوي . وللوفد مهمة سياسية يريد قرار الحزب بشأنها . وعقد الاجتماع خماسياً. وكان الدكتور مدحت البيطار قد حلّ محلّ الاستاذ عفلق موقتاً .

قال الوفد الاردني ان في النية اقامة اتحاد بين الاردن والعراق بعد مقتل الملك عبد الله . وان المسألة مطروحة للبحث الجدّي وقد تأتي الى مجلس النواب الاردني للمصادقة عليها ، فما هو رأي الحزب ؟ وقد سألنا الوفد عن انطباعات الحزب هناك وعن الجو السياسي القومي والتوقّعات المحتملة . فكان الوفد منقسماً .

اما الاستاذ الريماوي فقد قال انه شخصيّاً لا يرى الموافقة على مثل هذا الاتحاد . فالعراق مرتبط بمعاهدة مع بريطانيا . وان الفئة الحاكمة

فيه لا تسير وفق المصالح القوميّة . وارتباط الاردن بالعراق يجعل الاردن تابعاً له ، منفذاً لسياسته وذاك لا يتفق مع المصلحة العربية .

وبعد جدل طويل ومناقشات علمية وسياسية وقومية ملخّصها ان المستوى الاستقلالي في العراق ليس احسن مما هو عليه في الاردن وان الوجود البريطاني في الاردن لا يقلّ عن الوجود البريطاني في العراق . وان ساحة النضال ستتسع في حال الاتحاد امام الفئات المناضلة عن حقوق الشعب . وبالتالي فان الوحدة يجب اهتبال فرصها حيثما حلّت لأنها على اي حال قوة . ولم يقبل بعض اعضاء الوفد الاردني بهذه الحجج . وانتهى الاجتماع بان اعلنت قيادة الحزب انها تؤيد كل محاولة اتحاديّة ، وهي تأمر فرع الاردن ان يصوّت على مشروع الاتحاد اذا عرض . والتدابير معروفة اذا لم ينفّذ الفرع مثل هذه التعليمات . ولم يكن الجو صافياً . والوفد قبل التوجيه مكرهاً .

ليس غريباً ان تختلف وجهات النظر بين الحزبيين من مستوى القيادات في كل شيء الاّ في الامور الاساسيّة مثل موضوع الوحدة . وقد كان هذا الحادث دليلاً على ان تيارات مختلفة وغريبة عن الحزب قد دخلت في بنيان الحزب . واصبح كل فرع او قطر عربي ينظر الى الامور نظرة تختلف عن نظرة الفرع الآخر او القطر الآخر . وان وحدة الحزب من الناحية « الايديولوجية » على الأقلّ اخذت تتصدّع . وقد يكون للعوامل الشخصيّة او القطريّة او ما هو في معناها اثر في تكييف الاراء وجعلها متباعدة بعضها عن بعض . وما كان يخطر في بال قيادة الحزب ان يكون موضوع الاتحاد موضوعاً يمكن الاختلاف عليه لا سيما والاسباب المطروحة لا تتمتع بقوة ولا مناعة .

البعث والوحدة السورية المصريّة

بعد هذه التجارب الوحدوية التي بقيت في حيّز المشاريع كانت تجربة الوحدة بين مصر وسورية في دولة الجمهورية العربيّة المتحدة

هي التجربة الثانية التي عرضت لحزب البعث .

وكان من المفروض ان يكون حزب البعث هو السباق اليها المنافح دونها الحامي لبيضتها من الانهيار والتهشيم . ولكنه لم يكن في هـــذا المستوى من الأمل المعلق عليه .

فقد قامت دولة الوحدة وحزب البعث ركن من اركانها . وهو ضمناً لا يرضى بهذا القدر من المنزلة بل انه يطمح ان يكون الركـــن الوحيد فيها لا ركناً من اركانها . وقد كان بعض اعضائه يرون انفسهم اصحاب الفضل على عبد الناصر اذ هم الذين هدوه الى العمل القومي ودلوه على طريق الوحدة ولو من بعيد .

لكن هذه الخواطر لم تكن هي خواطر عبد الناصر لأن لعبد الناصر خطة وسياسة ومنهجاً واسلوباً واهدافاً لا تتفق لا من قريب ولا من بعيد مع ما كان يتصوره بعض البعثيين .

والجمهورية العربية المتحدة قامت بالحاح سوري يعود بعضه الى الدافع الوحدوي عند السوريين . ولكن يمكن القول استدراكاً ان الدافع الوحدوي لم يكن فريداً في هذا وانما كان الى جانبه دوافع أخرى قد تكون اشد منه دفعاً وثقلاً . وانا استدرك حتى لا ابخس الناس اشياءهم فالسوريون في جملتهم وعلى مختلف ميولهم وحدويون . اما هذه الدوافع فهي ان فراغاً قد حدث في سورية . فالعسكريون شعروا بانهم لم يعودوا قادرين على تسيير دفة الامور للصراع القائم بين فئاتهم المختلفة . وكانت تقوم عصيانات وتمرد باستمرار في القطعات والمعسكرات ولا تستطيع السلطة تنفيذ الأوامر نظراً لتكتلات تقف في وجهها .

والمدنيون كادوا يفلسون في ادارة الدولة ، فالاحزاب متنافـــرة والنظريات متباعدة والتمزق يشمل كل الفئات . والشيوعية مدت رأسها والقطر مهدد من كل أطرافه باجتياح صحت أخبار هذا الاجتياح ام لم تصح فالمهم ان قناعة الناس كانت هكذا ولا بد من ايجاد حل . وكان حزب البعث يومئذ ايضاً منهوك القوى . وهو يريد أن ينهي وجوده بعز وكرامة . فوجد المخرج بهذه الوحدة وسرعان ما قبل شرط الرئيس

عبد الناصر بحل الاحزاب السوريّة فحلّ نفسه .

وكان الرئيس عبد الناصر قد أخذ الابصار ببريقه وسحر الناس بمكانته المتزايدة التقدم . وكان يتبنّى القضية العربية ويدافع عنها . فاتجهت الانظار اليه ليحمل هذا العبء . ومن هنا بدأت مساعي الوحدة . وكان ان قامت مزايدات بين فئتي الضباط البعثيين والذين اصبحوا بعد ذلك يدعون بالناصريين . وبعدما كان البحث حول اتحاد سوري مصري اصبح البحث حول وحدة تامة مركزيّة اندماجيّة كاملة . وهكـــذا انتهت المسألة .

كان البعثيون من جملة الذين ساروا في سبيل تمجيد عبد الناصر من السوريين . ولهذا التمجيد اسباب . ومن المفيد ذكر المهم منها :

١ ــ كان العرب في هذه المنطقة خاصة متعطشين الى زعيم يحمل عنهم الاعباء الثقال التي ترهق كواهلهم . كما ان العرب يشعرون بان مكان الزعامة شاغر وان هناك فراغاً يحتاج الى من يملأه . وكانوا يرون في الزعماء المحليين عجزاً عن احتلال هذا المقام الشاغر . وبدافع اللهفة الى تحقيق هذا الخيال وتحويل هذا الحلم الى حقيقة اندفع الناس الى تلميع اسم جمال عبد الناصر فلعله هو الذي هيأته العناية الالهية للقيام بهــذه المهمة . ومن هناك فان الرغبة اللاشعورية والاماني العذاب هي التي جسّمت للناس عظمة عبد الناصر فافترضوا انه الزعيم المنتظر ثم اعتبروا هذا الفرض قائماً حقّاً فوقفوا من عبد الناصر موقف التابع من متبوعه وموقف الرعية من راعيها .

٢ ــ من العودة الى التعليل النفسي يتبيّن ان في تقديس عبد الناصر من جانب السوريين اعلاناً عن عدم ثقتهم بالزعماء السوريين المحليين فهم لذلك تخطّوا الحدود واستمسكوا بهذه الزعامة التي فاقت في قدرتها وعظمتها هؤلاء الزعماء المحليين . وكأنما ذلك يعني نزع الثقة من هؤلاء الزعماء ومبايعة عبد الناصر . والزعماء السوريون قد نحوا عن الطريق وتركوا جانباً ليحل محلّهم هذا المبعوث الذي جاء في الوقت المناسب ليبعث العرب من جديد . والمزايدات في مثل هذه الاحوال لها اثر شديد

فان التسابق بين كل الفئات قد منح عبد الناصر الشيء الكثير من التقديس.

وليس مفخرة ولا معجزة اذا انا قلت بانني كنت الوحيد في موقفي من المرحوم الرئيس جمال عبد الناصر. فلم أكن في ميدان المقدسين الذين رأوا فيه مبعوث الاله او النبي الأسمر. وانما كنت اقيّمه حق تقييمه ولا ابخسه حقه في الحدود التي يستحقها. وكثيراً ما جرى بيني وبين زملائي في الحزب حتى بعد انسحابي من الحزب جدل حول عبد الناصر.

وبهذه المناسبة أروي قصة تظهر اندفاع البعثيين في تأييد عبد الناصر. فقد اطلعني الاستاذ ميشيل عفلق على مقطوعة قال عن عبد الناصر فيها بانه « زعيمنا الملهم ». وكان ينوي نشر هذه المقطوعة. فقلت له احذف كلمة « الملهم »، ولا تكن مغالياً اذ يكفي في الأمر كلمة « زعيمنا ». لكنه لم يقبل اقتراحي ونشر المقطوعة كاملة. وقال ان هذا يشجعه على المضي في طريقه العربي المتصاعد. وما كنت مسؤولاً عن هذه المقطوعة اذ لم أكن في الحزب يومئذ. ولكنني كنت اخشى من تورّط اصدقائي في دروب المبالغة التي قد يتراجعون عنها اذا استبان لهم الأمر على غير ما يظنون.

ولم تلبث الايام ان حقّقت مخاوفي هذه. اذ أصبح التراجع كبيراً عن تلك الثقة. وواضح البعد بين « زعيمنا الملهم » وبين كلمة « الغدّار التاريخي » التي وصفه بها بعض البعثيين. ولكن كلّما اقترب عبد الناصر من سورية كانت الحماسة تتراخى من جانب البعثيين، فلما تمت الوحدة السورية المصرية وأصبح عبد الناصر رئيساً للقطرين كانت قد تفرغت النفوس من الحماسة الاّ قليلاً.

وهنا بدأ الانفراج يتعاظم بين الحزب وبين عبد الناصر. بالاضافة الى ان هناك مطالب قومية يختلف فيها نظر الحزب عن نظر الرئيس. فكانت هذه المطالب محور الخلاف. ولا بدّ للخلاف من ان يجد له فلسفة قوميّة او عقائديّة تشفع له عند الرأي العام والاّ فان الخلاف الشخصي سيكون نقمة على اصحابه. وفي القضية العربية مئات من العقد والمشكلات

عسيرة الحل . والذي يريد ان يتذرع لوقوع الفرقة فانه لا يعدم اثارة مشكلة او عدة مشكلات لتكون سبباً في خلاف عميق بعيد المرامي .

ولا شك في ان ابتعاد البعثيين عن عبد الناصر له اسبابه العامة الى جانب الاسباب الخاصة . ونحن كنّا قد لمحنا الى بعض الآمال التي علقها البعثيون على دولة الوحدة والتي لم يتحقّق الاّ جزء منها لا يروي ظمأهم .

فهناك خيبة أمل حدثت بعد اختلاطهم بالرئيس عبد الناصر اذ عرفوا انه لم يكن الزعيم المنتظر وذلك عندما اكتشفوا فيه ما هو قائم في زعمائهم الذين نبذوهم من قبل . وانا ارى ان القلق النفسي الذي ساورهم كان من طراز القلق النفسي الذي ساور ابراهيم الخليل عليه السلام : فابراهيم رأى القمر فاعجبه بريقه ولمعانه ، وكان هو في قرارة نفسه يبحث عن رب يعبده فقال عن القمر : هذا ربّي . فلما افل القمر قال : اني لا احبّ الآفلين فنبذ ربوبيّته .

والبعثيون مثلهم مثل أكثرية السوريين قالوا عن عبد الناصر هذا هو الزعيم . فلمّا لمسوا فيه افولاً او ما يشبه الافول حدث عندهم تحوّل عنه . لكنّهم كانوا اسلفوا من التأييد والمدح والثناء والتقديس ما لا يمكن التراجع عنه بسهولة ويسر . فاعطوا للزمن فرصة كي يساعد على التحلّل مما ربطوا انفسهم به من الولاء والتعظيم . ولم يمضِ أكثر من سنة واحدة على تعامل البعثيين مع جمال عبد الناصر حتى دبّ الخلاف بينهم وبينه ، وعلى مرور الشهور لا السنين اعادوا النظر فيه ومنحوه المقام الذي يستحقه في نظرهم وهو مقام لا يحسد عليه . وانسحب وزراء البعث من الحكومة ولكن ليقفوا في صفوف الخصوم الذين يعملون على فكّ الوحدة . وقد مزجوا بين عبد الناصر والوحدة فلما حاربوا واحداً منهما فقد حاربوا الثاني .

البعث والانفصال

وكان موقف الحزب واضحاً من حيث عمله على تقويض الوحدة .

وليس من الحق أن ينسب الى الأفراد كلّهم واحداً واحداً العمل ضد الوحدة ، فقد كان هناك افراد مع الوحدة لكن الوصف ينطبق على الكثرة نفوذاً وعدداً . كما انه ليس من الانصاف ان يعزى هذا الموقف الى الدوافع الشخصيّة وحدها لأن الى جانبها دوافع أخرى لا يسع المنصفين الذين يتتبعون الحق الاّ ان يذكروها :

١ ـ كانت الحرية مخنوقة في ذلك العهد . والحرص على الحرية قد أهاب بكثير من الحزبيين وغير الحزبيين الى مناوأة العهد . وكنّا نحن ذكرنا ان شعارات الحزب تتفاوت اهميّتها بين فئات وفئات . وبعض الفئات تقدّس الحريّة أكثر من سواها وبعضها يقدّس الوحدة وبعضها يقدّس الاشتراكيّة . ولكل وجهة نظره . والاتّهام ليس من عمل الابرياء المنزهين عن الاغراض . ولذلك فنحن لن نتهم احداً بسوء القصد الاّ اذا لم يعد هناك مجال لنفي سوء القصد .

٢ ـ هناك خلاف في المفهوم القومي بين حزب البعث وبين عبد الناصر أو بين الناصريين . وهذا بحث سوف نفرد له باباً خاصاً بعد فراغنا من استقصاء هذه الاحداث .

وعبد الناصر بحكم مسؤوليته عن الدولة وبحكم علاقته مع الدول الاجنبيّة وبحكم ما يأمله من مكانة عالمية لا يستطيع ان يساير مطالب البعث المتطرفة احياناً والتي يعرف انهم انما يثيرونها للاحراج ولتبرير الفرقة وكسب التيار المتطرّف في الوطن العربي كلّه . ولما كان الحزب ينوي في ضميره أمراً فان الرئيس عبد الناصر كان ينوي أمراً . وهذا الموقف كان بداية القطيعة .

٣ ـ ان سوء الادارة الذي سلكه أهل الاقليم الجنوبي (المصريون) وان التسلّط الذي بدت نزعته على المصريين قد نفّرا السوريين من هذا الكيان المشترك . وان الاقليميّة التي ظهرت على الموظفين المصريين وان الاستعلاء والنظر الى سورية كأنها قطر الاستيلاء عليه من قبل مصر استيلاء وفتحاً ، وان الدسائس الاجنبيّة التي أخذت تقاوم الوحدة والتي ضخمت الاخطاء ، كل هذه أمور قد مهدت للبعثيين امكان البحث

في الوحدة واعادة النظر فيها .

وقد سجّل على الحزب في عهد الوحدة مأخذان ، اولهما حلّه نفسه . فكيف يحلّ الحزب نفسه لو لم يكن يعاني ما يشبه النزع . اذ الحزب حزب عربي شامل وعمله في كل بلد عربي . وليس عمله في سورية وحدها او مصر واذا انحلّ الحزب في قطر لعوامل قوميّة أو مكاسب وحدويّة فانه لا ينبغي له ان ينهي نشاطه في الاقطار العربيّة الأخرى التي لا تزال خارج الوحدة .

ومع ذلك فان الحزب لم يكن عند هذه الزلّة فحسب وانما كان عليه مأخذ آخر هو انّه أول الفئات في سورية التي عملت على تقويض الوحدة . وكانت الاخطاء جسيمة مرهقة في عهد الوحدة حتى كادت تزهق الانفاس ولكنها لا تصل الى حد اخراج الحزب عن وحدويّته .

ويمكن القول ان الوحدة السورية المصريّة قد اقامها العسكريون من الجانب السوري وان العسكريين هم الذين قوّضوها . وانا أذكر هذا لكيلا يظنّ أحد انّني اتّهم حزب البعث بتقويضها ، فحزب البعث لم يكن من القوة بحيث يستطيع تمزيق هذا الكيان . وامّا ما تبقّى من الاقوال عمّن عسى ان يكون دفع العسكريين في الحالين ، فهذا ما ليس داخلاً في صدد البحث ما دام الكتاب كلّه متعلقاً بحزب البعث العربي وحده . ولعلنا عندما نكتب التاريخ السياسي الحديث عن الاقطار العربيّة نتطرّق الى مثل هذه الابحاث بالتفصيل .

ومن الأنصاف أن أعلن بانني لا اصبّ لوماً على الحزب هو في مستوى الجريمة . ولكنه لوم وكفى . ذلك ان كل التصرفات التي كانت تصدر عن الدولة كانت بمثابة مسامير في نعش الوحدة . ولقد نبهت جهات قوميّة بعض المسؤولين الى ذلك ولكن لم تجد تلك الفئات اذناً مُصغية . وكانت اجهزة الحكم تعمل وكأنما هي تمهد للانفصال وفك الوحدة . ولو حرص حزب البعث على دوام الوحدة ما استطاع الابقاء عليها لأن الاحداث كانت اقوى من كل فئات الوطن مجتمعة فكيف بحزب البعث وحده . واللوم اذاً هو بسبب فتور حماسة الحزبيين

وسكوتهم عما يرون من تخريب في الكيان الوحدوي ثم موافقتهم على الانفصال .

ولا يستطيع احد من البعثيين ان ينكر وقوف الحزب ضد الوحدة لأن الدليل قائم على ذلك . فقبول كبار الحزبيين بالانفصال وتوقيع عريضة التأييد له هو كاف لاثبات ذلك . (والأمر متعلق بالاجمال لا بالمفرّق) . وقد تختلف المواقف التي يقفها الناس من حادث واحد . فالامزجة والمشاعر الخاصة ودرجة الايمان بالقضية والانطباعات المتباينة التي تقع على الناس تسبّب الاختلاف في تلك المواقف .

وأنا أضرب مثلاً على ذلك قضية الانفصال ، فانا لم اقبل التوقيع على وثيقة تؤيد الانفصال حفاظاً على الشكل والمظهر كما يقولون . وقد الحّ عليّ المسؤولون كي اقول كلمة من محطة الاذاعة أعلن فيها موافقتي على الحدث ولكنني لم أفعل . وبقيت ملتزماً الصمت الى ان القى الرئيس جمال عبد الناصر خطابه المشهور بتاريخ ٥ تشرين الاول من عام ١٩٦١ والذي أعلن فيه : انه ليس من الضروري ان تكون سورية جزءاً من الجمهورية العربية المتحدة ، لذلك اوعزت الى ممثلنا في الجامعة العربيّة أن يقبل عودة سورية اليها واوعزت الى ممثلنا في الامم المتحدة كي يعلن موافقته على قبول سورية عضواً فيها . بعد ذلك لم يبق مجال ولا منفعة للاصرار فقبلنا الأمر الواقع بعدما قبله عبد الناصر وعلى هذا الاساس خضنا الانتخابات .

ويمكن القول ان عهد الوحدة قد عطّل شعاراً من شعارات الحزب تعطيلاً كاملاً هو شعار الحرّية ولم يستطع تحقيق الشعارين الآخرين الاّ تحقيقاً صورياً . والذي يتبادر الى الاذهان في هذه القضية من تيسير الوصول الى الوحدة التي لم تلبث ان انفكّت ، هو أن الجهات الدوليّة النافذة في هذه المنطقة قد مهّدت لقيام الوحدة السوريّة المصريّة وهي عارفة انها لن تنجح في تحقيق الخيال العربي نظراً لأن القائمين عليها ليسوا من النوعية المؤهلة لمثل هذه الاعمال الجبّارة التاريخيّة . وانه نتيجة ذلك سيكون الفكّ مع زرع الشك في نفس الانسان العربي بصلاح

الوحدة وامكان قيامها بعد اليوم . وكان التخطيط الخارجي قد نجح تماماً . فالحكم في الجمهورية المتحدة لم يكن في المستوى الذي يعمق النظرة الوحدويّة ويبعث على الاستمساك بها وفدائها بكل غالٍ وثمين . بل ان السلطة الحاكمة قد نفّرت الناس من الوضع الوحدوي بكامله انجرافاً مع نفوره من الحكّام المشرفين على دولة الوحدة .

التنظيم العسكري

خلال عهد الوحدة المصرية السورية نقل عدد كبير من الضبّاط السوريين الى مناطق عديدة من القطر المصري ولكنّهم كانوا يجتمعون في كثير من الاحيان في القاهرة . وكان هؤلاء الضبّاط يشعرون بالغبن والحيف ويعرفون انهم انما نقلوا حيطة وحذراً منهم ، فهم في نظر الدولة غير موثوق بهم ، وان نقلهم كان اجراء احترازياً او تأديبياً . وهذا لا بدّ ان يحدث في النفوس المرارة وخيبة الأمل ، فالضبّاط السوريون بوجه من الوجوه هم الذين صنعوا الوحدة من الجانب السوري فما الذي حدث حتّى يصبحوا موضع شك وريبة .

وكان من بين هؤلاء الضبّاط عدد من البعثيين القدامى الذين اصبحوا حزبيين بعدما لم يعد البعث يتقيّد بالعرف القديم الذي يمنع العسكريين من الانتساب الى الحزب . وكانوا يجتمعون في القاهرة ويتداولون في الوضع الراهن . وكان أن تمّ القيام بتنظيم عسكري سرّي بعثي . وكان هذا التنظيم هو النواة لما تمّ بعد انقلاب الثامن من اذار عام ١٩٦٣ . وقيام هذا التنظيم له معانيه : فهو عدم اعتراف بحلّ الحزب . وهو بمثابة اعادة النظر في الوحدة القائمة وبالتالي امكان البحث في فكّها .

وقد صدرت قرارات التسريح لعدد كبير من هؤلاء الضبّاط فعادوا الى سورية ومنها انطلقوا مثابرين على خطّتهم في التنظيم ، وتجمع أكبر عدد منهم للقيام باي عمل يحقّق رغباتهم . وكان هذا التنظيم ايضاً البذرة الأولى التي نمت ونضجت واينعت . ولما كانت البذرة بذرة

عسكريّة فلا عجب اذا رأينا الحكم بعد انقلاب الثامن من اذار حكماً عسكرياً ، اثر المدنيين فيه ضعيف .

ووقع الانفصال بين مصر وسورية . ولكن لم يظهر لهؤلاء العسكريين الذين يضمّهم ذلك التنظيم اي أثر في عملية الانقلاب ضد الوحدة الذي تمّ في الثامن والعشرين من ايلول عام ١٩٦١ . اذ ان الذين قاموا به ضبّاط عاملون في الجيش السوري بصرف النظر عن الدوافع الدولية الأخرى التي سهّلت للعمليّة ان تتمّ .

ولم يعد أحد من هؤلاء الضبّاط الى الجيش بعد الانفصال وانما أعيدوا الى وظائف مدنيّة . اما الذين كانوا في الجيش فانهم استمرّوا فيه واستمرّ تنظيمهم الذي يضمّ عدداً من المسرحين .

الاّ ان بعض الضبّاط الذين نفذوا عملية فك الوحدة قد مالوا الى القيام بعمل وحدوي من نوع ما مع الجمهورية العربية المتحدة وهو الاسم الذي احتفظت به مصر لنفسها حتّى بعد انفصال سورية عنها .

وما كاد يستقرّ النظام الجديد القائم على الاسس الديمقراطية والحياة النيابيّة حتّى فوجئت البلاد بعملية انقلاب جديدة كان من ابرز اشخاصها الاشخاص الذين اشتركوا في فك الوحدة . وكانت مساعي الرئيس عبد الناصر قد نجحت فاقنع هؤلاء الضبّاط بنسف الحياة الديمقراطية وحلّ مجلس النواب واعتقال اعضاء الحكومة وذلك في الثامن والعشرين من شهر اذار ١٩٦٢ .

وزادت الاوضاع سوءاً وحصل خلاف كبير في صفوف الضبّاط وعقد مؤتمر عسكري في حمص كانت نتيجته ابعاد هؤلاء الضبّاط الذين نفذوا هذه العمليّة الانقلابيّة الاخيرة عن الوطن وتأليف حكومة سموها موقتة تمهيداً لقيام عهد جديد بعدها . وما كان للتنظيم العسكري البعثي اثر في هذه الاحداث الاّ قليلاً .

وفي فترة الانفصال التي اعقبت عهد الوحدة قام تحالف بين الضبّاط البعثيين والناصريين وتألفت منهم جميعاً جبهة المعارضة كما حدث ذلك في صفوف المدنيين .

وخلال العهد البرلماني كان هناك مجال للتكتّل والاجتماع والتنظيم اذ العهد البرلماني مهما يكن ضيّقاً او شديداً فانه لا بدّ ان يبقي بعض الحريّات للشعب .

وفي صيف عام ١٩٦٢ جرت محاولات لاعادة الحياة الدستورية ودعوة البرلمان المنحلّ . وكادت تنجح تلك المحاولات بل قل انّها نجحت الى حد ما فقد صدر قرار بدعوة مجلس النواب الى الاجتماع .

وقدنا نحن هذه المحاولة في العودة الى العهد الدستوري والتخلّص من الحكم العسكري . وبعد تردد من جانب النواب البعثيين الذين كان يقارب عددهم العشرين من كلا جناحي الحزب فانهم انضمّوا الى جمهرة النواب في المطالبة بعودة العهد الدستوري .

وما كان الغرض هو مجلس النواب بحدّ ذاته فنحن لم نكن مؤمنين بصلاحية اعضائه الى حد يجعلنا ندافع عنهم مثل هذا الدفاع المستميت . وانما كان الغرض هو الغاء مفعول ذلك الانقلاب الذي تمّ في اواخر اذار من هذا العام . غير ان العسكريين ومن وراءهم من قوى داخليّة وخارجيّة فطنوا الى معنى اجتماع المجلس وندموا على الموافقة على ذلك فاعادوا الكرّة ومنعوا المجلس من الاستمرار في الاجتماع .واتفق العسكريون مع رئيس الجمهورية على تأليف حكومة جديدة يرضى العسكريون عنها . وهذه الحكومة كانت الرابعة بعد الانفصال والثالثة بعد قيام الحكم الدستوري في البلاد .

البعث والعهد الديمقراطي بعد الانفصال

اجتمع مجلس النواب في اواخر سنة ١٩٦١ . وكان يضم اقل من عشرين نائباً من اصل بعثي اشتراكي . وكان الحزب كما هو معروف منحلاً بقرار من القيادة . وهو ما اشرنا اليه في بحث سابق . لكن هؤلاء النواب كانت تجمعهم صداقات شخصيّة ويشد بعضهم الى بعض حنين تحدّر من العمل الحزبي المشترك قبل حلّ الحزب .

وكان التعارف بينهم ميسّراً ومسهّلاً لهم الاجتماع في ما بينهم واتخاذهم شكل تكتّل حزبي ظاهر بلا مواربة ولا غمغمة . فالنظام الديمقراطي يسمح بمثل هذا التكتّل مهما يكن ذلك النظام الديمقراطي بعيداً عن الحقيقة الديمقراطية السليمة . وكنت انا ايضاً من بين هؤلاء المتعاطفين في ما بينهم . وقد قامت محاولة من النواب الحزبيين لازالة الجفوة التي بيني وبين الاستاذ الحوراني فجاء هو لزيارتي وقابلته بالمثل وكان عدد من النواب يحضر الاجتماعين . وفي الاجتماع الثاني طلبت ان تكون المصالحة قائمة على اساس واضح اذ الخلاف لم يكن شخصياً ليزول ببسمة أو سلام . ووافق الحاضرون على هذا الاقتراح فسردت انا ما سوف نواجه من تشريعات وطلبت اتخاذ موقف موحّد منها وتمّ الاتفاق على الامور التالية :

١ – تعريب المصارف دون تأميمها لأن التأميم يضيّق على الحركة الاقتصادية بعض مجالاتها ، واعظم شيء تمّ الاتفاق عليه هو الحفاظ على الديمقراطية .

٢ – تعديل نصاب الملكية في قانون الاصلاح الزراعي في الجزيرة والمناطق الشرقيّة وذلك بتوسيع الملكيّة موقتاً الى ان يجري الترتيب للوضع السكّاني القومي هناك .

٣ – الاقتصار في التأميم على الشركات الكبرى وابقاء المتوسطة والصغرى .

ولما كانت أكثرية المجلس غير مضمونة في تحقيق اهدافنا هذه فاننا بحثنا ان يكون قسم منا في الحكم وقسم في المعارضة للتعاون على تنفيذ ما رسمنا . وقلت انا للسيد الحوراني إما ان تكون انت في الحكم ونحن في المعارضة او ان أكون انا في الحكم وانت في المعارضة ، وبغير ذلك لا يمكن التوصّل الى هذه الاهداف . قال السيد الحوراني اني اشعر ان المناخ الحاضر ليس صالحاً لدخولي في الحكم وانا اقترح ان تكون انت في الحكم .

وقد تمت الموافقة على البنود المسطورة وانفضّ الاجتماع .

ولما قامت المشاورات لتأليف الحكومة استدعاني الدكتور ناظم القدسي الذي كان مرشحاً للرئاسة والذي كان فوزه مضموناً وطلب منّي ان اهيّء نفسي لتأليف الحكومة فقلت له بحضور أخي سعيد وبعض الاصدقاء ان هذا التكليف سابق لاوانه فما لم يتم انتخابك للرئاسة فانه لا يحق لك القيام بهذا التكليف ، فقال نعم ولكن الأمر مضمون .

وبعدما تمّ انتخاب الدكتور القدسي رئيساً للجمهوريّة عمد الى تكليف الدكتور معروف الدواليبي تحت ضغوط عديدة وعدل عن تكليفي برئاسة الحكومة . وقد حدثت أزمة وزاريّة تهدّد العهد الجديد بالانهيار فكنت مضطراً أن أقبل نيابة الرئاسة وذلك بعد التشاور مع الزملاء البعثيين من النواب .

وأنا أقصد من كل هذا ان اشير الى التعاون الكامل بيني وبينهم في المجالات السياسيّة المحليّة . وعندما تقدّمت الحكومة ببيانها الى مجلس النواب وهو يتضمّن النقاط التي تمّ الاتفاق عليها قام نواب البعث يعارضون البيان بقوّة وعنف وكأن لم يجرِ اي اتفاق عليها . فندبت بعض النواب ليشهد على الاتفاق لكنه رجاني ان اعفيه من هذه المهمة فقبلت الرجاء . وما كنت كارهاً ان تقوم في المجلس معارضة شديدة حتى لا تشتطّ بعض فئات المجلس في سلوكها ومطالبها ولكي تكون المعارضة سنداً لي في مجلس الوزراء . وعاش البعثيون في تلك الفترة عيشاً سياسياً كريماً . وصينت حقوقهم وأبعد الأذى عنهم بل انهم نالوا كثيراً من رغباتهم الخاصة والعامة . وهذا لا يعني ان هناك حزباً قائماً اسمه حزب البعث ولا منظمة سياسية يعترف بها وانما البحث حول الاشخاص فرادى ومجتمعين .

وكانت الحكومة احياناً تجنح الى تسريح بعض الموظفين او نقل بعض منهم الى مراكز لا يرغبونها اذ كانت المعارضة والمشاكسة للعهد ظاهرتين على سلوكهم . وكنت أمنع وقوع ذلك على الموظفين عامة وعلى البعثيين منهم خاصة . ومن الطرائف ان أحد كبار الوزراء من زملائي كان يبدأ الحديث ، عند البحث في قوائم التسريحات التي يقترحها بعض

الوزراء ، بقوله : اسمعونا هذه الاسماء حتى اذا كانوا « تحت الجناح» أغلقنا البحث في أمرهم والاّ تابعنا . ونرجو ان نعرف من منهم تحت الجناح لنشطبه من القائمة . وفي بعض الاحيان اشعر بان أحد الحزبيين قد لحقه ضيم او عنت فكنت أضع مصير الوزارة كلّها في الميزان ، فاما ان تستقيل الحكومة او ينصف المغبون .

حدث هذا مرّة من أجل نقل مدرّس من حلب الى دمشق .

وحدث من أجل تسريح مدرّس من اساتذة الجامعة مرتين .

وحدث من أجل موظف في المصرف الزراعي .

وحدث مراراً من أجل أمور أخرى .

وما كنت متعصّباً بغير الحق وانما انا مدافع عن شبان لا نصير لهم .

وسرت في اوساط الحكومة كلمة « المدللين » يطلقونها على البعثيين من موظفين ومواطنين وكانوا يستعملون الكلمة على مسمع مني قصد اتهامي بالانحياز ولكن كانوا يمزجون بها الدعابة والملاطفة .

وكنت مضطراً الى تعميم هذا المنهج ليشمل كل الموظفين فامنحهم الحصانة والصيانة بالاضافة الى مزاجي الخاص في ايجاد المعذرة للمواطن ما استطعت الى ذلك سبيلاً وعدم اللجوء الى القصاص والعقوبة الاّ في حالات شاذة .

وقامت مباحثات من جانب بعض الاعضاء الحزبيين تحثني على اعادة النظر في موقفي من الحزب وبحث امكان العودة الى « بعث البعث » . فكنت اقول لهم ان مواقفي صريحة . فانا لم اترك الحزب لانني تطوّرت وانتقلت الى مفاهيم جديدة تختلف عن دستور الحزب بل ان العكس هو الصحيح فأنا قد انسحبت لأني رأيت الحزبيين لا يتقيّدون بذلك الدستور وتعاليمه القوميّة . فاذا ما تأكدنا ان هناك إمكان العودة الى حقيقة الحزب فأنا اول من سيعيد النظر في هذه القضية . وعليكم انتم ان تعملوا الاحصاء اللازم وان تقوموا بالتمحيص لتروا اذا كان هناك فئات لا تزال على العهد وانها مستعدة الى السلوك في اطار الصوفية الحزبيّة .

واستمرّت المحاولات وقتاً طويلاً وكان المناخ حلواً خلال تلك المباحثات لكني كنت حذراً فأنا اخشى التورط في ميدان قد اضطر الى الخروج منه بعد وقت قصير او طويل ، فذلك يظهرني بمظهر المتردد او المتقلب ويكون مطعناً سياسياً عليّ . وقد قصصت على الاخوان من نواب الحزب قصّتين حدثتا لي خلال أقل من شهرين كنت فيهما مثال الحريص على مبادىء الحزب كما وردت وكما افهمها أنا وخلاصة القصّتين هي :

في اليوم الثاني من اعلان الانفصال قامت تظاهرات صاخبة نفخ فيها بعض الموظفين والمسؤولين الآخرين وحدث صدام في مدينة دير الزور ذهب فيه بعض القتلى من الاهالي . وقد جمع قائد المنطقة وكبار الضبّاط عدداً من وجوه المدينة واعيانها ونافذي الكلمة فيها والقى فيهم كلمة في نادي الضبّاط حملهم فيها مسؤولية ما جرى وقال لهم ان الجيش لن يقف مكتوف اليدين في حال الاخلال بالأمن وحذّر من التمسّك بالناصريّة او ما هو في معنى ذلك كما دعا الى ترك الحزبيّة والعمل في اطار الوطن كلّه .

وقلت أنا يومئذ ان المدينة غير مسؤولة . وان هتاف بعض الشبان باسم عبد الناصر هو أمر طبيعي ما دام عبد الناصر زعيماً من زعماء العرب ولا يجوز مؤاخذة الشبان عليه وان المنطقة كلّها وحدويّة تسير على مبادىء البعث العربي ولا تفرّق بين زعيم وزعيم عربي آخر ، والجيش لا يستطيع اقتلاع الفكر من اصحابه . وليس للجيش محاسبة أحد على قناعاته السياسية والفكرية وانما ينحصر عمل الجيش في قمع العصيان المسلّح والتمرّد على الدولة او ما هو في هذا النطاق . وانتهت الحادثة عند هذا الحدّ .

اما الحادثة الثانية : فقد جمع الجيش وقادة الانقلاب في نادي ضبّاط حامية دمشق أكثر من مئة من السياسيين والزعماء وقادة الفكر والتوجيه في سورية . وتكلّم الناطق باسم الجيش طالباً ترك الحزبيّة ومحذّراً من يعمل بوحيها . وكان من اقطاب البعث الذين لم يعلنوا استقلالهم عنه

السيدان صلاح الدين البيطار وأكرم الحوراني . ولما فرغ الناطق باسم الجيش من كلمته ، قلت : اني حضرت هذا الاجتماع وأنا اسير على دستور البعث العربي . والحزبيّة ممنوعة بقوة القانون ونفوذ الدولة ولكن ليس هناك قوّة تستطيع منع التفكير السياسي او الفلسفة السياسية من اي نمط كان ذلك التفكير وتلك الفلسفة . فاذا كنتم تقبلون وجودي على هذا الاساس فاني باق هنا والاّ فانني سانسحب من الاجتماع . وأعود فأكرّر القول ان الّذي يرسم خطّ السير لي هو دستور حزب البعث العربي .

وهنا قال أحد الحضور : الذي نعلمه ايها الأخ انك قد انسحبت من حزب البعث ولم تبق لك به علاقة . فقلت له ان المسموعات الّتي بلغتك خاطئة وقد اسيء فهمها او تفسيرها . فأنا قد انسحبت من الحزبيّين ولم انسحب من الحزب .

وهنا أعلن العسكري انه يقبل بوجودي وانه لم يقصد منع التفكير السياسي او الفلسفة السياسيّة . وقلت بعد فراغي من القصّتين على مسامع الاخوان من نواب الحزب : انني في تحركي السياسي مرتبط بدستور الحزب ولن أحيد عنه . لكن اصبحت اشك في ايجاد الكتلة الّتي تتقيّد بهذا الدستور وتدافع عن مبادئه .

ولم يستمر الوجود الديمقراطي بعد ذلك الاّ قليلاً فقام انقلاب الثامن والعشرين من اذار الذي مرّ ذكره آنفاً وتبعه مؤتمر الضبّاط وحوادث ابعاد الذين قاموا بالانقلاب . وبعد ذلك تمزّق شمل هؤلاء الاصدقاء وأصبح الاجتماع بهم عسيراً اذ تفرّقوا في مدنهم ومناطقهم .

٧- حُكمُ البَعث

انقلاب اذار

حدث في الجوّ السياسي السوري ما يمهّد لانقلاب اذار ١٩٦٣ . فقد حدث انشقاق ما بين جناحي الحزب فعاد البعثيون يعملون منفصلين عن الحزب الاشتراكي وقام التكتّل الاشتراكي يعمل وحده . ولا عبرة لانضمام فرد او افراد قليلين من هذا الى ذاك او من ذاك الى هذا .

وكنت أنا في علاقتي الحسنة انما اتعاون مع فئة البعثيين . ولم أكن مرتاحاً الى الاسلوب الذي سلكه الاشتراكيون في موقفهم من الوحدة اذ أن كتّاب هذه الفئة لم يقفوا عند حدّ الطعن على شخص او على نظام ، وانما اوصلوا المطاعن الى صميم الوحدة وقد زرعوا بعض الشك عند الناس في هذه الوحدة وفي قابلية تحقيقها .

وقد قام تحالف بين الناصريين وبين شق البعث في الحزب . فكان انقلاب آذار اعلاناً عن هذا التحالف لأن الحكومة التي تألّفت على اثر الانقلاب كانت خليطاً من الفئتين . وكان الضبّاط الذين نفّذوا العمليّة ايضاً من الجانبين . والدليل الاقوى من كلّ هذا هو أن سلطة آذار عندما مارست العزل السياسي فانّما قد عزلت زعيم الجناح الاشتراكي من الحزب وهو الاستاذ أكرم الحوراني . ولم يكن الأمر يخلو من ضغط أو توجيه من السيد عبد الناصر الذي لم يكن يرتاح الى منهج السيد الحوراني اثناء فترة الانفصال . كما انه لم يمرّ وقت طويل حتى قامت السلطات باعتقال الحوراني مع عدد من اصحابه . وهذا يؤيد ما قلناه من ان الحزب قد انشقّ وتحالف شقّ منـــه مع الناصريين

ولو الى أمد محدود ، ثم جاءت القطيعة بينهما بعد ذلك .

وانقلاب آذار لم يكن مفاجئاً بل ان رائحته كانت تزكم الانوف . وكان مؤتمر شتورا الذي شكَت سورية مصر فيه الى الجامعة من الحوادث الفاضحة . فقد تنكّر فيه الحكم السوري لابسط قواعد الاخوّة وخرج على كل الاعراف التي تربط بين العرب وأمعن ممثلو سورية في النكاية والتشفي الى درجة لم يسبق ان حصل موقف مثله في تاريخ العلاقات بين العرب . وكان الحكم مهلهلاً هزيلاً ، فان الوزارة كانت من انتقاء الضبّاط وقد اختاروهم من عناصر غير متماسكة ولا مترابطة وليست ذات منهج مشترك او مشرب متقارب .

وكان صيف عام ١٩٦٣ مسرحاً لتكتلات عسكريّة من مختلف الفئات . وفي آب من ذلك العام استمزجني بعض الضبّاط بواسطة بعض المدنيين في ما اذا كنت اقبل ان أكون الواجهة السياسيّة لعملية انقلابيّة يطيح بها الضبّاط بالحكم القائم . وهؤلاء الضبّاط تفرّقوا اليوم تحت كل كوكب ولم يبق منهم في القطر السوري أحد . ومن البديهي ان يكون جوابي الرفض المطلق لهذا الاقتراح . فأنا كنت أقود حملة العودة الى الديمقراطية كما يذكر المواطنون فكيف ابدل منهجي كلّه وارضى بعمل عسكري . بالاضافة الى ان مذهبي المستمر هو رفض الانقلابات العسكرية . وقد علمت يومئذ ان في الجو شيئاً . ولكن هؤلاء الضبّاط قد جمّدوا نشاطهم ولو الى حين . وعلمت بعد ذلك ان التكتّل العسكري الذي كان يعد للانقلاب كان مؤلفاً من الناصريين ومن المستقلين وكان العنصر البعثي فيه ضعيفاً قليل العدد .

اثر الثامن من شباط

في هذا التاريخ من عام ١٩٦٣ حدث انقلاب في العراق ضد حكم عبد الكريم قاسم وكان للبعثيين ضلع كبير وباع طويل في هذا الانقلاب . وقد تولّى الرئاسة عنهم عبد السلام عارف وهو ليس منهم ولكنه كبير

الضبّاط المتعاونين معهم . وان نفوذ البعثيين الواسع في العهد الجديد في العراق قد مكّن من ان يفرض الضبّاط البعثيين في سورية على التكتّل العسكري الذي قام بعملية الثامن من اذار . ولا شك في ان لانقلاب شباط (رمضان) في العراق اثراً كبيراً في انقلاب اذار السوري وبنفوذ البعثيين فيه .

ولم يكن الحكم في سورية متيناً بحيث يحتاج الى تهيئة خاصة . بل ان الحديث عن الانقلاب كان يجري علانية وعلى قارعة الطريق . وان الحكم في العراق كان يستطيع سند كل تحرّك يقوم في سورية ضد العهد ويقدر على حماية الانقلاب اذا تعرّض للفشل . وكاد الناس يكذبون حديث الانقلاب لأنّه كان يملأ الاجواء بلا تورّع ولا تحفّظ .

وما حلّ يوم الثامن من آذار الا واعلنت محطة الاذاعة في دمشق نبأ الانقلاب الذي لم يلق مقاومة كما انه لم يلق اهتماماً من الرأي العام اول الأمر فالشعب كان يجهل مرامي هذا الانقلاب كما ان الشعب قد ملّ وضجر من هذه العمليات . وسرعان ما أعلنت الدول القريبة والبعيدة ، العربية والاجنبية ، اعترافها بالعهد الجديد . وهذا الأمر قد ثبّت دعائم الانقلاب وركّز اقدامه واعطاه حرية التصرّف والانطلاق والقبض على ناصية الحال من غير تردد او وجل ما دام أصبح عهداً شرعياً يعترف به المجتمع الدولي .

ومن طريف ما جرى حول هذا الموضوع مما يثبت ان الناس كانوا يتوقّعون حدوث الانقلاب الحادثة التالية :

في السابع من آذار اي قبل الانقلاب بيوم واحد تلقّيت هاتفاً من القصر الجمهوري وكنت يومئذ في دير الزور والهاتف يطلب حضوري باسرع ما يمكن . وكان المتحدّث هو الامين العام للقصر . فقلت سأحضر فقال اليوم . فقلت ليس لديّ طائرة . والسيارة تحتاج الى تحضير وتهيئة . وليس في الامكان وصولي اليوم . لكن موعدي معكم غداً الساعة الرابعة او الخامسة بعد الظهر فسوف استقلّ السيارة ولن اتوقف في الطريق . وهذا يحتاج الى ما لا يقلّ عن عشر ساعات .

كان لي صديق يبيت عندي ليسافر معي الى دمشق في تلك الليلة . ولما سمعني أوصي السائق ليحضر بعد السابعة صباحاً اعترض وقال بل من الأفضل ان يحضر حول الخامسة ، فالمسافة بعيدة ، فقلت له يجب ان نسمع أخبار السابعة فقد نعدل عن السفر .

بتنا ليلتنا ، ولما حلّ موعد أخبار الصباح سمعنا من راديو دمشق البلاغات العسكرية واعلان الانقلاب . وقد سألني الصديق عما اذا كان لدي معلومات عن الانقلاب فقلت له ليس لي علم بشيء ولكن الدلائل تشير الى أن العهد المهترىء لن يستمر طويلاً . وكنت أعرف أن القصر ما استدعاني الآن بعدما تردّت الاوضاع ولم يعد يمكن ترقيعها فاراد ان يستعين بي في موضوع تأليف حكومة جديدة . وانا من قبل تحدثت مع رئيس الجمهوريّة على شكل مذاكرة لا على شكل تكليف بتأليف حكومة . وشرحت رأيي في الموقف وهو أنه لن تهدأ الاحوال او يتحقّق الاستقرار الآن بالعودة الى الديمقراطية وتسليم الشعب سيته . وكنت ارى ان يصار الى قيام حكومة تضمّ عناصر من كل الاطراف وتجري انتخابات حرّة ، وللشعب ان يقول كلمته ونحن سنقبل بحكم الشعب . ولم يكن رئيس الجمهورية ضد هذا الرأي ولكنه لم يكن يقـــدر على تحقيقه لأن الحكم في يد العسكريين وهم لا يرضون بالنظام الديمقراطي . ويبدو ان رئيس الجمهوريّة قد اضطر الى استدعائي ولو على الاساس الذي عرضته من قبل لكن الأوان كان قد فات وحدث الانقلاب .

نعود الى الثامن من شباط وهو اليوم الذي هيأ من العراق ليوم الثامن من اذار في سورية . فهذا اليوم كان دموياً وقد لقي فيه الشيوعيون بعض ما صنعوه من المذابح في الموصل وكركوك وبعض جهات أخرى في العراق ، والفئات القومية كانت مرتاحة . لكن اعلان اسماء الوزراء قد خيّب الأمل بعض الشيء لأن عناصر الحكومة لم تكن تغذي آمال الناس وترضي طموحهم الى تحقيق اهداف قوميّة بعيدة وبناء نهضة في الوطن .

وكما تقول ذلك عن وزارة الثامن من شباط في العراق فانك تستطيع

ان تقول مثله في وزارة الثامن من اذار في سورية فهي الأخرى قد احدثت شيئاً من خيبة الأمل في النفوس . ورئيس الوزارة الاستاذ صلاح الدين البيطار هو الشخص الوحيد الذي عرفته الناس وصقلته الألسن ولم يكن وقعه على الأسماع شديداً الى الحدّ الذي يخيّب الآمال . لكن ذلك لا ينطبق على سائر الاسماء فكثرتها من الشبّان المغمورين ، واذا كانوا معروفين في نطاق الحزب فانهم مجهولون في النطاق الشعبي الواسع .

التصفيـــة

ذكرنا ان حلف الثامن من اذار كان بين البعثيين والناصريين . وانه حلف استبعد الشق الثاني من حزب البعث واعني بهم الاشتراكيين . وثورة الثامن من شباط في بغداد قد قامت على البعثيين لا على الاشتراكيين فكان نفوذهم وقفاً على زملائهم في سورية .

هذه هي التصفية الاولى . اما التصفية الثانية فهي ارتداد البعثيين على زملائهم الناصريين واقصاؤهم عن الحكم بعد الثامن عشر من تموز يوم حاولت فئات من الناصريين الاستيلاء على السلطة . وتفرّد الشق البعثي من الحزب في الحكم في كل من سورية والعراق .

وحدث تعاطف بين القطرين وتقارب وقامت محاولات لتحقيق شكل من اشكال الاتحاد . وقد ابرمت اتفاقية اتحاد عسكري . وانجد الجيش السوري زميله الجيش العراقي وحارب معه العصاة في شمال العراق . لكن هذه الموجة من التقارب قد توقفت بعد انقلاب الثامن عشر من شهر تشرين الثاني الذي قام به عبد السلام عارف ضد البعثيين في العراق واقصاهم به عن الحكم وهو الذي يسميه البعثيون « الردة التشرينية » . واعيد اللواء السوري من العراق (مشكوراً) . وظهرت الجفوة بين الحكومتين واصبحت الجفوة خصومة وعداوة مع مرور الزمن .

ولقد كان من بين البعثيين في العراق اعوان لعبد السلام عارف

ساهموا في القضاء على حكم البعث . وكانت الخلافات المحلية والشخصيّة ، وكان للامزجة الملتهبة والتصرفات الارتجالية اثر في مثل هذه المواقف . وقد أخذ الوجود البعثي يتضاءل تدريجياً في العراق لكنه عاد الى الظهور ثانية مما دلّت عليه حركة تموز من عام ١٩٦٨ التي قد نأتي عليها في ما بعد .

ولم تقف التصفية عند هذا الحدّ بل انها استمرّت في القطر السوري متلاحقة . وقد اقصت حركة شباط ١٩٦٦ فئة من الحزبيين . وهذه الحركة قد اقصتها فئة اخرى في تشرين الثاني من عام ١٩٧٠ . ولا تزال هذه هي المسيطرة في سورية الى حين كتابتنا هذا الكتاب .

المقابلة بالمثل

كان المفروض ان يتدخّل البعث في سورية لنجدة البعث في العراق حينما قام عبد السلام عارف باقصاء البعث هناك . وهو يوم بيوم . اذ ان لبعث العراق يداً في قيام بعث سورية . لكن ذلك لم يمكن تحقيقه لأن التمزّق قد حلّ في حزب العراق وليس هناك هيئة تامة التكوين يمكن الارتكاز اليها سياسياً . كما ان سمعة البعث في العراق قد تدهورت مما ارتكبه الحرس القومي من اساءات بحق المواطنين . وقيادة البعث في سورية ايضاً كانت مختلفة الاراء متباينة الاهواء وان كثيراً من القادة في سورية كان يرى ان ما حلّ في فرع العراق هو الجزاء الوفاق وانه لا يمكن الدفاع عن هذا الاسلوب الذي سار عليه الحزب هناك .

ولقد اختفى البعث من الميدان في العراق كما انسحب كثير من زعمائه من الحزب . وانضم عدد منهم الى عبد السلام عارف وعملوا معه في الحكومة . وهذه أمور قد بعثت اليأس في كثير من اطراف الحزب في كل من سورية والعراق.

ولم يكن هناك صلة ظاهرة بين فرعي الحزب.اذ ان الركود قد لفّ فرع العراق ، وان الخلافات الداخليّة ايضاً قد عصفت بالفرع

السوري فشغل كل منهما بنفسه وفي حدود القطر الذي يقيم فيه . وانكسر خيال كثير من القوميين العرب وتضعضعت ثقتهم في امكان قيام حكم بعثي سليم قادر على المعالجات القوميّة المبشّرة بمستقبل زاهر للعرب .

اذار : انقلاب ام ثورة

حرص البعثيون في سورية على تسمية انقلاب اذار ثورة . اذ أن للثورة معانيها العظيمة اجتماعياً وسياسياً وفكرياً . اما الانقلاب فهو الحركة العسكرية التي تستولي على السلطة بقوة السلاح بلا اهداف واضحة او برامج مرسومة .

وكانت السلطة البعثية قادرة على اضفاء اسم الثورة على حركة الثامن من اذار لو هي شاءت ان تفعل . وذلك بأن تحقّق الرغبات القوميّة والاجتماعية على الشكل الذي يتلاءم مع الواقع العربي النفسي والاجتماعي . ولكنّها لم تفعل . وهي لم تفعل لأن هذه السلطة لم تكن سلطة واحدة وانما كانت سلطتين . وكان الحكم ازدواجياً تتقاسمه فئتان مختلفتان في التفكير والمزاج والمستوى العقلي والاداري وفلسفة الحياة . وللحكم ظاهر وباطن . اما الظاهر فهو الحكومة المدنيّة . واما الباطن فهو الجهة العسكريّة التي ترسم وتنفذ الأمور وفق رغباتها وأهوائها.

وسلك حكّام ثورة الثامن من اذار مسالك اعطت منها بعض الحق ليقول الناس فيها اقوالاً تصف ظواهر الأمور البادية للعيان .

فهي في نظر هؤلاء الناس :

ثورة الاقليات الطائفية على الاكثرية .

وثورة الريف على المدن .

وثورة الفقراء على الطبقات الموسرة وحتّى على المتوسطة .

وثورة الجهل على العلم وذلك برفع الجهلاء من الحزبيين وخفض العلماء سواهم .

وثورة التحلل وقطع الاواصر الاجتماعية على المروءات والاخلاق العربية .

ثم هي فوق ذلك ثورة الالحاد والمروق على الدين ومناخه الروحي .

وثورة المصالح الماديّة على المعاني السامية والمصطلحات الانسانية .

وثورة الماركسية على القومية وتراثها العربي الثمين .

وسواء أصحت هذه الاوصاف ام لم تصح فان للقائلين مجالاً للقول يستمدونه من ظاهر الحال .

وكما تقول في هذا عن الثامن من اذار يمكنك ان تقول مثله بل أكثر منه عن ثورة شباط في العراق بعد نجاحها . فالثامن من اذار ابقى على بعض الحرمات وابدى حرصه على بعض المقدسات وعمل ما أمكن العمل على صيانة دماء المواطنين وحفظ كرامتهم ولو الى حدّ محدود .

اما في العراق فان الشكوى قد ملأت دنيا العرب والعجم من هتك الاعراض وسفك الدماء ونهب الارزاق والأموال . وقد تكون هذه الشكوى مبالغاً فيها الى حدّ بعيد . لكن الشيء الأكيد هو أن لها اسباباً وانّها لم تنطلق من غير أساس والخصوم لا بد من لجوئهم الى التهويل .

وفي سورية كما في العراق تولى الامور غير الاكفياء ولم تكن لهم من المؤهلات الاّ حزبيّتهم . وادارة الدول تحتاج الى حد ادنى من المقدرة والكفاءة والمران . وما لم يتوافر هذا الحدّ فان الامور تسير نحو الانحدار ولا يشفع فيها لا حزبيّة ولا محسوبية ولا شعارات .

والذي لا شك فيه ان العهود السابقة لعهدي البعث في سورية والعراق كانت تتمتع بكامل الكفاءة اذا قيست الى كفاءة الحزبيين . وان شعار « الحزبية فوق الكفاءة » الذي طبّقه الحزب قد هوى بالحكم الى مستوى لم يعد ينفع فيه الترقيع بل انه اورث القلق والارتباك في جهاز الدولة وفي كل مجالاتها .

وخلاصة الرأي عندنا أن انقلاب اذار هو انقلاب كسائر الانقلابات التي سبقته وقد بيّنا هذا الرأي في مذكرتنا التفصيلية التي بعثنا بها الى رئيس الجمهوريّة عام ١٩٦٤ والتي لخّصنا فيها مأخذنا على العهد والتي

سنكتفي بنشرها في آخر الكتاب فهي تغنينا عن كل ما سنقوله بحق عهد البعث بالاضافة الى بعض المذكرات الاخرى .

لكن هناك امور لم تكن واضحة في تلك المذكرة فهي موضوعة بعد استلام البعث للسلطة بعام واحد . ولم تكن الاخطاء قد استبانت على حقيقتها لذلك لم يرد لها ذكر . وعلى ذلك فاننا سنتداركها ونذكرها ولو باختصار اتماماً للفائدة .

١ ـ الامعان في المحافظة على الاستقلال القطري في كل من سورية والعراق خلافاً لمبادىء الحزب في الوحدة كما تبين في المحادثات الثلاثية مع مصر .

٢ ـ القبول بالسلطان العسكري وخضوع الجانب المدني خضوعاً تاماً للعسكريين مما يتنافى مع مذهب الحزب في عدم توريط الجيش في السياسة .

٣ ـ اقامة حكم دكتاتوري لا صلة له بالشعب استناداً الى اقوال فاقدة الدلالة من حكم الطليعة والنخبة والحزب الرائد او ما هو مثل هذه الالفاظ .

٤ ـ طي البحث نهائياً في موضوع حكم الشعب لنفسه بحجة ان الشعب قاصر وانه يحتاج الى وصي والوصي هو « الحزب الرائد » . ومعنى هذا وأد الديمقراطية والحكم الدستوري والنظام النيابي .

٥ ـ فتح الباب على مصراعيه للكثير من الانتهازيين والمنتفعين الذين اساءوا الى العهد بجشعهم وخروجهم على النزاهة والعفة والتجرّد .

البعث ـ الدولة

كان حزب البعث محدود العدد لأنه حزب . لكن الحزب أصبح دولة في العراق بعد الثامن من شباط او قل بعد تموز من عام ١٩٦٨ . وفي سورية بعد عام ١٩٦٣ . وقد تزايد عدد المنتسبين اليه حتى اصبح اضعاف اضعاف عدده يوم كان حزباً ولم يكن دولة .

فما هو معنى ذلك ؟ لقد حصل الازدياد من جهتين . فالدولة قد اعتبرت اجهزة الدولة بعثية والعناصر غير البعثية فيها قد اصبحت بعثية حتى لا تفصل عن مراكزها . وكذلك الاشخاص الذين يبحثون عن مصالحهم الخاصة قد انضموا الى البعث ليضمنوا تلك المصالح وهم يعرفون انهم لن يحوزوا على تلك المصالح ما لم يكونوا بعثيين .

والحزب قد اصبح شاملاً بحيث ان الدولة برمتها قد صارت جزءاً من الحزب بينما الأمر في بلاد الناس على غير هذا الاعتبار . فالحزب هو جزء من الدولة اللهم الا في الدول الشيوعية التي حذا الحزب حذوها وسار في طريقها في هذا الميدان .

وهذا التزايد ليس نمواً طبيعياً كما هو واضح وانما هو ركام واتربة وغبار تجمع فتضخم به البنيان . وانه ركام يختلف في تركيبه عن ذلك البنيان وهو ملتصق به وليس نابعاً منه واذا تعرض لريح شديدة او لهزة من الهزات انفصل الركام والتراب عن الجسم الأصيل فعاد صغيراً الى حقيقته التي كان عليها .

فالذين انتسبوا الى الحزب بعدما أصبح الحزب دولة ليسوا حزبيين بالايمان والعقيدة والعفوية وانما هم من أتباع الحزب وسواده وكان انضمامهم اليه بالارادة والحساب والتعقل والأمل بالانتفاع .

ولو عرضت للحزب محنة فانه لن يجد من يدافع عنه من بين هؤلاء الحزبيين الجدد الذين تحزبوا ليحتلبوا الحزب ويستثمروه ويستغلوه. ولكنه يجد المدافعين عنه من بين الحزبيين الاوائل وهم الذين انتسبوا الى الحزب يوم لم يكن الحزب ينفع اعضاءه . بل قل انتسبوا الى الحزب والحزب يجلب لهم الضرر دون المنافع . فهذا كان الحزب اول تأسيسه .

والاحصاءات تظهر اموراً عجيبة في كيان حزب البعث ـــ الدولة . فقد انخرط فيه الشيوعيون والسوريون القوميون والشعوبيون من كل الفئات . وما قصد هؤلاء الا الاستفادة والانتفاع من دولة الحزب . وكما قلت في مناسبة سابقة فان الحزب لم يعد يبحث عن النوعية والمعدن

الصالح الذي يحوي القابلية للنهج البعثي بل انه اصبح يهتم بالعدد وحده . فلا النسب العربي ولا الخلق العربي ولا الايمان بالقومية ولا اي شيء من هذا يعتبر اليوم شرطاً من شروط الحزبي .

واني اذكر بهذه المناسبة وضع مدينة من مدن سورية لتكون نموذجاً للحزبيّة في هذا الظرف .

فرئيس البعث كردي او تركماني ورئيس الاتحاد الاشتراكي كردي ورئيس الوحدويين الاشتراكيين كردي . ورئيس الشيوعيين كردي . وهؤلاء الاربعة هم اعضاء الجبهة التقدميّة التي تتحكم في مصير الوطن السوري والتي تطمع أن تتحكّم في مصير الوطن العربي كله بعد ذلك .

ولم يقم في ذهن قيادة الحزب ان تسأل عن هؤلاء المتدفقين الى الحزب اين كانوا قبل ان صار الحزب دولة . واين كان موقعهم عندما كان الحزب يناضل الطغيان والدكتاتورية والتسلط ويتعرّض لسخط الحكومات المتعاقبة .

التشكل الكاذب

ولقد فطنت بهذه المناسبة الى ما قاله شبنكلر في كتابه الشهير « سقوط الحضارة الغربيّة » وانا سألخّص ذلك . فقد وضع ذلك المؤلف في كتابه عنوان « التشكل الكاذب » لبحث سرده .

فهو يرى ان بنياناً قد يقوم على غير الحقيقة ويخدع بمظهره الناظرين . فقد تكون هناك صخرة صماء . فتأتي الرياح اليها بالغبار والتراب الذي يستر مع الزمن سطحها وبعد ذلك يتكاثر الركام ويزداد التراب فيصبح طبقة فوق هذه الصخرة ولا يرتاب الناظر الى هذا الجسم في انّه جسم ترابي حتى اذا حاول استثماره زراعياً وكشف عنه الطبقة العليا تبيّن له ان هذا الجسم ما هو الاّ صخرة ملساء وان هذا التشكّل تشكل كاذب .

ويمكن تطبيق وضع حزب البعث على فرضية شبنكلر فان هـذا الركام من الحزبيين الذي استقرّ فوق سطوح الحزب ليس الاّ تشكلاً كاذباً لا يعبّر عن الحقيقة في شيء . ولا يمكن الاعتماد على هذا الركام لأنه لا يلبث ان يزول ويتبعثر وتذهب الرياح به كما جاءت به وبعد ذلك تظهر الحقيقة ويعود كل شيء الى بنيانه الصحيح .

وعلى ذلك فان الحزبيين القدامى على ما فيهم من علل واسواء يظلّون في نظر الحقيقة افضل من الحزبيين المحدثين الذين امتصّوا كل شيء من الحزب ولم يمنحوا الحزب شيئاً من جهودهم . وهم متعلّقون بالحزب ما دام الحزب مصدر خير ومنفعة لهم وهم ينفضّون عنه في اول يوم تتهدد فيه المصلحة او يكلّفهم الحزب شيئاً من التضحية والجهد . وليس قادة الحزب – الدولة اليوم – غافلين عن هذه الحقائق ولكنهم يسيرون في خطة ووفق فلسفة لها بعض الوجوه الجدليّة .

فالحزبيّة وكل عقيدة او منظمة يصير الانضمام اليها على صورة من صورتين . فامّا ان يحلّ الايمان بهذه المنظمة او العقيدة في نفس المرء فيسوقه هذا الايمان الى الانضمام اليها . والمثل على ذلك هو أن الانسان العربي كان يؤمن بالاسلام ثم يعلن اسلامه وينضم الى الجماعة الاسلامية . واما ان ينضمّ المرء الى المنظومة قبل ان يؤمن بمبادئها ويصبح واحداً من جمهورها ثم بعد ذلك وبالتعايش مع أهل العقيدة والاختلاط معهم يحلّ الايمان في نفسه ويصبح مؤمناً . وقد وقع في الاسلام شيء من هذا ايضاً فقد تدفقت اعداد كبيرة في الاسلام قبل ان تؤمن . ومع الزمن عدت من المؤمنين سواء آمنت حقاً ام لم تؤمن . فالمهم في نظر القيادات السياسية ان تصبح تلك الاعداد من الناس اتباعاً ورعايا تسير في فلك الحركة اينما سارت . وهذا الايمان هو الايمان المعكوس . اذ الأصل ان يكون الايمان موصلاً الى الحزب لا أن يكون الحزب موصلاً الى الايمان الاّ في حالات شاذة لا يقاس عليها .

نعود الى تطبيق هذه النظريات على حزب البعث لنرى ان الجمهرة الكبيرة من اتباعه اليوم دخلوا في الحزب قبل الايمان بمبادئه والكثرة

من هذه الكثرة لا تحمل قابلية الايمان به لأنها تؤمن بمفاهيم غير مفاهيمه، وهي مكوّنة تكويناً تاماً وان النفوس فيها مملؤة بامور أخرى وليس للحزب ولا مبادئه مكان شاغر في تلك العقول لتأخذ مكانها منها .

الحزب وتوزيعه قبل أن يصبح دولة

ولن نختتم هذا البحث الاّ بعد أن نعطي فكرة عن فروع الحزب في الوطن السوري وفي الاقطار العربيّة قبل ان يصبح الحزب دولة وقبل حلّ قيادته له في زمن الوحدة .

١ – اما في القطر السوري فان فرع الحزب في المناطق الشرقية كان كبيراً وكان يتوقع له ان يصبح المؤثر الاول في أكثر من مليون نسمة من المواطنين . ولكن الحوادث التي اشرت اليها سابقاً قد جمّدته .

٢ – واذا بحثنا عن الحزب بمجموعه اي بجناحيه فان فرع حماة وملحقاتها يعد في طليعة الفروع السوريّة .

٣ – ويأتي بعد ذلك فرع دمشق ثم حلب وسائر المدن السورية . وكانت الأرض خصبة في اوساط الطلاب لنمو الحزب لولا ما طرأ على ذلك من مضاعفات نجمت عن تصرفات لم تكن من اساليب الحزب السالفة مما لا نرى سبباً للافاضة في شرحه .

اما في الاقطار العربيّة الأخرى فان فرع الاردن كان كبيراً بل كان أكبر الفروع خارج سورية . وكان من المتوقع أن يكون هو صاحب الافاعيل في الحزب والوطن بعد سورية . الاّ ان ذلك التوقع لم يتمّ بل ان فرع العراق هو الذي نبغ من بين كلّ الفروع وصعد حتى استولى أخيراً على السلطة واقام حكومة بعثية تامة . والحقيقة هي ان هذا أمر مفاجيء وانه يسترعي الانتباه والتمحيص مما قد نعرض له في بحث لاحق .

وفرع الأردن كان كبيراً لأن الحزب لم ينطلق من خواطر مرتاحة او نفوس مطمئنة وانما كان من اسباب انطلاقه ما لقيه العرب من تحديات

تمسّهم في صميم وجودهم . والقطر الاردني قد واجه التحدّي الصهيوني وتعرّض الى خطر الفناء فكان بدهياً ان تكون ردة الفعل ما تحويه مبادىء حزب البعث العربي . كما ان مناخ الاردن السياسي الذي كان يعطي بعض الحريّة الى المواطنين قياساً الى الكبت المطلق في العراق قد اعطى إمكاناً لفرع الحزب في الاردن ان ينمو ويزدهر .

صحيح ان التحدي قد شمل كل بلاد العرب لكن الشعور بالتحدي كان متفاوتاً بين الاقطار العربيّة . فالقطر المطمئن بعض الشيء الى كيانه لم تصبه هزة التحدّي والقطر غير المرتكز الى حماية تنجيه من الاخطار قد تعرض للهزة أكثر من غيره .

ويمكن المقارنة بين لبنان والاردن في هذا المقـــام . فلبنان يشعر بالاطمئنان لأنه في حمى الموجة العالمية وفي حمى بعض الدول الكبرى التي تتعاطف معه . فلا خطر من اسرائيل عليه وسواء أكان هذا الأمر حقاً ام باطلاً فانه كان قناعة الكثير من اللبنانيين ومن هنا حدثت الطمأنينة.

اما الأردن فليس لديه مثل هذه المشاعر . لذلك فهو قلق مضطرب على المصير . وحزب البعث في مبادئه يطفىء غلة المشاعر العربية الملتهبة ويبعث في النفوس الأمل . وهذا هو السرّ في قوة فرع الحزب في الأردن ونشاطه يومذاك .

والملاحظ ان المدّ البعثي قد كان ذا اثر جغرافي . بمعنى ان الاقطار القريبة من سورية كانت تقبل الفكرة البعثية . بينما الاقطار البعيدة ظلت موصدة في وجه الحزب . فليس في الجزائر والمغرب او السعودية مثلاً هذه الموجة البعثية التي انتشرت في الاردن والعراق ولبنان .

ولعل البعد المكاني يحتاج الى زمن اطول ، وكان الأمل معقوداً على الزمن كي يوصل البعث الى الاقطار البعيدة . لكن البعث توقف من حيث انه حزب وامتد من حيث انه دولة .

حقيقة انقلاب شباط

انقلاب شباط في العراق يختلف عن انقلاب اذار في سورية من

حيث الخصومة ومن حيث الحسم القومي .

ففي العراق يقوم حكم شعوبي شيوعي يزدري الأمّة العربيّة ويعمل على الحط من شأنها واهمالها . وقد انطلقت منه امواج فتكت بالمواطنين وخلقت من المآسي ما تقشعرّ له الابدان . فالعروبة في العراق اذاً كانت في محنة وكانت تخضع لتحديات عنيفة من جانب خصومها . فالانقضاض على عهد مثل هذا العهد تحتمه القومية وتوحي به العزة والحفاظ على الكيان والتراث والوجود للامة العربية .

اما انقلاب اذار فلم يكن الأمر كذلك . فالحكم في سورية يومئذ لم يكن شعوبياً ولكنه مهلهل ضعيف خاضع للحكم العسكري مستسلمٌ لبعض المتسلطين من ضباط الجيش .

والانقضاض عليه لا يعالج مشكلـــة قومية وانما قد يعاني مشكلة اجتماعية او سياسية ومن المستويات الخفيفة أيضاً . ولم يكن انقلاب اذار مرداً لاعتبار الأمة العربيّة ولا انتقاماً لشرفها المثلوم وكيانها المهدّد كما هو الحال في انقلاب شباط في العراق . ومن وجهة النظر هذه فان المبررات القومية لانقلاب شباط هي اوفر وامتن من المبررات لانقلاب اذار. هذا من الناحية الوصفية لا من ناحية ايماننا نحن بصحة الانقلابات العسكريّة والموافقة عليها . لكن الى جانب رأينا هذا تقوم اراء أخرى تحتل الموقع المقابل فهي تطعن في العملية كلها وتنسب اليها اموراً استنباطية، الدلائل الحسيّة عليها ضعيفة ولكن لا بد من ايراد أهم ما فيها حرصاً على سلامة البحث :

١ ـ قيل ان انقلاب تموز ١٩٥٨ الذي قام به عبد الكريم قاسم على الحكم الملكي كان مخططاً له من الصهيونية والامبريالية والشيوعية مجتمعة . فالشيوعية تتخلص من اعداء لها هم حكّام العراق . والصهيونية ترسم لاثارة النزعات العرقية وتمهد لقيام دولة كرديّة في شمال العراق على نحو ما . اما الامبريالية فهي نصيرة الصهيونية ومن الاحسن لها ان تتمزق الكيانات وتضعف ليكون وجودها هي اقوى .

واتجهت النية الى اقامة الدولة الكردية على يد الفئة القومية المتطرفة

في عروبتها حتى لا يكون لأحد من الفئـــات المعتدلة الأخرى حق الاعتراض . وعلى ذلك سهلت الجهات الاجنبيّة لقيام انقلاب شباط ١٩٦٣ .

٢ - زيادة على ذلك فان الطائفية التي تمزق وحدة الوطن يجب ان تبرز الى الوجود وتعمل عملها في كيان العراق . فكانت عهود البعث تظهر عليها مسحة التعصب. والتبرير هو ان الطائفة الشيعيّة ليست مخلصة في ولائها للعراق وانما هي مزدوجة الولاء . وولاؤها مقسم بين ايران الشيعي والعراق العربي .

٣ - لا بد من عرض المساوىء التي وقع البعث فيها على انظار الشعب في العراق لينفر من البعث ويتبع نفرته هذه نفرة من الشعارات التي ينادي بها وهي الوحدة والحريّة والاشتراكية .

٤ - ان ما ظهر على افراد البعث من انتهاز واستغلال وما صنعه الحرس القومي قد سبب للشعب متاعب ما يزال يئن تحت وطأتهـــا . والمخطط الاجنبي يريد هذا لتعمق الهوة وتتسع الفرجة بين الفئـــات الوطنية والقومية ويصعب الالتحام . والعراق هو ركن متين من اركان العروبة ومن الأفضل تمزيقه وشل حركته في نظر الاعداء نتيجة لسيطرته على الحكم وفشله وتعسّفه .

ومهما تختلف الاقوال فان انقلاب شباط يمكن اعتباره دفاعياً لأن الكابوس الجاثم على الوجود العربي يومئذٍ في العراق يحفز العرب على اختلاف احزابهم ليعملوا على التخلص من هذا الكابوس . ولما كان الخصم عنيداً والثقل شديداً فانه كان لا بد من استعمال العنف في هذا الانقلاب . ومن هنا انطبع انقلاب شباط بطابع العنف . على ان هذا لا يُعدّ تبريراً منّا لما جرى . فالعنف اذا كان مشروعاً في حالة الدفاع فانه لا بد ان يقدر بقدره ويقف عند الحدود التي لا ضرورة لتجاوزها . ولا شك في ان العنف قد جاوز ذلك في نظرنا . واذا كنّا نقول هذا فاننا نقول ان انقلاب شباط ما كان يمكن ان يتمّ بغير عنف لأن المقاومة قوية وضارية .

امّا انقلاب اذار فان ظروفه وواقعه لم تكن مثل ظروف شباط ويمكن اعتباره هجومياً ، والخصم لم يكن شديداً والصراع بينه وبين الخصم لم يكن صراعاً على أمور جوهرية كالتي جرى الصراع عليها في العراق والتي يمكن تلخيصها بانها « القضية العربيّة » .

ومن هنا فان انقلاب اذار جاء سلمياً لم تسفك فيه الدماء . والمأخذ الكبير الذي اخذه اذار على العهد الذي اطاح به هو أنّه عهد انفصالي . وهو عهد انفصالي حقاً ولكن لم يكن يتخذ من الانفصال فلسفة وسلوكاً دائماً . وكان المفروض ان الانقلاب ينقل العهد من انفصال الى وحدة او اتحاد او ما هو شبيه بذلك ، ما دام السلاح القوي الذي تسلّح به الانقلاب هو أن العهد هو عهد انفصال . لكن الذي حدث هو أن الانفصال قد كسب صفة الديمومة بل انه قد كان يجد التبرير والفلسفة لوجوده . ومحادثات الوحدة الثلاثية في مصر بين الاقطار الثلاثة قد اثبتت ان البعث بجناحيه السوري والعراقي لم يكن جاداً في تحقيق الوحدة الثلاثية . ولسنا في صدد الرئيس عبد الناصر لأننا نبحث عن البعث ولو شئنا تجاوز البحث لقلنا ان عبد الناصر لم يكن هو جاداً ايضاً في تحقيق الوحدة . ولم تكن الوحدة الثنائية ايضاً بين القطرين البعثيين موضع بحث جدّي لدى البعثيين .

واذا كان الوضع في العراق هو صراع بين العروبة والشعوبية وهو صراع اساسي يتناول مصير العراق ويتصل بمصير الأمّة العربيّة وان الانقلاب عملية لا بد منها فان الوضع في سورية لم يكن يشبه ذاك . لأنّه ليس للعروبة في سورية خصم يستطيع ان يتحدّاها . والصراع قائم حول الامور الثانوية . اذ الامور مهما تكن من الاهمية فانّها تظلّ ثانوية بالقياس الى الأمر القومي الذي يهدّد الوجود العربي بكامله . فالصراع إذن يدور حول امور فرعية اجتهادية من اقتصادية واجتماعية وتنظيمية ، تحقيقها لا ينقذ الوجود العربي وعدم تحقيقها لا ينذر ذلك الوجود بالخطر .

والحقيقة هي أن الاوضاع في سورية لو تركت على طبيعتها من

التطور الذي تدفعه الرغبة العامة الى الظهور لتحقق الغرض ، وان الوعي المتزايد في سورية ، الذي يضمن التطوير ، كان يكفي في الوصول الى ما وصل اليه الانقلاب بزيادة شيء واحد على ما يهدف اليه ، وهو سلامة المسيرة وعدم احداث الانشقاق والانقسام والاحقاد والضغائن بين المواطنين . ومعنى ذلك ان انقلاب اذار يمكن الاستغناء عنه كما لا يمكن الاستغناء عن انقلاب شباط .

بداية عهد البعث

قد تصدر الاحكام على عهد من العهود أول قيامه . والحكم مستمد من قناعات قديمة وهو مبني على الماضي لا على الحاضر . لكن هـذا الحكم لا يصدر عن الفئة الرصينة اذ هذه تجنح الى الحكم من خلال الاعمال الجديدة ولا يمكنها ان تستند الى ما حفظته من معلومات سابقة عن رجال العهد .

وقد كنّا ننتظر ما سيقوم به الثامن من اذار لنصدر حكمنا عليه فماذا صنع العهد في بدء قيامه :

١ – قام بعملية عزل سياسي شملت الكثيرين من السياسيين ورجال الفكر في سورية . ولم يسلم حتى زملاء الانقلابيين من هذا التدبير . ولم يسلم من الساسة البارزين من العزل الا اثنان أحدهما الاستاذ رشدي الكيخيا الذي لا نعرف سبب استثنائه . اما انا فقد عرفت السبب فان اسمي قد وضع على بساط البحث ولكن عدداً من الضبّاط من تلاميذي واصدقائي قد استهجنوا الاقتراح وردّوا المقترح ردّاً عنيفاً . وانا لا أظن ان زملائي السابقين في حزب البعث ممن كان يضمّهم المجلس الوطني الذي اخذ قرار العزل لا اظنّهم راضين عن امكانية عزلي سياسياً ولكنهم كانوا مستسلمين للسلطة العسكرية . فهي صاحبة الأمر والنهي والحلّ والعقد .

وليس يخلو ولا واحد من هؤلاء الساسة المعزولين من انصار . وقد

غضب لذلك هؤلاء الانصار فكان أن الشعب السوري بأكثريته قد استنكر ذلك ثم استاء من قيام العهد الجديد .

٢ ـ كانت محادثات الوحدة الثلاثية فاشلة ، وهي التي جرت في الشهر الثاني من الانقلاب . والوحدويون الحقيقيون أنسوا من خلال المباحثات ان الأمر لم يكن جداً عند جماعة اذار ، وان المباحثات لم تكن الا لكسب الوقت .

هذا من الوجهة العامة . اما من الوجهة الخاصة فان حكّام اذار لم يثبتوا وجودهم ولا كفاءتهم ولا مقدرتهم امام الرئيس عبد الناصر الذي كان يتلاعب بهم ويأخذهم طوراً ذات اليمين وطوراً ذات الشمال. وكان الاستخذاء بادياً عليهم وكان وضعهم معه وضع الطلاب الذين يتلقون الدروس عن استاذ لهم . ووقفوا امامه وكأنما هم متهمون وهو قاضي تحقيق يحقّق في صحة الاتهام او عدمه .

وقد حمّلهم عبد الناصر مسؤولية فكّ الوحدة المصرية السورية ودمغهم بها فما استطاعوا الدفاع . مع أن الرأي العام ليس في سورية وانما في كل العالم يعرف ان المسؤول الأول عن فك الوحدة انما هو عبد الناصر نفسه . فقد كان السلوك يومئذ موصلاً حتماً الى الفك . فامّا ان يكون قاصداً هذه النتيجة وذاك المصير واما ان يكون غافلاً عما يجري والأمران احلاهما مرّ .

والخيال العام قد تحطم نتيجة هذه المباحثات . فالوحدة قد ابتعدت وثبت عجز حكّام اذار وفقدانهم الكفاءة والمقدرة على ادارة شؤون الدولة .

٣ ـ قامت المزايدات بين حكم اذار وبين عبد الناصر . والمزايدات كانت تجري على حساب الشعب ومصلحته . وقد اتخذت قرارات بالتأميم وأخرى بشأن الاصلاح الزراعي والتجارة الخارجية وما الى ذلك من تصرفات كانت كلّها ضربة للشعب حدت من رزقه وزادت في قلقه وجعلت كل قادر على الرحيل والهجرة يفكر في الرحيل والهجرة . وزادت هذه المشاعر بالهجرة وكثرت المحاولات مع الزمن حتى يمكن

القول ان المال والعلم كليهما قد غادرا القطر السوري وهاجرا الى حيث يجدان مناخاً صالحاً لهما في اي مكان تحت الشمس . وقد تفرغت سورية من هذين العنصرين تفرغاً يكاد يكون تاماً .

٤ ـ تعطيل كل الصحف في سورية باستثناء جريدتين هما « البعث» للجناح البعثي في الحكم و« بردى» للجناح الناصري الآخر في الحكم . والصحف لم تكن ذات منهج يختلف كثيراً عن ارادة الحكم الجديد ويمكن للحكم ان يقنعها بالسير في ركبه . لكن كانت هناك احقاد يحملها بعض الحكّام على تلك الصحف فالغاها دون تعويض ولا مقابل مما عرض اصحابها وكتّابها والعاملين فيها الى العوز . باستثناء توظيف بعض الصحفيين في وظائف الاعلام وبرواتب هزيلة جداً .

٥ ـ اعتقال عدد كبير من السياسيين بدون اية مقاومة ظهرت منهم للعهد الجديد .

٦ ـ نشر جو من الارهاب الفكري والمادي مما اذل المواطن العربي السوري ثم جعله يميل الى استعمال النفاق تقية وتخلصاً مما يهدّده من مصير أسود وبدلاً من ان يذهب حكم البعث الى نفخ الأباء والانفة في النفوس فانه قد راح يستلّ ما في النفوس من بقايا لهذه الصفات التي هي ضرورة لمواجهة العدو الذي يقف على حدودنا ويتربص بنا كما فعل بعد ذلك في حزيران عام ١٩٦٧ .

٧ ـ احتكار السلطة كاملة واسقاط الشعب كله من الحسبان واعتبار الحزب هو المادة الوحيدة في هذا الوطن . وهذا ادّى الى قلب الدولة الى جزء من الحزب . وعلى ذلك فان الحزب يجب ان يتولى وحده جهاز الدولة . ولما كان عدد الحزبيين لا يكفي لملء الجهاز وكانت كفاءات الحزبيين غير كافية لممارسة هذه المهمة فانه قد تسرّب الى الحكم طبقة من العجزة والخاملين والمرتزقة وهذا كله قد هبط بمستوى الحكم وسبّب له التخلخل والانحراف والسير مرغماً في غير الطريق المرسوم له . وهو الأمر الذي تضج البلاد منه بالشكوى المريرة والذي لم يستطع الحزب تصحيحه او تقويمه الى اليوم . هذا الوصف هو وصف الثامن من اذار.

فما هو وصف الثامن من شباط في العراق . وهنا نلفت انتباه القارىء الى ان بحثنا هو على البعث كله لا على جزء منه . وانا ارى ان الدسيسة الاجنبيّة هي التي تقول عن البعث في العراق انه البعث العراقي وعن البعث في سورية انه البعث السوري . ذاك ان البعث لا ينتمي الى القطر في نسبته . والحق ان يقال ان البعث في سورية والبعث في العراق . والبعث هو بعث واحد في الاصل واذا تأقلم فان هذا التأقلم انحراف . وعلى ذلك فنحن عندما نتحدث عن حزب البعث فانا نبحث عنه اينما كان وفي كل قطر عربي حلّ .

ان الثامن من شباط لم يستمر طويلاً في العراق اذ لم يمضِ على قيامه وقت طويل حتى فاجأه عبد السلام عارف بانقلاب اطاح به وذلك بعد سبعة اشهر تقريباً . ومن الافضل تجاوز تلك الفترة القصيرة بما فيها من احداث والتطرق الى حكم البعث الطويل في العراق الذي بدأ من عام ١٩٦٨ واستمرّ الى يومنا هذا . وعلى ذلك فنحن نجتاز شباط بسرعة مع تسجيلنا بعض الملاحظات عليه . فهو يشبه الوضع السوري بعد اذار بزيادة شيء على ذلك هو طابع العنف بينه وبين غيره من الفئات ، وبين فئاته نفسه . فقد اطاحت فئة منه بفئة أخرى بقوة السلاح مما سهل على عبد السلام عارف ان يضرب الحزب الضربة الخاطفة التي جعلته يترنح ويرتمي ليثب الى السلطة عبد السلام عارف ويمضي فيها هو واخوه عبد الرحمن عارف من بعده ما يقرب من خمس سنوات لم يكن حال العراق خلالها بأحسن مما كان من قبل .

١٧ تموز ١٩٦٨

قام انقلاب في السابع عشر من تموز ١٩٦٨ على الرئيس عبد الرحمن عارف . وكان قادة الانقلاب مزيجاً من البعثيين والمستقلين . ولكن ما حلّ الثلاثون من تموز الاّ ووثب الى السلطة جماعة البعث واقصوا شركاءهم في الانقلاب وتسلموا هم السلطة كاملة . وهنا أصبح الحكم

في كل من سورية والعراق حكماً بعثياً صرفاً لا يشارك فيه من خارج البعث الا من شاء البعثيون ان يشركوه في الحكم ويكون اسير سياستهم وتابعاً لهم في الحل والترحال .

وقد قام البعث اذن بعملية تصفية في العراق كما قام بعمل مماثل في سورية عندما أبعد المستقلين ثم أبعد الناصريين بعد ذلك ، فصفا له الجو وفرض سيطرته الكاملة على الدولة .

ومن هنا فان خصوم البعث يصفون البعثيين « بالغدر » ، فهم ينقضون على رفاقهم وشركائهم في جنح الظلام ويسلبونهم ما في ايديهم من سلطة ويقذفون بهم اما الى السجون واما الى المنافي خارج البلاد .

ويبدو ان طبيعة الانقلاب هي طبيعة الغدر وليست طبيعة البعثيين . ولو لم يسرع البعثيون في العراق ويتغدوا بشركائهم لتعشى بهم هؤلاء الشركاء كما يقول المثل . ولو صبر البعثيون قليلاً لكان من المرجح ان يقوم عبد الرزاق النايف وابراهيم الداود واتباعهما من العسكريين بمثل ما قام به البعثيون . فهذه اذاً طبيعة الانقلابات لا طبيعة الاشخاص . وكان من المحتمل ان يفعل الناصريون في سورية ما فعل البعثيون بهم لو لم يعاجلهم البعثيون بذلك .

لكن يمكن الربط بين الأمرين ، فان الذي يقر الانقلابات ويرضاها لا بد له من ان يقبل بكل ما يتفرع عنها من توابع وذيول ونتائج ومصائر.

الم ترَ ان عبد الله السلال قد قام بعمل لا يقبله الضمير في الحالات الطبيعية . لكن تقبله الضمائر اذا هي اقرت مبدأ الانقلابات . فالامام البدر ملك اليمن هو الذي أخرج السلال من السجن وسلمه قيادة الجيش ولا يلبث بعد ايام معدودات ان يضرب السلال قصر الملك بالمدافع ويهدمه على رأس الملك صاحب الفضل والمنة عليه .

وما لم يكن المناخ عبقاً بالتسامي الاخلاقي فان « الايديولوجيات » ومستلزماتها لا تقف عند حدود الاخلاق كما سنبين هذا في فصل لاحق من هذا الكتاب .

نعود الى انقلاب تموز فنقول انه يشبه انقلاب اذار في سورية ولا

يشبه انقلاب شباط في العراق . فهو سلمي مثل اذار . وهو لم يقم دفاعاً عن الكيان القومي والوجود العربي ولم يدفعه الى العمل أمر مصيري كما هي الحال في شباط . فالمصير القومي لم يكن مهدّداً والعيب البارز في حكم عبد الرحمن عارف هو العيب البارز في سورية قبل انقلاب اذار . فهو حكم ضعيف رخو مهلهل . وكان هو ايضاً متهماً بانه انفصالي . لكن تموز لم يجعل العهد بعد ذلك « إتصالياً » ، ولا وحدوياً . بل ان العلاقات العربية قد زادت سوءاً بعد ذلك .

وان اسباب العنف التي كانت على عهد انقلاب شباط لم تكن قائمة على عهد تموز ، ومع ذلك فان اعمال العنف لم تخمد ولم ينطفىء لهيبها ، وانما اخذت تصبح العنوان الكامل لهذا العهد مما سبّب حرجاً لكلّ عربي امام الاجانب الذين يعدون على العرب انفاسهم وخطواتهم .

وعلى كل حال فان هناك شبهاً في الاوضاع بين سورية والعراق من بعض النواحي وخلافاً في بعض النواحي .

١ ـ اما نواحي الاختلاف فهي في الدرجة الاولى التفاوت في العنف. ففي سورية كان يرعى للانسان انسانيته بعض الشيء . وان الدم ليس مباحاً سفكه بالسهولة التي تجري فيها في العراق . واذا حدث اغتيال او ما يسمى « بالتصفية الجسدية » فان ذلك على كل حال ليس سياسة الدولة وقاعدتها وانما ذلك حدث شاذ او شخصي .

٢ ـ واما وجوه الشبه فهي كثيرة ، والجناحان في العراق وفي سورية مدينان بها ويمكن تلخيصها والاكتفاء بالتلخيص لأن معانيها التفصيليّة قد وردت في ثنايا الكتاب :

أ ـ العزل السياسي . فهنا وهناك حدث العزل .

ب ـ العزوف عن الوحدة وتجميد البحث فيها .

ج ـ قفز النكرات الى السلطة بلا كفاءة ولا خبرة ولا مقدرة .

د ـ التنكر لاصدقاء الأمس ولو لم تقم بينهم وبين الحزب منازعات. وقطع الاواصر والخروج على المصطلحات الاجتماعية وتمزيق الصلات التي كانت قبل الانقلاب تربط الكثير من المواطنين مع الحزبيين.

وعلى سبيل المثال اذكر ان الصلات بيني وبين قيادات الحزب قد انقطعت ولم تكن منقطعة قبل اذار بل كنت في ابان استلامي بعض السلطة ارعى الحزبيين واعطف عليهم كما مرّ بنا في فصل سابق . فلما قفزوا الى السلطة لم تبدر منهم ولا بادرة تدل على انهم ما زالوا على العهد الذي بيننا . وظلت الصلات منقطعة كلية الى أن اقصوا عن الحكم فمددت اليهم يدي ثانية وتناسيت كل ما مضى .

البعث – الدولة اجهاض للحزب وانحراف عن البعث الاول

زعم الزاعمون ان البعث قد تأسس بتخطيط اجنبي وقد كان القصد منه تمزيق الوجود العربي بتقسيمه الى معسكرين لا يلتقيان نظراً للخلافات العقائديّة التي تحتدم بينهم ثم الارتباط بالمعسكرين العالميين الكبيرين المتنافسين وذلك بان يرتبط كل معسكر عربي بواحد من ذينك المعسكرين وتبقى الفرقة بين العرب مستمرة ما دامت الفرقة بين المعسكرين الكبيرين قائمة . ثم بعد ذلك تنتشر جرثومة الانقلابات العسكريّة وتتمادى في اي قطر عربي يمكن احداث الانقلاب فيه . والحكم العسكري الحاكم سيصبح مشغولاً عن كل شيء الاّ عن أخذ الحيطة لنفسه واجراء الترتيبات للمحافظة على وجوده واستخدام كل القوى العسكريّة والمالية لحماية عهده . ثم توجيه هذه القوى الى المعارضة الداخلية بحيث لا تبقى فضلة من قوة يمكن استعمالها واستخدامها ضد اسرائيل ومن يواليها من الدول . والمخطط الاجنبي ذلك يهدف ايضاً الى تبغيض الاشتراكية الى العرب بسبب سوء استعمالها وتطبيقها ثم الى تبغيض العرب بما كان مقدساً عندهم وهو الوحدة العربية التي عجز اوسيعجز البعث عن تحقيقها للتناقضات الخاصة التي تقوم بين فئات الحزب في مختلف الاقطار العربيّة واذا تحقق شيء جزئي من هذه الوحدة فانه سيتحقّق على حساب حرية الشعب وكرامته . وهكذا يتخلّى العرب عن جملة من امانيهم المقدسة واهدافهم السامية .

وامام هذا التيار من الحمم التي يصبّها خصوم البعث على البعث

ماذا يكون الجواب وما هو قول قيادة البعث ؟

الحقيقة انه لا بد من ادخال الاحتمال بوجود اليد الاجنبيّة في كل عمل يقوم به العرب . لكن هذا الشك باحتمال التدخل الاجنبي لا ينبغي ان ينقلب الى نوع من الوسواس بحيث يشلّ التحرك العربي ويمنع قيام اي مبادرة عندهم .

طبعاً نحن لم نستلهم فكرة الحزب الا من انفسنا المتجاوبة مع حاجات امتنا . ونحن نأنف ان نستجيب الى رغبات خارجة عنّا . وما لمسنا يوم قيام الحزب اية موجة خارجيّة تشجّع على انشاء الحزب ولم يبارك قيامه أحد من الدول بل قد يكون العكس هو الصحيح . ولكن الاتهامات الموجهة الى تأسيس حزب البعث لا تزعم ولا تستطيع ان تزعم ان التأثير كان علنياً او كان بالاتفاق مع أحد من قادة الحزب او مع أحد اعضائه الكبار او الصغار وانما الاتهامات تزعم بالايحاء وبالتمهيد للسوح الفكرية والسياسية ان تكون فارغة يمكن لفكرة حزب البعث ان تملأ الفراغ .

ومهما يكن من أمر وعلى فرض ان ما قاله الزاعمون صحيح فإن ذلك كلّه لا ينقص من جلالة الفكرة ولا يعطي اي تهوين لوطنيـــة المؤسسين الاولين . وما هو ذنب هؤلاء اذا كان كل ما في الجو السياسي والفكري والقومي يملي عليهم ان يستجيبوا لنزوع الامّة بتأسيس مثل هذا الحزب القومي الاشتراكي ! فاذا حدث انحراف وقت التطبيق والتنفيذ فما ذلك ذنب الحزب وانما هو ذنب الحزبيين وحدهم .

وحزب البعث عندما استلم السلطة في العراق وسورية جنح الى الاسلوب الشديد ، فعاقب على الشبهة ونفذ مبدأ المسؤولية الجمعيّة وقتل وسجن وافقر واجاع كل من يرى انه ليس مؤيداً ولا مؤمناً بالحزب . ثم مدّ بعضهم يده الى خزانة الدولة فعمل فيها اسرافاً وبعثرة .

والحقيقة هي ان حزب البعث ليس في تعاليمه شيء من هذا الذي صنعه الحزبيّون . ولكن يجب ان لا يغيب عن بالنا أمر هو من الخطورة

بمكان ؛ ذاك ان التعاليم العقائدية وكل تعاليم يأتي بها نظام من الانظمة تصبح بعد فترة من الزمان خاضعة لنزوات اتباع العقيدة والنظام . والاتباع هم الذين يكيفون التعاليم او يطورونها وفق اهوائهم ومقاصدهم.

وحزب البعث العربي في الاقطار التي تولى الحكم فيها قد طبع العقيدة بطابع القطر او قل طابع الفئة الحاكمة في القطر . فالحكم في العراق ليس بعثياً إلاّ من حيث الاسم . وان خط السير لا يرسمه دستور الحزب ولا فلسفة الحزب وانما ترسمه عوامل أخرى طائفيّة او سياسية او مصلحيّة او اجتماعيّة . وحزب البعث في سورية كذلك يصح القول فيه ما صح القول في بعث العراق .

ان دستور حزب البعث قال باجلاء الاقليات عن الوطن العربي اذا كانت تعمل ضد القومية العربيّة . وسواء اكان هذا مقبولاً من جانبنا ام كان غير مقبول فهو نصّ في الدستور . فهل فعل العراق بموجب هذا النص شيئاً . ام ان النصّ بقي جامداً وكان التطبيق على النقيض منه ؟ وهل كان ذلك الاّ بسبب عوامل محلية وتحركات قطرية نضحت من الاتباع فجمّدت نصوص الدستور ؟ ثم هل كان ما يقال عن علاقات الدولة في العراق مع الاقلية الكردية هو اسلوب اخلاقي . اذا صح ما قيل من ان محاولات اغتيال البرزاني وابن البرزاني انما كانت من تدبير الحزبيين واعدادهم فان هذا السلوك ليس بالسلوك السليم رغم كل ادعاء .

ان العقائد تبدأ مثالية نبيلة ما عليها شائبة . وهي تعتبر الوسائل مربوطة بالاهداف وان هذه الوسيلة يجب ان تكون شريفة شرف الهدف نفسه . لكن ما تلبث هذه العقائدية في اغلب الاحيان ان تتخلّى عن هذا المفهوم تدريجياً وتأتي عكسه ويصل بها الأمر الى حد القبول بالمبدأ الميكيافيلي وهو ان الغاية تبرر الوسيلة .

ومعنى ذلك ان العقيدة يرافقها في اغلب الاحيان لا اخلاقيّة . اذ تتساوى عند اتباعها الافعال ما دامت كلها توصل الى الهدف المنشود .

لقد كان حزب البعث العربي اول تأسيسه مهوى افئدة العرب . وكانت انطلاقته الاولى قومية اخلاقية مثالية وحدوية . وهذا أمر لا يتفق مع مصالح الصهيونية ولا القوى الاستعمارية ولا مع غايات الشعوبية بكل اشكالها . فلا بد اذن من اتخاذ موقف واحداث مخطط للتخريب يخرج الحزب عن منهاجه هذا وينحرف به الى حيث يفقد امكاناته القومية الخلقية وما يتبعها من مقاصد .

والايحاء والتزيين وتحسين الامور المشكوك في سلامتها هذه هي الاساليب التي يسلكها الاعداء . فما صنعوا لأجل اتمام عملية الزحلقة ؟

ان ما نسوقه هنا هو بعض ما حدث وهو ليس حصراً كما يقول القائلون :

الاشتراكية

ان الاشتراكية وما تهدف اليه من تحرير الفرد واشراكه في بناء نهضة الامّة لأمر مستحب وانساني . فلا بد اذن من العمل الحزبي بدءاً من الاشتراكية . وحزب البعث العربي حزب اشتراكي والاشتراكية دعامة من ثلاث دعائم يقوم عليها الحزب . لكن الاشتراكية ظلت غامضة للناس يحيط بها الابهام ويليفها اللبس من كل نواحيها لدى حزب البعث العربي . ولم يتصدّ قادة الحزب لشرح هذه الاشتراكية وتبيانها للناس والتعريف بحدودها وجلاء غوامضها ، بل تركوها للتفاسير والتأويل والاجتهادات .

ومواد الاشتراكية في دستور البعث لا تمت الى الماركسية بصلة وان مفاهيمها اقتصادية خالصة وليس لها علاقة بالتكوين الاجتماعي او القومي . اذ ليس في هذه المواد ما يشير لا من بعيد ولا من قريب الى دعائم الماركسية من تفسير مادي للتاريخ ومن صراع طبقي ومن قيام دكتاتورية البروليتاريا .

ونحن نريد ان نصل من هذا الى القول ان الاشتراكية البعثيّة

لا تمت بصلة الى الماركسيّة . بل ان النصوص تقف صراحة ضد الماركسية ما دامت تحوي كلمة « الامة » ، اذ الماركسية لا تعترف بالامّة بل هي امميّة . كما انّه لم يرد في الدستور كله ما يشير الى ايمان الحزب بالصراع الطبقي . وان ما ورد في المادة ٢ من الفصل الاول يتعارض تعارضاً تاماً مع الماركسية :

« الامة العربية وحدة روحية ثقافية .

« الامّة العربيّة تختص بمزايا متجلّية في نهضاتها المتعاقبة » .

— المادة ٣ من الفصل الأول —

ان اشتراكية البعث هي بالبداهة الاشتراكية العربية ، بل يمكن القول ان اشتراكية البعث هي « اسلامية » او هي على التخصيص « حنبليّة » لأن المجتهدين في مذهب أحمد بن حنبل قد ذهبوا الى أكثر مما ذهب اليه حزب البعث في هذا المضمار فعادوا في دراساتهم الى المقاصد العامة من التشريع الاسلامي التي اعتبرت الثروة وظيفة اجتماعية وان الفرد موكل وقيم عليها ما دام يسير بها في تحقيق هذه الغاية فاذا قصر في ذلك او انحرف خرجت الثروة من يده وعزل عن سدانتها وكان للامام (الدولة) ان يتسلمها ويديرها وفقاً للغايات العامة .

ان واضعي دستور حزب البعث والقيادة والمناخ العام للحزب يومئذٍ والمشاعر القومية المتدفقة التي كانت تقترب في هديرها الى نوعٍ من « العنصرية » كانت كلها دلائل على ان البون شاسع والفرق كبير بين الماركسية وبين ما ورد في دستور الحزب من المقاصد حول الاشتراكية . وكل نص اشتراكي متطرف او معتدل يرد في موضع من المواضع يعدله ويخرجه عن مفهومه الماركسي النصوص القومية الأخرى التي ترد الى جانبه لأن في اقرار مبدأ الامّة الواحدة والوجود التام لهذه الامّة ما يلغي اي اثر لكل احتمال ماركسي .

ولم يفكر مشرعو الحزب ان هذه المواد يمكن تحقيقها في الاقطار المجزأة والامة المتناثرة الضعيفة الاركان لكن تطبيق هذه النصوص من الحزب (بعد أن أصبح دولة) لم يكن تطبيقاً سليماً . فهو قد اخذ

ببعضها وترك البعض الآخر مجمداً مهملاً . وكانت النزوات والاعتبارات الخاصة وما يتبعها من انحراف المفاهيم والمفاجآت السياسية الحادة كلها قد ادت الى هذا السلوك .

ان الدستور قد حرم الربا بين المواطنين ومن البداهة انه يحرمه بين الدولة والمواطنين . والواقع ان الربا لم يزل مباحاً بين المواطنين في دولتي البعث في العراق وسورية . وان المصرف الحكومي الذي تأسس لمنع الربا قد تولى هو استيفاء الربا بنسبة لا تقل عما كان يتناوله المرابون المحترفون .

والدستور اشار الى تأميم المؤسسات ذات النفع العام وموارد الطبيعة الكبرى لكن من الناحية التطبيقية اممت الدولة مشاريع صغيرة قد لا يتجاوز رأس المال فيها بضعة آلاف من الليرات مما كان باعثاً على الازدراء والامتعاض .

ولم يرد في الدستور مصادرة لاموال الناس ، والحكومة البعثية قد لجأت الى مصادرة أموال كثير من المواطنين وجعلتهم عرضة للفاقة ثم الى الجوع احياناً .

وقانون تحديد الملكية الزراعية في ما سمي بالاصلاح الزراعي هو ابرز عمل قامت به حكومات البعث ومن قبلها طبقه الرئيس جمال عبد الناصر ابان الوحدة السورية–المصرية في الجمهورية العربية المتحدة .

ان دستور حزب البعث نص على منع استثمار جهد الآخرين وهو الشيء الذي دفع الحزب الى صياغته نص تحديد الملكية الزراعية كما ان ثمة دافعاً آخر هو احتمال استقطاب سياسي او تفوق اقتصادي او طغيان اجتماعي تنجم عن اتساع الملكية . وقد يسأل سائل : هل يكون هناك سعة في الملكية لا ينجم عنها استثمار جهود الآخرين ؟ والجواب هو بالايجاب . ففي الاراضي البعلية لا يعمل البشر الا قليلاً . والعمل والاستثمار هو للآلة . والآلة ليست من الاشياء التي لا يجوز استثمارها بل ان الواجب القومي في استثمارها وزيادة الانتاج .

ان قانون الاصلاح الزراعي الاول قد وضع في اوائل عهد الوحدة السورية المصرية وتبعه قانون مشابه له في العراق . ولكن قانون عبد الناصر كان اقرب الى العدالة رغماً عن انه وضع بلا دراسة ولا تمحيص ولا عاطفة من المواطنة والتراحم اذ كان الغرض فيه واضحاً.

لكن حكومة حزب البعث قد خضعت لمشاعر أخرى غير المصلحة القومية فدخلت في نوع من المزايدات مع عبد الناصر . ولا بد أن تثبت أنها أكثر اشتراكية من عبد الناصر فخفضت نصاب الملكية وبعد ما كان ٣٠٠ هكتار في الارض البعلية اصبح ١٢٠ هكتاراً . وبعدما كان ٨٠ هكتاراً في الارض التي تسقى بالجهد اصبح ٥٠ هكتاراً .

وان اثر هذه الضربة قد كان بارزاً في بعض المناطق السورية كالجزيرة . ففي الجزيرة سعة ملكية وليس فيها اقطاع . ورغم سعة الملكية في الجزيرة فانه لا يستطيع أحد استثمار جهود الآخرين اذ الالة هي التي تعمل هناك . وفي الجزيرة صراع عرقي بين العرب والعناصر الأخرى وكان العرب مالكين لاكثرية الاراضي . وكان تجريد العرب من ملكيتهم مخلاً بالتوازن البشري هناك . لأن ذلك اضعف العرب بينما قوى غيرهم .

وهنا يبرز السؤال المستمر وهو كيف حدث هذا من جانب فئة قومية ؟ وكيف ضحت هذه الفئة بالموضوع القومي من أجل النظرة الاشتراكية ؟ الجواب هو ان مقاصد الحزب قد اختفت في خضم التيار العارم لارادة الاتباع الذين يتألف منهم الحزب . وان الميل في اتباع الحزب قد ذهب الى اعتبار الاشتراكية الوارد ذكرها في دستور الحزب انما هي الماركسية . وكان احد مؤتمرات الحزب قد اتخذ قراراً بهذا المعنى وزاد من التصاق الحزب بهذه المقولة تلك الارتباطات السياسية التي قامت بين حكومتي البعث في سورية والعراق وبين الحكومات الشيوعية في العالم ثم هذا التبادل في مختلف المجالات الاقتصادية والثقافية والعاطفية ايضاً . حتى ليمكن القول ان الحزب قد تسمر والزم نفسه بالمذهب الماركسي خلافاً لمقاصده الاولى .

وكان اهتمام الحزب بالاشتراكية يقوى على حساب الدعامة الاولى والكبرى للحزب وهي الدعامة القومية . وبلغة الناصح والصديق والمناصر العطوف القى الروس مقولتهم من ان الاشتراكية هي الاصل في بناء الوجود العربي فقبل حزب البعث المقولة . وبمرور الزمن تضاءلت الى حد كبير النظرة القومية عند العرب وعلت وتضخمت النظرة الاشتراكية.

والاشتراكية في هذه المرة لم تكن الاشتراكية العربية التي تحدثنا عنها وانما هي الماركسية اذ ان المنبع الذي اوحى بها هو منبع ماركسي .

ولقد انبنى على هذا ان الشعب العربي قد فترت حماسته في تأييد الحزب حيث تقوم فروع الحزب .

ان التنافس والمزايدات والتفاخر بين أجنحة حزب البعث وحكوماته المتعاقبة في القطر الواحد وفي القطرين معاً . انها كانت في موضوع الاشتراكية . فكل حكومة تتهم التي قبلها بانها « يمينيّة » لا تحقق النهج الاشتراكي . وكل حكومة في القطر السوري تتهم الحكومة في العراق بانها يمينية كذلك وغير اشتراكية .

اما التنافس والتسابق في حقل الدعامتين الأخريين اللتين يقوم عليهما حزب البعث الى جانب الدعامة الاشتراكية واعني بهما الوحدة العربية والحرية فانه تنافس معدوم .

والمنهج الاشتراكي قد عمل بالتدريج على التعاطف مع الدول الشرقية والابتعاد عن الدول الغربية ثم ما لبث ان اصبح في حدود المحالفات والتعاون في شتى المجالات . وهذا مصير خططت له الصهيونية العالمية فهي التي تريد ان تبقى الدول الغربيّة لها وحدها لا ينازعها في ودها منازع . والدول الغربيّة هي الاقوى والانفع اذا هي اخلصت للحليف كما تبين في مصير العلاقات المصرية السوفيتية في هذه الساعات التي نكتب فيها هذا الكتاب . وكما تبين من دعم امريكا لاسرائيل وما منح هذا الدعم لاسرائيل من قوة ونفوذ وسلطان .

٢ ـ الاستيلاء السريع على السلطة : ان استيلاء البعث على السلطة في كل من سورية والعراق قد يمكن اعتباره مفاجأة من المفاجآت لأنه

لم يتهيـّأ للحكم لا شكلاً ولا موضوعاً . فليس فيه من الاعضاء ما يكفي لجهاز دولة من حيث العدد والكفاءة والخبرة . كما انه لا يملك القوة التي يستطيع ان يصل بها الى السلطة . فكيف وصل البعث اذن الى السلطة ؟ هذا هو السؤال الذي يعجز المرء عن الاجابة عليه . واذا عجز المرء عن الاجابة العقلية المنطقية فانه يلجــأ الى التكهنات والافتراضات والاستنباطات وما هو في حكمها من الأمور .

من هنا قد قام الشك بان الاعداء هم الذين مهّدوا لحزب البعث ان يستلم السلطة وان يحكم . فان في حكمه جرثومة قتله وهو بذلك كما يقول المثل كمن « يسعى الى حتفه بظلفه » . فالحكم امتحان قاسٍ لا يفوز باشواطه المليئة بالاشواك والصعاب الا العباقرة المجرّبون .

والاعداء يريدون للبعث تخلصاً من منهاجه الاول ومثاليته التي رافقت نشوءه ، يريدون له ان يتحطّم بالحكم فزينّوا الحكم له ومهّدوا لاستلامه . وهذه هي الخطوة الثانية من الخطوات التي قلنا انها خططت لاجهاض الحزب .

٣ — حزبيّة الاجهزة : وما دام حزب البعث قد وصل الى السلطة فيجب عليه ان يتحمل المسؤولية كاملة وان لا يبقى في جهاز الدولة من لا يؤمن بالحزب لأن بقاء من لا يؤمن بالحزب فيه خطر على الحزب وفيه احتمال تخريب من الداخل . ولا يجب على الحزب ان يتقيّد بالقول التقليدي من حيث الكفاءة والخبرة والمقدرة المسلكية . فهذه أمور يمكن الحصول عليها مع الزمن . والعبرة في الايمان بالحزب والاخلاص له اذ هذا هو الذي عليه المعوّل . انه قول فيه منطق . ولكن كل قول لا يقارن مع اضداده ليبين وجه الحق من الباطل لا يمكن وصفه بالمنطقية .

وسار الحزب في هذا المناخ واعلن صراحة وبلا مواربة ان العبرة للاخلاص للحزب . وان الحزبيّة فوق الكفاءة .

وسرعان ما انطلق الطامعون والانتهازيون والجياع الى المجد والجاه وتكالبوا على جهاز الدولة تكالب الجياع على قطعة الطعام . ولم يعد هناك ميزة لاحد على أحد فما دامت الحزبية هي الاصل فانهم جميعاً

حزبيون . وما دامت الكفاءة لا عبرة لها فانه قد اصبح الاميون والجهلة والعاجزون يطمحون الى اعلى المناصب في جهاز الدولة . وما خابت آمال هؤلاء فان بعض الاميين قد عينوا في المجلس الوطني ومجلس الشعب وان كثيراً من المعلمين الابتدائيين قد اصبحوا سفراء ومحافظين . وان وزارة من الوزارات قد ضمت وزيراً هو بحكم الامي .

وبعد هذا الوصف لجزء من الواقع لا الواقع كله بتفاصيله وجزئياته الذي عليه دولة البعث ان في سورية او العراق الا يرى المراقب الحصيف ان في الأمر زحلقة وتوريطاً وان هناك محاولة عدوة لاجهاض الحزب اولاً ولقتله ثانياً ؟

٤ ـ بعث ـ الدولة والحزب القديم بين الارهاب والحرّية

وما دام الحزب قد استولى على السلطة كاملة فانه لا يستطيع تحقيق البرامج التي تخدم الأمّة الا اذا تخلص من العراقيل والعقبات التي تقف في سبيله . فلا بد اذن من تنقية الجو واخلاء الساحة من كل المعارضين الذين هم « ثورة مضادة » دعمها الاستعمار لتنقض على « مكاسب الشعب ومنجزات الحزب » .

وبهذا المنطق وهذا التبرير واقتداء بما جرى في الدول الاشتراكية عندما اعلنت ثوراتها ، فان حزب البعث قد قام بالتنكيل والسجن والابعاد ومصادرة الأموال والملكيات . وفي اماكن اخرى خارج سورية قامت الاغتيالات وصدرت احكام من محاكم عسكرية بالاعدام على عدد كبير مما لا مجال للايغال فيه .

ومن الطرائف ان بعض المحاكم كانت تحكم على اشخاص خطأً اذ ان اسماءهم تتشابه مع اسماء أخرى . وبعد التنفيذ وظهور الحقيقة تقدم الحكومة الى أهل المشنوق اعتذاراً عن الخطأ .

هذه التصرفات وهذا الاسلوب قد نفر الشعب العربي في كل مكان من حزب البعث وهذا هو احد المقاصد التي هدف اليها مخطط الاعداء،

كما شان سمعة الحزب وسمعة العرب معها في كل الاقطار الخارجية والشعوب المتمدنة التي تحرص على حياة الانسان وكرامته .

وهذه خطوة أخرى في سبيل اجهاض الحزب ثم قتله .

وحزب البعث عندما وضع دستوره لم يكن يتصور انه سيصل الى سدة الحكم في يوم قريب . لذلك وضع مواد الدستور دفاعاً عن صفة المحكوم ولم يضعها حول الحاكم . ولست ادري لو كان في مخطط الحزب انه سيقفز الى السلطة بهذه السرعة هل كان سيتعصّب للحرية ويتفانى في سبيل منحها لكل فئات الشعب .

فالحريّة هي الشعار الثاني من شعارات البعث العربي : وحدة ، حرية ، اشتراكية . ومفهوم الحرية عند حزب البعث في دستوره ينطلق من النظم الديمقراطية الدستوريّة . ففي دستور البعث :

« نظام الحكم في الدولة العربية هو نظام نيابي دستوري . والسلطة التنفيذية مسؤولة امام السلطة التشريعية التي ينتجها الشعب مباشرة » . المادة –١– من الفصل الثالث .

« يعمل الحزب على تعميم الروح الشعبيّة (حكم الشعب) وجعلها حقيقة حيّة في الحياة الفردية ويسعى الى وضع دستور للدولة يكفل للمواطنين العرب المساواة المطلقة امام القانون والتعبير بملء ارادتهم واختيار ممثليهم اختياراً صادقاً ويهيء لهم بذلك حياة حرّة ضمن نطاق القوانين » المادة ٤– من الفصل الثالث .

« السلطة القضائية مصونة ومستقلة عن اية سلطة أخرى وهي تتمتع بحصانة مطلقة » . المادة ٦ – من الفصل الثالث .

وكان قادة الحزب ينعون على السلطات الحاكمة كل انحراف عن هذه القواعد ولو كان قيد شعرة . وان كفاح الحزب قد لبس ثوب الدفاع عن الحريات في اول الأمر حتى عرف عنه التفاني في سبيل تحقيق الحرية للشعب .

ان التوافق بين السلوك والمنهج ، بين النظرية والتطبيق من مستلزمات الرصانة والتوازن ، فاما ان يحور المرء قواعده حسب ما اقتنع هو في

آخر المطاف واما استمرار الارتباط بالقواعد وعدم الخروج عنها .
وسلوك حزب البعث اليوم مغاير لما هو مسطور في دستور الحزب .
وانّا سنعدّد بعضاً من هذه المغايرة :

١ ـ مناخ الحزب العام ولو لم يرد نص صريح في الدستور هو رفض الانقلابات العسكريّة ما دام ذلك يتم على حساب حرية الشعب .
وحزب البعث اخيراً قد قبل الانقلابات العسكرية بل مارسها هو في سورية والعراق .

٢ ـ حزب البعث في سلوكه العام وفي نصوص دستوره ديمقراطي نيابي دستوري . وحزب البعث في ايامه الحاضرة لا ديمقراطي ولا نيابي ولا دستوري .

٣ ـ حزب البعث يبيح لكل المواطنين حرية العقيدة والتعبير وذلك بكل وسيلة . اما اليوم فانه يحرم كل ذلك على المواطنين حيثما كانت للبعث حكومة .

٤ ـ في دستور حزب البعث صراحة تامة صارمة على استقلال القضاء . وحزب البعث اليوم يسيطر على القضاء وعلى القضاة ويجعل المحاكم تصدر من الاحكام ما يتفق مع هوى السلطة لا ما يتفق مع القانون والعدالة وحق المواطنين .

٥ ـ ان حزب البعث حريص على كرامة المواطن في سلوكه القديم ـ وفي نصوص الدستور . اما حزب البعث اليوم فقد صب الاهانات والازدراء والاحتقار على كل مواطن لا يرى رأي الحزب ولا يسير في فلكه .

٦ ـ ان حزب البعث حريص على حياة المواطنين ، ضنين بها ان تذهب هدراً وبدمائهم ان تسفك بلا ذنب . والتطبيق الحاضر لدى حزب البعث غير ذلك . اذ هناك اغتيالات وتصفيات جسدية .

فحزب البعث اليوم ليس هو حزب البعث القديم . بل انه حزب جديد له مفاهيمه الخاصة واعرافه التي يتعامل بها وهي تختلف عن مفاهيم الحزب واعرافه . وله الحق ان يكون كذلك على ان يستبدل الاسم باسم

جديد يلائم المنهج الجديد ويعبّر عنه .

ان حزب البعث الجديد قد بدل المفاهيم القديمة لحزب البعث وادخل عليها تعديلات مهمّة :

فالحزب الجديد قد فهم الانقلاب على الواقع الفاسد على انه انقلابات عسكرية .

وفهم الحزب الجديد من الاشتراكية العربية التي هي كفالة للفرد الى اقصى الحدود وهي العدالة الاجتماعية التي تمهد لوجود الامة العربية ، فهم من ذلك كله ، ان الاشتراكية الواردة في الدستور انما هي الماركسية.

وفهم الحزب الجديد من نصوص الحرية انها حرية في نطاق محدود في نطاق الحزبيين وحدهم . اما سائر فئات الشعب فليس لها ان تتمتع بالحرية .

وفهم من المساواة امام القانون انها حجر على فئات كثيرة من المواطنين وعزل سياسي وسجن وتشريد .

واذا كان هناك بعض التفاوت بين حكم البعث الجديد في سورية وبين حكمه في العراق فان هذا التفاوت هو تفاوت في الشدة وليس تفاوتاً في القواعد وهو تفاوت بين مزاجين او بين ذهنيّتين .

البعث والسياسة العربيّة

نقصد اول ما نقصد من هذا العنوان علاقة حكم البعث في كل من سورية والعراق بالحكومات العربية الأخرى . ثم نقصد بعد ذلك العلاقة بين جناحي الحزب في سورية والعراق . وبعد ذلك العلاقة بين الشعبين الخاضعين لحكم البعث وبين الشعوب العربية الأخرى . واخيراً فاننا نعني الانغلاق البعثي على العرب بسبب قيود وضعها هو وقيّد بها نفسه وتقوقع حيث لا ضرورة للتقوقع .

١ ـ ان العلاقة بين حكم البعث وبين الاقطار العربيّة تنقسم الى قسمين اجمالا :

أ ـ العلاقة مع الدول التي يسميها البعث « الدول الرجعية » وهي اجمالاً الدول الملكية النظام . ثم تونس من النظم الجمهورية . والعلاقة مع هذه الدول سيئة . وليس بينها وبين حكومات البعث لا تعاطف ولا احترام ولا مودّة .

ب ـ العلاقة مع الدول التقدميّة . وهذه العلاقة ليست حسنة دائماً . فما عدا مصر لم تتحسّن العلاقة مع دولة عربيّة أخرى الا في ازمان متقطعة . وحتى مع الجزائر التي هي عندهم تقدميّة لم تكن العلاقة حسنة .

والدول التقدمية في نظر حكومات البعث تزيد وتنقص ويزداد عددها ويتناقص حسب الاصطلاحات الخاصة والامزجة التي كثيراً ما تتحكم في القائمين على السلطة .

وليست العلاقة اليوم حسنة ايضاً مع ليبيا ولا مع السودان ولا مع حكومتي اليمنين الشمالي والجنوبي . وليست العلاقة حسنة ايضاً حتى بين حكومتي البعث في سورية والعراق . وسارت حكومتا البعث في طرق مسدودة حيث عزلت نفسها عن المجتمع العربي اجمالاً .

ولا شك في ان السلوك المبدئي الذي تتغنى به يحتم عليها ان تكون في جفوة مع الدول العربية ما دامت لا تسير في منهجها ولا تخضع لعقيدتها . لكن هذا قد لا يتفق في الوقت الحاضر مع المصلحة العربيّة اذ أن الامة العربيّة تواجه اخطاراً جسيمة تهدّد وجودها . ولا بد من التغاضي موقتاً عن كثير من الامور التي لا تتصل بالكيان والوجود حتى اذا فرغت من هذه المهمة عادت كل دولة الى تطبيق ما تراه من البرامج.

وفي حال التعرّض للفناء فانه ليس من الحكمة ولا من التعقل ان ينصرف المرء الى الزينة او الرخاء او الفلسفات العقائديّة مهما تكن عزيزة على النفس .

وفي حال مواجهة الخطر يجب نسيان كل الخلافات ما دامت لا تبلغ في اهميّتها هذا الخطر المداهم .

والحكومات البعثيّة حفرت لنفسها اخاديد ونزلت فيها بملء اختيارها ولم تعد تستطيع مغادرتها او الخروج منها . فالاشتراكية مثلاً مع اهميّتها

لا يصح ان توضع في الاهمية مع سلامة الوجود العربي . والتقدمية لا يصح ان توضع على هذا الصعيد . واين يمكن تحقيق ما يسمّى بالتقدمية والاشتراكية اذا لم يكن هناك وطن عربي ولا امة عربية تطبق عليها الاشتراكية والتقدميّة . والمريض لا تقدم له المآكل الشهيّة او الثياب الناعمة قبل ان يشفى. والأمّة العربيّة مريضة وان العناية يجب ان تنصب على شفائها. لكن البعث لا يقبل هذا المنطق لذلك كان هو المتسبب في الانقسام العربي الراهن. واذا لم يكن هو المسبب الوحيد فانه من المسببين الاولين .

والبعثيون لهم منطق خاص في هذا الميدان لا يتفق حتّى مع منطق اولئك الذين اتخذوا منهم قدوة ومناراً . فهذا لنين ابو الاشتراكيـــة قال انه يجب مراعاة الزمان والمكان عند تطبيقها ولا ينبغي التقيد بقواعدها كل التقيد . والوطن العربي اليوم في محنة ولا يجوز تناسي محنته الخطيرة في سبيل تطبيق الاشتراكية .

والزعيم ماوتسي تونغ أمر اصحابه ان يلغوا شعار التحرر الاجتماعي عندما وقع الغزو الياباني على الصين وامر برفع شعار التحرر الوطني وقاتل اصحابه مع خصومه من الصينيين ضد اليابان .

وهذه المعاني قد فصلناها في بعض كتبنا وفي بعض مذكراتنـــا فلا حاجة لاعادتها مطولة .

وحكومات البعث لا تراعي الظروف ولا تعتبر بالاحداث وهي طوراً تخضع لعوامل السياسة القاهرة وطوراً تناطحها ولا يعرف المرء قاعدة للنطاح ولا للخضوع . ومهما يكن من أمر فان في حكومات البعث تطرفاً ادّى الى التمزيق العربي والتمزيق نتيجته المحتومة الضعف والضعف يطمع العدو ويمهّد له سبل التسلّط والاجتياح . وهذا ما هو واقع على العرب من جانب اسرائيل . ورغم كل ما جرى فان حكومات البعث ما زالت متمسكة باسلوبها في مخاصمة الدول العربيّة .

العلاقة بين جناحي الحزب في سورية والعراق

يتساءل الناس عن السرّ في هذا الخلاف القائم بين سورية والعراق

وهما القطران اللذان يحكمهما حزب واحد . وكان المفروض ان تكون العلاقة بينهما مضرب المثل في جميع الميادين . هذا اذا لم نقل انه يجب ان تكون الوحدة قائمة بين سورية والعراق . فنحن نرى ان سبب الفرقة والتجزئة والانقسام انما هو الحكام ومصالحهم الخاصة . لكن هذا الواقع بين سورية والعراق يتمّم تعديل هذه النظرة ما دام الحكّام في البلدين من حزب واحد . فهل يجب حقاً تعديل النظرة ؟

ان هذا الواقع قد أكّد النظرة وعززها . فليس بين القطرين خلاف في المصالح كما انّه من الناحية النظرية ليس بينهما خلاف عقائدي . فسبب الخلاف هو اذاً تضارب المصالح بين الحكّام رغم انتسابهم جميعاً الى حزب البعث العربي .

وقد اشرنا من قبل الى ان البعث اصبح رداء يرتديه بعض الناس يخفون به حقيقتهم وتكوينهم الخاص . وان الذي يرسم خط السير هو ذاك الكيان الخاص والبنيان المتستر تحت رداء البعث . والبعثيون في العراق لهم مصالحهم وبناؤهم وتكوينهم القطري والطائفي والاخلاقي كما ان للبعثيين في سورية مثل ذلك .

ويمكن القول بعد ذلك ان الحزب قد تأقلم وان الاقليم لم يتحزّب فلم يعد هناك حزب واحد بل هناك حزبان ما دام هناك قطران ينسجم كل قطر مع مصلحته جماعة مخصوصة .

ولقد كان بين الجناحين في ما مضى لغة مشتركة وهي مفاهيم الحزب الاولى . لكن المفاهيم الاولى قد تبدّلت كما مرّ بنا وأصبح لكل مكان مفاهيمه الخاصة الجديدة . وهذا يعني أنه أصبح في الحزب عدة مفاهيم يختلف احدها عن الاخر باختلاف الاقليم وعقلية العاملين فيه من الحزبيين . وقد استطاع بعض الناس ان ينسب الحزب الى القطر فيقول البعث العراقي والبعث السوري ولا يقول البعث العربي في العراق او في سورية ، استطاع ان يقول ذلك لأن البوادر تعطيه الحق في ان يقول ذلك .

وما دام هناك تضارب بين الفئتين من حيث الامور العميقة فان

الانتساب الى البعث وحده لا يكفي لازالة الخلاف والى صهر الجانبين في بوتقة واحدة وتأليف جسم متماثل الصفات منهما . ومن هنا فنحن ما دمنا نعرف سرّ هذا التباعد فاننا لن نطمع بوحدة تقوم بين القطرين ما لم تتبدل نوعيات الحكام وتركيبهم .

ولكن هناك شيء اسمه الارادة يمكن استخدامه في ايجاد التقارب او التوحيد . والارادة يمكنها ان تقضي على كل الخلافات القائمة لأنها ليست من التعقيد والعمق بحيث لا يمكن التغلب عليها و لكن كيف يمكن استعمال الارادة في هذا المجال ما دام الشعور بالمسؤولية مفقوداً وما دام الحنين العفوي الى الوحدة مجمداً ومخدراً .

ولو أن النزعة الوحدويّة كانت عنيفة لكان لجناحي الحزب موقف غير هذا الموقف . اضف الى هذا ان العنصر الشخصي كان ذا اثر في هذه الفرقة فالاختلاف على المراكز الحزبيّة وعلى السيطرة والسلطة قد كان من عوامل هذه الفرقة .

والامويون ما اسلموا الاّ عدداً قليلاً منهم لأن الاسلام كما كانوا يرونه لم يكن لهم وانما هو لخصومهم بني هاشم فابتعدوا عنه وقاوموه وعارضوه بل قادوا المعارضة القرشية ضده . وبعد مرور الزمن أصبح الامويون خلفاء فكان لا بد لهم ان يمزجوا بين مصالحهم وبين الاسلام ليكون الاسلام رداء ولباساً . ولما علموا ان في الدفاع عن الاسلام تحقيقاً لما يرغبون من مقاصد اندفعوا في سبيل الاسلام وناضلوا دونه . ويصح القول بعد هذا ان درجة استمساك البعثيين بالبعث هو على قدر ما يضمن لهم من مصالح شخصيّة وقطرية واسرويّة الاّ من عصم الله من الناس .

والذي نصل اليه من هذا الشرح هو ان الاتحاد او الوحدة التي تحقق اهداف الحزب تقاس ايضاً بمقياس المصلحة القطرية . وهذا السلوك قد لا يكون ارادياً وإنما قد يكون عفوياً .

وفوق كل هذا فان اليد الخفية الاجنبية تقوم بمهمتها في التمزيق والتفريق وتري الجناحين حسناً ما ليس بالحسن . ونحن نكرّر هنا ما

نقوله دائماً وهو أن الصهيونيّة ومن يواليها قد أصبحت ذات مقدرة على رسم الدروب التي يسير فيها العرب غفلة وغباء الى جانب العدد المأجور ممن يتسرّب الى الحزب خداعاً وتضليلاً . وعلى ذلك فان العودة الى الطريق الطبيعي بين سورية والعراق ، الى طريق الوحدة والتقارب يحتاج الى مزيد من اعادة النظر والى استعمال الارادة واطراح كل الامور الثانوية التي تقف في طريق وحدة القطرين . وما لم يجنح الحزب الى هذا فانه من العسير بل من المستحيل قيام تقارب واخوة واتحاد بين القطرين .

العلاقة بين الشعوب العربيّة

الأصل ان الحكومات هي اصداء لرغبات الشعوب وان سلوك هذه الحكومات مستمد من طبيعة الشعب . هذا في الحكومات الديمقراطية. وفي هذه الحال فان الذي يقود هو الشعب والحكومة مقادة . الاّ ان الحال تختلف في النظم الدكتاتورية فان الشعب هو المقود وان الحكومة هي التي تقود والوسائل الارهابية هي التي تكفل تحقيق هذا السلوك . والشعوب العربية هي غصون من شجرة واحدة هي الامّة العربيّة ويمكن القول بلا غلو ولا مبالغة ان عناصر الوحدة والالتحام بين هذه الشعوب موفورة أكثر من كل ما هو قائم بين شعوب العالم . ومع ذلك فان للحكومات اثراً في اوضاع الشعوب . ومهما يكن الشعب هو المسيطر في الاساس فان للحكومة بعض الأثر .

وتوجيه الحكومة لا بد ان يجد له بعض الصدى . لأن اجهزة الاعلام هي بيد الحكومة وهي تضرب دوماً على اوتار تريدها الحكومة ومع الزمن الطويل قد يتبدّل نظر الشعب الى الامور الى حيث ينسجم ولو بعض الانسجام مع اهداف السلطة .

وفي العصور الحديثة زادت سيطرة الحكومات على الشعوب إما بالقسر واما بالايحاء والتكرار والاستمرار في الدعاية لاهداف معيّنة .

والنظم الدكتاتورية تعرف أثر الاعلام في تحقيق ما تريده لذلك كانت عنايتها بالاعلام تفوق العناية بكل مرفق ما عدا عنايتها بجهاز المخابرات والاستعلامات الداخلية في بلاد العرب خاصة .

فالنظم المختلفة والحكومات المتعادية لا بد ان ينجم عنها بعض الخلاف بين الشعوب . فالألمان كلهم ألمان ولكن حدث خلاف بين اقليميه احدهما خضع للحكم الشيوعي والآخر لم يخضع وتبعه خلاف ولو محدود بين الشعبين .

ان المصالح الأنية وما يتلى على مسامع الشعب صباح مساء من مساوىء الآخرين يحدث نفرة في النفوس تستحيل مع الزمن الى بغضاء .

فقد حدثت نفرة بين الاردنيين والفلسطينيين نتيجة ما حدث .

وحدثت نفرة بين السوريين والمصريين خلال الوحدة بين مصر وسورية .

وهناك نفرة بين الليبيين والمصريين .

ونفرة بين المصريين والسودانيين .

ونفرة بين السعوديين والمصريين . الى ما هنالك من نفور .

وكان المفروض في حكم يقوم على مبادىء البعث ان يتجنّب حدوث مثل هذا التصدّع بين الشعوب العربيّة . والعذر الذي يساق في هذا المجال وهو ان التيار يساق ضد الحكومة وحدها لا ضد الشعب هو عذر غير كاف لأننا قلنا بانه لا بد من ان يتسرّب ذلك الى الشعب نفسه ويقوم الخلاف بيّن الشعبين الأخوين ، وهو ما لا يتفق مع مبادىء حزب البعث العربي .

ونحن نتساءل ماذا فعلت دولتا البعث في سورية والعراق لتفادي مثل هذا التصدّع بين اجزاء الامّة العربيّة الواحدة . ان الذي عملته دولتا البعث هو تسهيل هذا التصدّع والزيادة في توفر بعض اسبابه حتّى ان خلافات جديدة فوق القديمة قد نشأت على عهد البعث .

فقد وضعت عراقيل السفر بين سورية ولبنان كما منع السفر من العراق الى لبنان . ونحن نتحدّث عن الاصداء والنتائج فحسب ولا نريد جدالاً مع الحكومتين السورية والعراقية في أمر الدوافع الى هذه

التدابير . فقد يكون للحكومتين بعض العذر انما الذي حدث نتيجة لذلك هو الاضرار بمصالح الشعب اللبناني لا بمصالح الحكومة اللبنانية . وهذا الاضرار قد زرع بذرة النفور في نفوس اللبنانيين .

ولم يكن هذا سلوك البعث في اول نشأته . ففي سنة ١٩٥٠ قامت الوزارة السوريّة المؤتلفة برئاسة السيد خالد العظم والتي تضمّ عدداً من الوزراء من حزب الشعب كما تضمّ عدداً من المستقلين والسيد أكرم الحوراني ، قامت بما يسمّى « بالقطيعة » بين سوريا ولبنان . فقد فصل النقد السوري عن اللبناني وانفكت العلاقة في شؤون الجمارك وبعض الامور الاخرى فاصبح كل قطر منفصلاً انفصالاً تاماً عن القطر الآخر. والذي يمكن استنباطه ان قيادة الجيش السوري هي التي أوحت الى الحكومة بهذا الامر . ولو أن الجيش لم يكن راغباً فيه ما تجاسرت الحكومة على القيام به .

ووزراء حزب الشعب والمستقلون كانوا صدى للرغبة الاقتصادية السورية التي كان يمثلها اصحاب الشركات والمصانع .

وفي لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب والتي كان يرأسها نائب من نواب الحزب جرى نقاش حاد مع الحكومة ممثلة بشخص رئيسها حول القطيعة وتكهرب جو الجلسة وتبودلت العبارات القاسية . فممثل الحزب كان ضد القطيعة بينما كانت الحكومة وأكثرية مجلس النواب الساحقة راغبة في تحقيقها .

وقال ممثل البعث ورئيس لجنة الشؤون الخارجية ان بيروت عندنا وحلب في منزلة واحدة . واذا كانت بيروت مستوردة كما تزعمون ودمشق مصدّرة وان ذلك يجعل مصالحهما متعارضة فانّه قول لا يستند الى اساس متين . لأن حلب اذا كانت مصدّرة ودمشق مستوردة فهل يجب فصل حلب عن دمشق . والموضوع المادي لا يصلح ان يكون مرتكزاً للعلاقة القوميّة . وفي سورية محافظات عديدة لا تدر على خزينة الدولة شيئاً من الموارد فهل يجب فصلها عن الوطن والقاؤها في العراء بسبب ضعفها الماديّ . وبالتالي فان الموضوع القومي لا يمكن ان يوضع

على صعيد الموضوع المادي وعلى مستواه .

وان سورية في تاريخها القومي لا ترضى ان تنحدر الى هذا المستوى وتقطع مع لبنان علاقاتها الاخويّة في سبيل الحصول على اموال لا تصل الى جيوب الشعب بل الى عدد محدود من التجّار المستوردين ومن هم في حكم هؤلاء .

وعرضت القضية برمتها على مجلس النواب فصادق عليها بمخالفة نواب ثلاثة هم البعثيّون . فقد التزم الناطق البرلماني باسم الحزب والنائبان الآخران بمبادىء الحزب واهدافه ومنطوقه الذي قام عليه والشعار الذي يدفعه . وكان ان تدفّق عدد كبير من الشبّان اللبنانيين الى حزب البعث العربي لموقفه من قضية القطيعة .

اين ذلك الموقف في ١٩٥٠ من حالة النفور الراهنة في ظلّ حكم البعث ؟

ووضع الاردن تحت (الحجر) من جانب سورية والعراق البعثيّين وسدّت الطرق واغلقت المنافذ اليه ومنه . وفي ظنّ الحكومتين ان ذلك يضغط على الحكومة الاردنيّة فتبدل اسلوبها وتقبل بنظرية السوريين والعراقيين . ولكن الذي حدث هو أن الضرر قد لحق بالشعب الاردني ومعه جناحه الآخر الشعب الفلسطيني . وهذا ايضاً زرع بذرة النفور في نفوسهم ضد المتسببين في اضرارهم . والنفرة لا تقف عند حدود حكّام سورية والعراق بل تتعدّاها الى الاشمئزاز من السوريين والعراقيين عامة . واذا كان هذا لا يظهر واضحاً اليوم فلأن الأمر في بدايته ولكنّه اذا استمرّ فان النفور سيبدو جلياً . ونحن سقنا لبنان والأردن مثلين لا على سبيل الحصر . فان هناك تدابير مماثلة أخرى .

واذا كانت الحكومات (الرجعيّة) لا تهتم بالمصلحة القومية العليا فما هو عذر الحكومات البعثية التي قامت على اساس شرط ضمني هو السعي بكل الامكانيات لتحقيق التقارب بين شعوب الاقطار العربيّة وبعد ذلك فان هذا التقارب لا بد ان ينساب الى السلطات فيتحقّق التقارب ثم الوحدة .

الانطواء

ومارست حكومتا العراق وسورية البعثيّتان نوعاً من الانطواء والانعزال عن العرب جعل العالم العربي ينظر الى وجودهما نظرة الريبة والشك ويرى فيهما نشازاً ونبواً يستلزم المحاربة والاقصاء. وقد ادّى بهم الارتجال وقلة الخبرة والكفاءة الى فتح جبهات عديدة في وقت واحد مما يجعل انتصارهم مستحيلاً. والبعث لم يكن موحّداً حتى في مواقفه الخارجيّة بل ان كل جناح منه كان يمارس الصراع ضد الآخرين وحدّه وبدون الاستعانة بالجناح الآخر.

وقد توقف السير البعثي بعدما كان الطريق مفتوحاً امام البعث ليحلّ في اقطار عربيّة أخرى «وتكلّس» واصبح يفقد من عناصره ومن كيانه بدلاً من ان يضم اليه عناصر جديدة الاّ ما كان من انضمام بعض المرتزقة من افراد وفئات.

ان البعث قد حجر على نفسه واسعاً والزمها ما لا يلزم فهو بغير حاجة الى القيود التي فرضها وتقيد بها لأنّها شروط لا تخدم الامّة العربيّة وخاصة في هذا الظرف من تاريخها. فالافضل ان تتحقق الوحدة بدون تقدمية مثلاً. وتحقيق الوحدة يجرّ الى التقدمية بعد ذلك ويسهل قيامها. فلماذا يضع البعث هذه التقدمية شرطاً للوحدة او يضع الاشتراكية شرطاً لها ما دام لا يمكن في الوقت الراهن الجمع بينهما بالنسبة الى الاقطار العربية الأخرى التي لا تدين بالاشتراكية.

البعث والسياسة الخارجية

يمكن ان يوصف البعث بانه في عزلة في ميدان السياسة الخارجية كعزلته في ميدان السياسة العربيّة.

واذا طرحنا المكابرة جانباً وتحللنا من الرغبات الخاصة فانه يمكن تقسيم العالم اليوم الى عالم متحضّر وآخر متخلّف. والمكانة الدولية هي التي تمنحها الدول المتحضّرة لا الدول المتخلّفة. كما انه يمكن تقسيم

العالم من وجهة أخرى الى عالمين ، عالم قوي وعالم ضعيف . والمكانة الدولية هي التي تعترف بها الدول القوية لا الدول الضعيفة .

١ – وحزب البعث عزل نفسه عن العالم المتحضّر ونصب من هذا العالم عدواً له . فالولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا والمانيا وكندا ثم دول اسكندينافيا تقف في الجانب المخاصم للبعث او البعث يقف في الجانب المخاصم لها . واذا كان هذا صحيحاً فانه قد يحوز البعث على صداقة بعض الدول الافريقية المتخلّفة وهي دول لا تسمن ولا تغني عن جوع .

٢ – والعالم الحرّ او الرأسمالي كذلك يقف في الجبهة المناوئة لحزب البعث . وهذه الدول التي يتألف منها العالم الحرّ هي الدول ذاتها التي قلنا عنها انها هي الدول المتحضّرة . ويبقى هناك الدول الشيوعية وهي من حيث التصنيف من الدول المتحضّرة لكنّها لم تبلغ مكانة الدول الغربيّة .

٣ – ومن بين الدول القويّة فانه ليس للبعث حليف او صديق الاّ الاتحاد السوفيتي . والاتحاد السوفيتي اذا قيس بالعالم الغربي فانه يعد ضعيفاً ايضاً لان قوى الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وحلفائها تفوق اضعاف قوة الاتحاد السوفيتي .

فالبعث يعد بوجه من الوجوه معزولاً في الميدان الدولي الخارجي . وان صداقته مع الدول الشرقية وزعيمتها روسيا لا تخرجه من هذا الوصف . ومع كل ذلك فان صداقته مع الاتحاد السوفيتي هي صداقة سطحية لأنها لا تشبه بوجه من الوجوه صداقة اسرائيل مع الولايات المتحدة التي هي مستعدة ان تخوض حرباً من أجل اسرائيل بينما روسيا غير مستعدة ان تفعل ذلك في سبيل البعث او في سبيل العرب . والروس يعترفون بالدولة الاسرائيلية وكل ما يمنحونه الى العرب من تأييد هو تعديل في الحدود الراهنة لصالح العرب ، وهم موافقون على الحلّ السلمي خلافاً لرأي البعث . وقد حرص رئيس الدولة السوفياتية في استقبال الرئيس أحمد حسن البكر على ان يضمن خطابه القبول بالحل

السلمي كما جاء في القرار ذي الرقم ٢٤٢ . ومن هنا يتبيّن ان الصداقة مع الروس تقف عند حدود معيّنة .

وقد يقول قائل ان هذه العزلة اضطرارية وليس للبعث يد فيها لأن تلك الدول التي وصفناها بأنها متحضّرة وقويّة هي التي حملت البعث على مثل هذا الموقف . وقد يكون هذا القول صحيحاً الى حد بعيد . لكن السياسة الخارجية لا تخضع لقواعد السلوك الفردي ولا لقواعد السياسة الداخليّة كما لا تخضع لقواعد السياسة العربيّة التي يسلكها العرب في ما بينهم .

فموقف البعث من تلك الدول هو موقف يوصف بانه « مبدئي » الاّ ان المبادىء في السياسة الخارجية يجب ان لا تسيطر على السلوك . ومن الخطأ تعريض العرب لخسران ومصاعب وفقدان أرض وكرامة بحجة الموقف المبدئي المثالي . ومن المفيد ان نقتدي بالدول الكبرى والصغرى ايضاً فهي تتبع مصالحها القوميّة وأينما دارت فانهم يدورون معها .

فهذا الاتحاد السوفيتي ينتقل من مكان الى مكان في سبيل مصالحه القوميّة . فهو قد أقرّ التعايش السلمي مع خصمه اللدود « اميركا » ، ونزل الى ميدان التعامل معها والاتجار واياها وعقد القروض منها ولم يجد بأساً في هذا ، والتبرير واضح وهو أن هذا التحرّك والرشاقة ليست لصالح فرد من الحكّام وانما هو لصالح الامّة .

والصين التي كانت متطرفة في موقفها من العالم قد خفّضت من غلوائها وانسابت الى خارج حدودها تتعامل مع العالم في سبيل مصالحها القومية . وامريكا ذات الحول والطول قد نزلت الى ميدان التسويات والى حد الاعتراف بالصين الشعبيّة دولة وحيدة للصين ومعنى هذا تنكّرها لحليفتها الصين الوطنية .

ويمكنك ان تعمم هذا على الدول كافة ، فانه ليس في السياسة الخارجية لا عدو دائم ولا صديق دائم وانما هناك مصلحة دائمة للامة وهي المنبع الذي يستمّد منه الحكّام سلوكهم وهو الذي يرسم خطّ

السير لهم . فالبعث يسلك مسلك التجمّد اما من غفلة واماّ عن مقاصد أخرى لم نستطع كشفها والإطلاع على حقيقتها . واذا استمرّ على هذه الحال فسوف يستمرّ في عزلته وانطوائه على نفسه . وهذا لا يعني اننا ندعو الى اللاأخلاقية بل الى الوعي واليقظة فحسب .

حلف بغداد يعود

عندما عقد حلف بغداد من دول اجنبيّة هي بريطانيا وايران وباكستان ومن امريكا مراقبة فيه ودخلت حكومة العراق في ذلك الحلف فاننا قد نقدنا العراق نقداً مرّاً على ذلك . وكنت كتبت مقالاً في جريدة الحضارة ابيّن فيه الاخطاء القومية التي ستلحق الضرر بالعرب جميعاً . واذكر ان محطة صوت العرب القاهرية قد اذاعت المقال برمّته مما لا مجال لبحثه الآن .

وحقيقة هذا الحلف انه يخلو من مضار قومية في صلبه ولا يحمل العراق تبعات جساماً . لكن نقدنا انصبّ على امر واحد هو أن العراق تصرّف تصرّف الدولة التامة التي لا ترتبط بالامّة العربيّة . وهذا أمر خطير اذا اجيز استعماله فقد تزعم كل دولة عربية ان مصالحها الخاصة تحتم عليها عقد أحلاف مع الاجانب . وحينئذٍ يحلّ التمزق المعترف به بين اجزاء الامّة العربيّة .

وكنت يومئذٍ أعبّر عن رأي حزب البعث العربي اذ كنّا متفقين في ما بيننا على مثل هذه الاتجاهات القومية .

وزال حلف بغداد بالنسبة الى العراق . لكن حكومة البعث في العراق وفي سورية ايضاً تصرفت تصرف الدولة التامة ولم تحسب لرأي العرب حساباً في ذلك التصرّف .

فاعتراف سورية او العراق بحكومة المانيا الشرقيّة مثلاً هو تفرد في موضوع مهم في السياسة الخارجيّة ومن المفروض ان تكون السياسة الخارجيّة العربيّة موحّدة .

وان عقد معاهدة بين العراق والاتحاد السوفيتي هو تفرد خطير ايضاً في قضية مهمّة من ميادين السياسة الخارجيّة . وليس بين هذه العمليّة وعملية حلف بغداد اي فرق فالدلالات واحدة .

ولا شك في ان الموقف السوري كان ارصن من موقف العراق في هذه المسألة فهو لم يتورط في الارتباط بمعاهدة مع الاتحاد السوفيتي . ولعل اعضاء القيادة قد استوعبوا المعاني التي يتضمنها مثل هذا الاتفاق وانها خروج على الصف العربي وتفرد في السياسة الخارجيّة لا يتفق مع ابسط مفاهيم الحزب . ولعل الظروف المحليّة لم تكن ملحّة على هذه القيادة بحيث تضطر الى القيام بهذه العملية .

اما القول بان مصر قد سبقت العراق في هذا المضمار فالجواب على ذلك هو أن الخطأ لا يقاس عليه ونحن لا نقرّ مصر على عملها . كما انه من المفروض ان يكون البعث العربي عارفاً بحقيقة المصلحة العربية أكثر من سواه وخطيئته في هذا المجال اعظم من خطيئة الآخرين .

والسؤال هو : كيف كان البعث يستنكر حلف بغداد ثم يقوم هو بعمل مماثل لحلف بغداد . ان حلف بغداد الذي دخلت فيه العراق لم يكن ابتداء . فقد كان لأعضاء الحلف من دول الغرب نفوذ من قبل الحلف . وكان دخول العراق في الحلف ثمناً لالغاء المعاهدة العراقية البريطانية . كما أن مدة الحلف كانت خمس سنوات .

اما معاهدة العراق مع الاتحاد السوفيتي فهي ابتداء . ولم تستبدل العراق شيئاً بشيء . كما ان مدة المعاهدة تزيد ثلاثة اضعاف عن مدة حلف بغداد . وبصرف النظر عن اي منافع للعراق من المعاهدة فان المحذور الاساسي الذي ذكرناه هو التفرد عن العرب وهو الأمر الخطير.

على ان هذا السلوك هو جزء من الاسلوب العام الذي يسير عليه البعثيون في نطاق الانفراد . ذلك ان الحزب مختلف الجناحين في السياسة الخارجيّة وفي السياسة الداخليّة .

١ ـ فالعراق عقد معاهدة مع الاتحاد السوفيتي وسورية لم تعقد مثل هذه المعاهدة . فكان كل جناح اذاً يسير في طريق غير طريق

الجناح الآخر .

٢ – العراق ضد مصر ، وسورية مع مصر .

٣ – العراق ضد السودان ، وسورية مع السودان الى حد .

٤ – العراق ضد ليبيا وسورية مرتبطة مع ليبيا في اتحاد .

٥ – العراق مع القوميين العرب في اليمن الجنوبي وسورية ليست معهم .

٦ – العراق له منظمة فدائية خاصة به بينما الصاعقة هي منظمة سورية .

وقد قصرت ذكر الخلافات على ما بين سورية والعراق لكون حكومتيهما بعثيتين وهو موضوع هذا الكتاب ولم اذكر الخلافات بين سائر الدول العربيّة لأنني لست في صددها .

وقد كان حلف بغداد في ما مضى على رأس المآخذ التي تلام عليها العراق وهو السبة القبيحة . وكان حزب البعث يحمل لواء تلك المهاجمات. واذكر اني دعيت لحضور حفلة استلام العراق لمطار الحبانية الذي كان من نتائج الغاء المعاهدة البريطانية وكانت الحفلة بمثابة تمهيد لحلف بغداد . وقد اتخذنا قراراً نرفض فيه الاشتراك لأننا نعتبر هذه الحفلة قد تكون دعاية لما يريد أن يقوم عليه العراق وهو حلف بغداد . وحزب البعث في العراق هو الذي يعقد المعاهدة مع الاتحاد السوفيتّي وكأنما الذي يجوز صنعه مع هذه الدولة لا يجوز صنعه مع اية دولة أخرى . وفي نظر البعث الحقيقي ان الاجانب كلهم سواسية الاّ في حالات من التعاون في المجالات السياسية فقط .

البعث واسرائيل

موقف البعث بجناحيه في سورية والعراق من اسرائيل موقف سليم . فهو لم يقبل بقرار مجلس الأمن ولم يقبل بمبدأ الحل السلمي لقضية فلسطين ذاك ان الحل السلمي فيه غبن وفيه ظلم للعرب . فهو يعترف بوجود

دولة اسرائيل مضمونة الحدود آمنة مستقرّة . والكفاح العربي طول هذه السنين الماضية كان القصد منه الغاء الكيان القانوني الدولي لاسرائيل . وان قبول قرار مجلس الأمن هو تنازل كامل عن كل الاهداف المعلن عنها والجهود التي بذلت في هذا السبيل . وهنا نشير الى خلاف قائم بين سورية ومصر حول هذه المسألة . فمصر توافق على الحل السلمي الذي يلخّص وقائعه قرار مجلس الأمن بينما سورية لا توافق . ومصر وسورية هما عضوان في اتحاد الجمهوريات العربية المؤلف منهما ومن ليبيا . والمفروض ان السياسة الخارجية على الاقل تكون متفقاً عليها بين القطرين .

لكن موقف البعث السليم المعبر عن حقيقة الرغبة العربية وكرامة العرب هو موقف نظري صرف . فهو لم يحفز البعث الى اعطاء هذا الموقف ما يستحق من تدابير تعبّر عنه وتجعل منه شيئاً عملياً ذا دلالة وفعاليّة . بمعنى ان حكومتي البعث لم تقوما بالاستعداد الذي يقتضيه هذا الموقف . وان من يقف مثل هذا الموقف كان عليه ان يترك كل شيء جانبي او ثانوي وينصرف الى اعداد العدة لخوض المعركة الحاسمة ضد الدولة الاسرائيلية وهذا ما لم يقع .

ان للصهيونية العالمية ومن يواليها من الدول المزهوة بقوتها المغترة بثرائها عملاء في كل بلد عربي . وهؤلاء العملاء منبثون في صفوف الوطنيين المخلصين والمنظمات القومية ولكنهم لا يعلمون انهم عملاء . وانما الغفلة والرعونة والارتجال تجعل منهم منفذين لارادة الصهيونية العالمية من حيث لا يدرون . وكثيراً ما ينفذون تلك الارادة بدافع القومية والعروبة والاخلاص . وهم قد أخذوا بالدعاية والايحاء .

وهذه الدعاية قد خلقت للحكومات مشكلات شغلتها بها عن قضية فلسطين . فلقد القي في روع الحكومات انه لا يستقر لها قرار ولا تستطيع تحقيق برامجها القومية الاّ بالقضاء على المعارضة كما القي في روع المعارضة ان القضية القومية لن يكتب لها النجاح بوجود هذه الحكومات فالخطوة الاولى في هذا السبيل هي القضاء على هذه الحكومات . واحتدم

الصراع وتكهربت الاجواء وتزعزعت الثقة وحلت الاحقاد وامتلأت النفوس بالضغائن والمحن . وليس هذا الصراع العنيف في الداخل الا من صنع الصهيونية العالمية وتخطيطها .

وأخذت حكومات البعث بهذه الدسائس وانهمكت في الصراع الداخلي . فخلا الجو لاسرائيل تصنع ما تشاء ما دامت القوى البعثية في شغل عنها .

والمفروض ان يتنبّه البعث الى مثل هذه الدسائس ويتجنّبها ويهتم بالقضايا المصيرية ولا يحدث الجراح والآلام للمواطنين ليصيرهم اعداء له.

ونخلص من كل ذلك الى القول ان موقف البعث من اسرائيل هو الموقف العربي من الناحية النظرية . اما من الناحية العملية فان البعث لم يقم بالاستعداد الكافي ليحول نظريته الى عمل مثمر يحقّق الارادة العربيّة . واذا اخذنا البعث على انه قطران فان البحث عنه مختلف . فحكومة سورية تحمل اعباء أكثر من اعباء العراق لأن سورية دولة ملاصقة للوجود الاسرائيلي . اما العراق فانه ليس من دول المواجهة كما يسمونها وبينه وبين اسرائيل فاصل هو الاردن . وقد أعطى هذا الفاصل العراق بعض الاطمئنان . وحديث العراق عن اسرائيل مهما كان متطرفاً لا يكلفه شيئاً من المصاعب . اما التطرف السوري فان له ثمناً ولا بد من التهيؤ لاحتمال الثمن . والبعث في العراق لا ينجد البعث في سورية في عراكه المحتمل ضد اسرائيل لأن البعث في هذا الميدان دولتان . وهو يخرج عن كونه حزباً واحداً في مجالات الامتحان .

وعلى ذلك فان الموقف السلبي من الحل السلمي الذي يقفه العراق هو موقف (مجاني) اي لا يكلف العراق متاعب ولا مصاعب . اما الموقف السوري فانه يعرض سورية لامكانية الحرب . فالموقفان اذاً ليسا في مستوى واحد من القوة والاخلاص والجديّة .

البعث والعمل الفدائي

ان البحث في اسرائيل يجرّ الى البحث في العمل الفدائي . لأن العمل

الفدائي هو الذي يتصدّى لاسرائيل اليوم بعدما خمدت جذوة الجيوش العربيّة ودب اليأس في نفوس بعض حكّام العرب كما دبّ الاستهتار والتخاذل في نفوس بعضهم الآخر . فالعمل الفدائي هو الخصم وهو المقارع للوجود الاسرائيلي بصرف النظر عن امكاناته ومدى نجاحه في هذا الميدان .

ونحن هنا نريد ان نبيّن موقف البعث من هذا العمل . ان موقف البعث واضح من الناحية الرسمية فهو مؤيد له داعم لحركاته بلا قيد ولا شرط . وهذا موقف قومي سليم .

ولكن الناحية النظرية تختلف عن الناحية العملية في هذا الميدان .

وقد حدث حادث يدل على عدم الترابط والتضامن بين الدولتين اللتين هما جناحا الحزب . فقد تدخلت القوات السوريّة في الاردن لصالح الفدائيين. ولم تتدخل القوات العراقيّة بل ان هذه القوات انسحبت من ارض المعركة وابتعدت عن الساحة . وبصرف النظر عن سلامة الخطوة السوريّة او خطئها فان المفروض ان تتعاون القوّتان البعثيّتان وتتضامنا في كل موقف .

وجناح البعث في العراق لا يجاور الوجود الاسرائيلي ومعنى ذلك ان العراق ليس منطلقاً صالحاً للفداء . واما سورية فهي منطلق فيه بعض الصلاح ومن المفروض ان تكون سورية هي الدعامة الاولى للعمل الفدائي . وهذا غير واقع لأن الحكومة السورية جعلت اشرافها كاملاً عليه وهو لا يستطيع التحرك الاّ باذن منها وبموافقتها التي لا بد متأثرة بالمناخ الدولي والاعتبارات السياسية الأخرى . وهذا يعني ايضاً انه لم يعد للعمل الفدائي نظرية خاصة به وانما النظرية التي تنطبق على الدولة السورية هي التي تنطبق عليه بحيث يصبح مشلولاً لان الدولة تخضع لاعتبارات دولية لا ينبغي للفداء ان يخضع لها .

وسورية كما هو معلوم لا تسيطر على كل المنظمات الفدائيّة وانما تسيطر على منظمة واحدة اوجدتها وموّلتها ودعمتها في كل الميادين . تلك هي منظمة الصاعقة .

والعراق هو الآخر قد اوجد له منظمة خاصة به . وفي الاردن نواة لمنظمة يختص بها . وهذا الوضع قد اخل بمهام العمل الفدائي وافقده استقلاله وجعل له منطلقات لا تتفق مع خدمة اهدافه . فبدلاً من ان تكون الحكومات في خدمة المنظمات فان المنظمات اصبحت في خدمة الحكومات .

وهذه هي الخطيئة الاولى من جانب البعث في ميدان العمل الفدائي . اما الخطيئة الثانية فهي قصوره عن ايجاد الامكانيات لهذا العمل . فمن المعروف ان أصلح منطلق للفداء هو الأردن . فان بينه وبين الوجود الاسرائيلي خطاً طويلاً جداً ، وقد قام بين الأردن وبين المنظمات ما علمه القراء ، وقد انتصر الجيش الاردني وأخمد العمل الفدائي . ومهما تكن الاسباب وبصرف النظر عمن يكون المخطىء والمصيب فان هذا قد حدث . والمصلحة القومية تستلزم ادامة الفداء فلا بد من محاولات تبذل مع الاردن لاعادة المياه الى مجاريها مع الفداء ، لكن المحاولة التي جرت كانت مغلوطة وقد نجم عكس المطلوب .

ومن السذاجة التصور بان الدول ذات النفوذ في المنطقة تسمح للجيش السوري ان يسيطر على الاردن ويتصرّف بنظامها القائم على حسب ما تراه نظرية الحكومة السورية . كما انه من المشكوك فيه ان الجيش السوري يستطيع التغلب على الجيش الارد ني . وان مقاومة الاردن بالسلاح ومحاولة فرض الرأي عليها يزيد في عنادها وتصلبها . والمسألة تعالج موضوعاً قومياً مصيرياً فلا بد لها من لين وحسن تصرف ولباقة وحذق .

وان افتراض البعث ان الاردن محمول حملاً على هذا الموقف من قبل القوى المناصرة لاسرائيل وانه لا فائدة من الاحتكاك به ومباحثته في الأمر لهو افتراض يفتقر الى تأكيد . ولو أن هناك واحداً بالمئة من الأمل في الوصول الى الهدف فانه لا بد من القيام بالتجربة . وفي كثير من الاحيان يتصرّف المرء بدافع اوهام لا يلبث ان يرى عكسها حين الممارسة والمباشرة في العمل .

ومن العسير علينا ان نتصوّر ان ملكاً تهدّده المنظمات وبعض

الحكومات البعثيّة من ورائها باسقاطه واسقاط نظامه ثم يأمن لها ويقبل التعامل معها . ومن البدهي القول ان الظرف هو اسقاط الكيان الاسرائيلي لا اسقاط النظام الاردني كما يتردد على بعض الالسنة .

نكبات على عهد البعث

نقصد هنا من هذه العبارة ما حلّ ببعض بلاد العرب من احداث ليست في صالح الامّة العربيّة . ونحن نذكر ما حدث من غير ان نجعل البعث مسؤولاً عما حدث . ذاك ان الذي حدث كان سيحدث حتى لو لم يكن البعث حاكماً . لكن المسؤولية الكبرى في هذا الباب هي ان حزب البعث قد سعى الى الحكم واستلم السلطة قبل ان تكتمل استعداداته للحكم والسلطة وقبل ان يهيىء الجهاز الكامل المخلص من بين اعضائه ليضطلع بالمهام الجسام التي سوف تلقى على عاتقه . واوقع نفسه في الورطة وكان يمكنه ان يتخلص منها لو انّه تريث واستأنى .

ان الاحداث لو وقعت على غير عهد الحزب ما كان الحزب يدمغ بها وتسمّى باسمه وتقترن سيئاتها بوجوده فتكون سبباً لانفضاض الناس عنه واتهامه احياناً بما هو منه براء . والناس تأخذ بالظواهر والخصوم لا ينصفون . وكان الافضل للحزب ان يتّئد ويبتعد عن السلطة الى ان يختمر بنيانه ويصبح قادراً على ادارة الدولة .

لكن هذا لم يكن واستعجل الحزب الى الحكم مفاجأة وبقدرة قادر كان للحزب دولتان في سورية والعراق . وعلى عهد الحزب اصاب العرب ما اصابهم مما سنعدّد الكثير منه ونشير الى مدى المسؤولية البعثية في كل واحد من الاحداث :

١ ــ **حرب حزيران** : اسرائيل هي التي رسمت حرب حزيران . ولكنها لم تكن تريد ان تظهر بمظهر البادىء بالحرب فزحلقت العرب الى درجة ان الرأي العام في العالم اعتبر ان اسرائيل كانت مدافعة عن نفسها ووجودها ، وانها كانت مكرهة على الحرب . وكان الاسم البارز في هذه الفترة هو اسم الرئيس جمال عبد الناصر اذ هو الذي مارس

بعض الاعمال التي تدل على انه مصمم على الحرب . فقد طرد البوليس الدولي وسد المضايق وظهر بمظهر من يتأهب للهجوم على اسرائيل .

وكان الحزب في سورية متلائماً كلياً مع عبد الناصر في هذا المظهر. وقد صدر تصريح عن رئيس وزراء سورية الذي ذهب الى مصر قال فيه : « اننا جئنا لنحارب » . وقد دلت المعلومات على ان حزب البعث في سورية هو الذي زيّن لعبد الناصر الاندفاع في هذه الطريق . وان الحزب كان يقصد من وراء ذلك الايقاع بعبد الناصر . وسواء أصح هذا القول ام لم يصح فان بعض الحزبيين كان يدعيه ويزعم ان الحزب بلغ غايته عندما اعلن عبد الناصر استقالته من الحكم يوم التاسع من حزيران عام ١٩٦٧ .

وحرب حزيران كارثة قل مثيلها في تاريخ العرب الحديث وهي بوجه من الوجوه تشبه قيام اسرائيل دولة في فلسطين . وهي كارثة وقعت على عهد حزب البعث في سورية فدمغ الحزب بها نفسه واحتمل عارها ومضارها .

وهنا تحدّد مسؤولية الحزب اذ كان عليه ان يعمل جهده لابعاد الحرب ما دام يعلم ان الاستعدادات غير كافية للرد على اسرائيل بدلا من ان ينفخ في نارها . وهو اذ لم يستطع منع الحرب فان عليه ان يقوم ببعض الدفاع اعراباً عن التفاني في سبيل الوطن وتدليلاً على الاخلاص والايمان بالحق العربي وبكرامة الأمة العربية .

وقد بلغ من الجور في الحكم والامعان في الدعاية البعيدة عن الحق ان الحزب اعتبر نفسه منتصراً في هذه الحرب . فقد قال مسؤول حزبي :

لقد كان قصد اسرائيل اسقاط النظام في سورية فلم تقدر وهذا فشل لاسرائيل وانتصار لنا . اما الارض التي احتلتها فليس لها اهمية لأن الارض تعود كما ذهبت اذ الاصل الذي تدور عليه المعركة هو نظام الحكم في سورية وهذا مستقر .

والمسؤولية الأخرى هي ان البعث خلال حكمه لم يكمل استعداداته

لملاقاة يوم مثل ٥ حزيران بل انصرف الى الامور الثانية او الثانوية . وبذل جهوده في الداخل ملاحقاً المعارضين منكلاً بهم . وعندما وقعت حرب حزيران كانت السجون مملوءة بزعماء السياسة والفكر والشباب المناضلين وشيوخ القبائل .. والقيادات الشعبية تكاد تكون مشلولة تماماً . ومع كل ما جرى فان الحزب ظل متمسكاً باسلوبه القديم ولم يحاول لم الشعث ورص الصفوف الشعبيّة الى ان طلع أخيراً بنغمة الجبهة التقدمية التي تسير في ركابه وتقتات بما ينعم به عليها الحزب .

٢ ــ **المسألة الكرديّة** : البعث في العراق (ولا يصح ان يقال البعث العراقي) لم يكن مسؤولاً عن حرب حزيران مسؤولية تامة لانه لم يكن « دولة » . ولذلك فان اللوم قد انصب على البعث في سورية .

اما في المسألة الكرديّة فان البعث في سورية يحمل قسطاً من اللوم في أمرها . والبعث في سورية كان عليه ان يساهم ويشارك في معالجة هذه المسألة ولو كانت ضمن القطر العراقي . اذ ان البعث بعث واحد لا بعثان من الوجهة القومية والنظرية وحتى اذا لم يطلب الجناح العراقي منه هذه المشاركة . وأنا اقول ذلك ولا اطلب التدخل القسري والمشاركة القهرية بل اطلب المشاركة الوديّة الاخوية لأن مصير القطرين واحد فضلاً عن ان الحكم فيهما واحد .

ونحن كنا نعتبر البعث مسؤولاً ومدعواً لمعالجة كل القضايا العربية فكيف لم يحاول المساهمة في حل المسألة الكردية وكيف حاول حسم الخلاف بين الاردن والمنظمات الفدائية بشكل يعطي عكس المطلوب تماماً عما جرى . فهل هذا الاسلوب هو مجرد غفلة وسذاجة ام أن وراءه اموراً أخرى لا نملك الدليل عليها ؟

ولو أن البعث في سورية عرض مساعدته ووساطته بين الحكومة العراقية وبين الأكراد ولو أنه اظهر العطف اللائق والاهتمام الكافي وأعلن موقفه من التأييد لايجاد الحل الاخوي لتغير وجه المسألة ترجيحاً لا قطعاً . اقول ذلك لأن هناك ما يدل على ان المسألة أبعد من أكراد الشمال في العراق وان هناك يداً تسير هذه الفئات .

والاكراد في الحقيقة هم أخوان لنا ديناً وتاريخاً ومشاعر الى جانب العلاقات الاخرى من الخؤولات والمصاهرات . حتى لقد اختلطت الانساب بيننا وبينهم في كثير من المناطق فلم يعد الكردي يعرف من العربي . ونحن من ناحية المبدأ نقر لهم حقوقهم التي لا تفصلهم عنا او تبعدهم عن ميادين مشتركة سرنا فيها واياهم قروناً طويلة . ففي ذلك خسران لهم ولنا .

ونحن اخيراً لا نأسف على ان ينال الأكراد في العراق بعض مطاليبهم ويحققوا بعض رغباتهم التي تبعث فيهم الطمأنينة والاستقرار النفسي ولكننا نأسف على ان ذلك لم يتم الا بجفوة وخلاف بيننا وبينهم . لأن خسارة الاكراد تعني خسارة عنصر من عناصر تكويننا وقطعة من بنياننا . وقد خسرنا نحن العرب خسارتين : خسارة من سوء العلاقة مع الأكراد وخسارة من انفصالهم السياسي والجغرافي الى حد كبير عن الوطن العربي في العراق .

ولقد كانت اتفاقية ١١ اذار من عام ١٩٧٠ المعقودة بين حكومة العراق وبين الأكراد مثلا سيئاً في العلاقات بين الطرفين . الم تر ان المسألة كانت وكأنها بين جهتين لا علاقة لاحداهما بالأخرى وانتفت منها روح الاخوة والمواطنة .

ان الاكراد كانوا من قديم الزمان في هذا المكان من العراق وبنفس النسبة العددية فلماذا لم تصل قضيتهم الى هذا الحد من التأزم ومحاولة الانفصال الا في عهد حكومة البعث ؟

هذا شيء يلفت النظر . كنا المحنا الى ان خصوم البعث وخصوم الامة العربية ارادوا ان يحدثوا احداثاً ليست في صالح العرب في زمان العهود البعثية لينفروا العرب من شعارات الحزب ويشككوهم في صدق الحزبيين وسلامة تكوينهم المعنوي والقومي .

فانا اطرح التبرير واقول ان الحدث اقوى من البعث في العراق وقد تكون اليد الخفية المفترضة هي التي خلقت الجفوة بين الجناحين السوري والعراقي فجعلت الجناح العراقي يتفرد في معالجة المسألة الكردية

ويضطر الى قبول الاتفاقية . قد يكون كل هذا صحيحاً وانا لا أرضى ان أدين الا المدان حقاً . ولكني اعود فاقول ان البعث ما كان عليه ان يكون طرفاً في اتفاقية لم تكن في صالح العرب ولا في صالح الأكراد على المدى البعيد . وكان عليه ان لا يتحمل مثل هذا الوزر . وتصريحاً اقول كان على البعث ان يترك حكومة السيد البزاز مثلاً في طريقها الى هذه الحلول . وليس البعث مضطراً ان يقبل اموراً سيئة ما دام غيره ينفذها . هذا في حال الاضطرار .

٣ ــ تردي العلاقات بين العرب : سبق وافردنا فقرة خاصة بهذا الموضوع . وقد مرت عهود كثيرة كانت العلاقات بين العرب تسوء وتتردى . ولكن لم يمرّ بالعرب عهد كعهود البعث من حيث التفكك والتمزّق . مع ان المفروض هو العكس ، فان واجب البعث ان يكون صلة الوصل لا بينه وبين الآخرين بل بين سائر العرب فيكون الوسيط الذي ينتزع اسباب الخلاف ويسعى الى تسوية الامور ورصّ الصفوف .

ولقد كانت الخلافات بين العرب قبل استيلاء البعث على السلطة خلافات سياسية او مصلحية او شخصية يمكن التغلب عليها بايجاد التوافق بين هذه المتناقضات وايجاد التسويات او الحلول الوسطى . لكن هذه الخلافات اصبحت بوجود البعث خلافات عقائدية (ايديولوجية) . والعقائدية لا ترضى بالحلول الوسطى . فالبعث اذاً في سلوكه الحاضر قد عمق الخلافات بين اجزاء الامّة العربية ومنع التلاحم بينها الاّ في حال تحقيق شرط يشترطه البعث وهو أن تصبح الدول العربية كلّها تقدمية اشتراكية وهو مطلب عسير في الظروف الراهنة . والاشتراكية لا ينبغي ان تكون سبب قطيعة وخصام وعداوات يضيع معها الصالح العربي كله . فالاشتراكية ملك ايدينا ونحن نستطيع تحقيقها ولن تفوت الفرصة عليها . اما الاتحاد بين العرب فيمر بحالات دقيقة وما لم نهتبل الفرص لتحقيقه او تقريبه فانا نكون قد اضعنا فرصاً لا تعوض .

نرد على ذلك ان البعث قد تنازل عن امور كثيرة وجوهرية عندما اعتبر انه بذلك يحقق اموراً اسمى منها واعظم نفعاً للعرب . الم ترَ ان

الحزب الغى وجوده كاملاً في سبيل تحقيق الوحدة بين مصر وسورية . فاذا كان هذا جائزاً في مذهب البعث فلماذا لا يكون جائزاً ايضاً التريث والتؤدة في موضوع الاشتراكية اذا كان ذلك يضمن شيئاً من الاتحاد بين اقطار عربية اخرى وبين حكومة البعث .

ولكن اغلب الظن ان هذا الشرط لو تحقق ما ادى الى الاتحاد لأنه شرط متوفر اليوم في دول عربيّة ولم يقم بينها مع ذلك اتحاد . فالعراق تقدمي وكذلك سورية والجزائر واليمن الشعبية ولا رابطة بينها . ويبدو ان القطيعة كانت الهدف وان التقدمية سبب ابتدع تبريراً لذلك ولم تكن الاشتراكية الهدف والقطيعة سبباً لها .

والمفارقة الكبرى انه بينما الدول البعيدة بعضها عن بعض نسباً وانظمة وجغرافيا قد أخذت تسير في طريق التعايش السلمي فان العرب على ما بينهم من روابط القربى وتوفر كل علاقات الوحدة يسيرون في دروب التنافر والقطيعة بحجة التقدمية او الاشتراكية . فلم تكن تقدمية الصين مانعة لها من التعايش مع اليابان على ما بينهما من إحن وثارات ولا كانت اشتراكية روسيا مانعة لها من التعايش مع امريكا .

ولقد كنا في ما مضى وكان الناس معنا في انتظار حكم البعث كي يزيل الجفوة بين بلاد العرب وكان الشعب حينما يتذمر من الحواجز القائمة بين الاقطار العربية يتمنى على الله ان يسوس أمور العرب حزب مثل حزب البعث ليقضي على تلك الحواجز . هذا يوم كان حزب البعث حزباً يعمل في اطار المثل ويسبح في فلك القومية وحدها . لكن الامر قد تبدّل وسفر البعث عن وجهه فاذا هو انفصالي مثل الحكومات التقليديّة التي سبقته والتي حاربها لانفصاليّتها .

فالبعث ضد لبنان ، وضد السعودية وضد المغرب وضد الاردن وضد الجزائر التي تنادي هي الاخرى بالاشتراكية وضد تونس . والبعث ضد البعث اي ان بعث سورية هو ضد البعث في العراق . وحتى اتحاد الجمهوريات المتحدة الذي هو اتحاد مشكوك في جدواه قد بدأت الخلافات تنخر في جسمه . فالقطر الليبي مختلف عن القطر السوري في امور كثيرة .

وان قيام وحدة بين مصر وليبيـــا وهما عضوان في الاتحاد قد يكون مقصوداً منه اخراج سورية ولكن بشكل لبق اذ ان زيادة الارتباط بين عضوين وترك الثالث هو اخراج له لا من الوحدة بل من الاتحاد لأن الاتحاد الغي لما قام ما هو اوثق منه واعمق واغني الوحدة .

وقد عجز البعث عن امتصاص اي من الكيانات العربية المتزايدة والتي بلغ عددها ست عشرة دولة ، ودمجه بشكل ودي مقبول الى كيان عربي آخر .

واذا استمرت الاحوال على ما هي عليه ، فقد تصبح الامّة العربية عرقاً تاريخياً تنتسب اليه دول لا ترتبط في ما بينها برباط الاّ الرباط التاريخي . فهذه اسبانيا وايطاليا وفرنسا كلها تنتمي الى العرق اللاتيني . وهذا العرق لم يشفع لها من الخلاف والحروب والعدوات.

وانا لا ازعم ان التّرياق هو في يـــد البعث فلذلك لا احمله الاّ المسؤولية التّي يتحمّلها . والمسؤولية الكبرى في هذا الباب هي ان البعث لم يعامل العرب معاملة (ابوية) كما كان يتوجب عليه ولا معاملـــة « رحمانية » ملؤها العطف والاخوة ولم يتسامح مع مذنب من العرب يقول عنه البعث انه مذنب . ثم هو لم يكن قادراً على ان يرد الشاذ الى قواعده والناد الى شوارده ومع ذلك وقف متصدياً للدول العربية يحاسبها (ويؤدّبها) فما نجم عن سلوكه هذا الاّ الفرقة والاّ العداوة . فهل الحزب يريد العداوة عامداً متعمّداً ام انه غافل عن ان هذا الاسلوب هو المقدمة التّي ينتجها التمزق والتشرذم ؟

وعلى سبيل المثال اذكر ان العلاقة بين القطرين الشقيقين المتممين احدهما للآخر ، وهما سورية ولبنان ، كانت على عهـــد الانتداب الأفرنسي افضل مما هي عليه اليوم مئات المرّات . فقد كانت السياسة الاقتصادية موحدة والنقد موحداً والحدود مفتوحة امام كل الناس فلا حدود ولا أمن عام ولا تفتيش ولا جمارك ولا رسوم . ولم يكن يشعر احد من السوريين او اللبنانيين انهم اتباع دولتين وانما كان الشعور السائد

انهم رعايا دولة واحدة .
اما اليوم فلا حاجة لذكر حال اليوم فهو معروف لدى الخاص والعام . وهذا يحدث في زمن البعث الوحدوي القومي .

٤ ـ **سوء سمعة العرب** : كان المفروض ان تتحسن سمعة العرب دولياً في عهود البعث لأن البعث قام اول ما قام على الاخلاقية والانسانية . ولكن الذي وقع هو عكس ذلك . فالدول التي يسميها البعث دولاً رجعيّة من العرب لم تعط انطباعاً سيئاً للعالم الخارجي كما اعطت حكومات البعث .

فالحكومات غير البعثيّة عليها طابع التخلّف والتخلّف ليس سبة بحد ذاته لأنه وليد زمن طويل ونتيجة عوامل قد لا يكون للشعوب ولا لحكّامهم طاقة على دفعها والتخلص منها لكن السبة في ان لا يحاول الحكّام والشعوب التخلص من هذا التخلّف . والواقع ان الدول العربية كلها تبذل جهوداً للانطلاق من هذه الحال وهي سائرة على الدرب . والدول الاجنبيّة التي لها صلاحية الحكم على الناس واعني بتلك الدول الدول المتحضّرة من عالمي الغرب والشرق . ان تلك الدول الاجنبيّة تنظر الى الأمور من ناحية صلتها بالانسانية . واذا كانت تلك الدول نفسها لا تسير وفق القواعد الانسانية فما هذا بمنحيّها من صلاحية الحكم لأنها هي النافذة والقوية والمسيطرة على العالم في ناحيته المادية والادبيّة وليس حكمنا عليها هو المسموع .

وهذه الدول قد أصدرت حكماً صارماً على العرب بما شهدته وما سمعته من حوادث البطش والفتك والارهاب التي مارسها حكم البعث ولا سيما في العراق . وهذه التصرفات تعتبرها تلك الدول ضد الانسانية كما ان الحكم الفردي وهو الذي يمارسه الحكم البعثي في كل من سورية والعراق هو حكم لا يتفق مع الديمقراطية . اضف الى ذلك ما كان من جمود وتخلف شمل كل النواحي السياسية والاقتصادية والفكرية .

ومن المقاييس التي تبني عليها الدول الاجنبيّة احكامها الحريات العامة ومنها حرية الصحافة . وليس في دولتي البعث في سورية والعراق

اثر لهذه الحرية . ولقد اطلعت على جريدة اجنبيّة كتبت عن حرية الصحافة في العالم فكانت اسرائيل في الدرجة الخامسة من بين دول العالم في هذا المضمار . وقالت الجريدة ان هذه الحرية لا وجود لها ولا ذكر في البلاد العربية .

والصحف الاجنبيّة وبعض الدول تلقب اسرائيل بانها قلعة الديمقراطية في الشرق الاوسط . مع ان المفروض ان تكون حكومة البعث هي قلعة الديمقراطية نظراً لما تضمنه دستور الحزب من نص قاطع على الدستوريّة والنيابيّة وحكم الشعب ونظراً للايمان الذي يغمر مؤسسي الحزب . هذا الايمان الذي تجسّد في مواد الدستور .

كما ان استقلال القضاء وحرية القضاة من المقاييس المهمة في نظر العالم المتمدن . واستقلال القضاء اصبح مزعزعاً خاصة في الطرق التي لجأت الى اقامة محاكم عسكرية تسير وفق ايحاء الجهات السياسية في احكامها . وكثيراً ما تصدر التشريعات الجزائية ولها مفعول رجعي . وهذه قاعدة جزم علماء القانون في العالم ببطلانها ولم يبح العلماء المفعول الرجعي الاّ في حالة ان الرجعة تنفع المجرم وتخفف الاحكام عليه . وحكومتا البعث في كل من سورية والعراق لم تكونا نموذجاً صالحاً في هذا المضمار .

ومما اساء الى سمعة العرب عامة تلك المراهقة السياسية والسلوك غير المسؤول الذي سار عليه حكّام البعث . فقد كان هذا مبعث زراية من جانب الدول في كل انحاء العالم . وسأضرب بعض الامثلة على هذه المراهقة :

قال رئيس بعثي سابق اننا سنجعل الاسطول الامريكي السادس طعمة للاسماك . والاتحاد السوفيتي الذي يكاد يضاهي امريكا في قوتها لا يقول مثل هذا القول .

وقال رئيس بعثي آخر : لو شئنا لبنينا حائطاً للمبكى من دمشق الى ان يصل الى القدس .

وقال مسؤول آخر : ان العراق لا يقف مكتوف اليدين اذا تدخلت

بريطانيا في شؤون ليبيا يوم انقلابها على الملك .
واذا كانت الدول العربية مجتمعة لم تستطع زحزحة اسرائيل عن مواقعها فماذا تستطيع دولة واحدة من هذه الدول العربية أن تفعل ببريطانيا التي تعد عملاقاً ضخماً بالقياس الى اسرائيل . واذا كان المسؤول البعثي يستطيع الايقاع ببريطانيا فلماذا لا يوقع باسرائيل .
لكن هذا كله كلام ليس له من الدلالة الا شيء واحد هو عدم الشعور بالمسؤولية وهو ايضاً من باب المراهقة السياسية التي تعرض الدولة الى المخاطر المادية والمعنوية . وقد عرض المسؤولون البعثيون بالتصريحات الضخمة التي لا تتناسب مع امكانياتهم الحاضرة سمعة العرب الى وضع في نظر العالم لا يحسد عليه العرب .
ان العرب كانوا مظلومين ولا يستأهلون الحملة التي شنت عليهم في الكثير من جوانب العالم من خلال اعمال الفدائيين ولا سيما ما حدث منها في مونيخ . وانا لا اقول هذا تعصباً وانما ابحث الأمر موضوعياً .
ان الانسان العربي الفلسطيني أصبح انساناً مرهقاً لكثرة ما حلّ به من كوارث . فهو مهدّد بالموت وواقع تحت كابوس العوز وهو فاقد الأمل من كل ما يأمله الأنسان العادي مع زيادة في القلق النفسي وظلمة المستقبل . انه فقد الأمل من الدول العربية وجيوشها التي لم تستطع تصحيح اوضاعه . وفقد الأمل من الضمير العالمي الذي لم يظهر اهتماماً يتناسب مع خطر قضية فلسطين .
ولقد كانت عملية مونيخ رمزاً ودلالة وليست هدفاً بحد ذاتها . فليس القصد اذاً قتل الاشخاص بقدر ما هو ابراز القضية التي دمرت ذلك الفلسطيني . والعربي الفدائي في مونيخ وفي كل مكان انما هو مدافع وليس مهاجماً . والقضية تدرس مجموعة لا متفرقة الاجزاء والوقائع ليكون درسها منطقياً سليماً . واذا كان العربي قد هاجم الاسرائيلي اليوم فانه بذلك يرد على هجمات الاسرائيلي يوم امس وقبله . فالاسرائيلي هو البادىء بالهجوم . هو الذي أخرج العربي من ارضه وشرده وقتل من ذويه من استطاع أن يقتل واوقعه في محنة يكاد لا يذكر التاريخ لها

شبيهاً في مراحله الطويلة . لكن مهارة اسرائيل ومساندة امريكا لها هي التي عرضت القضية على الرأي العام مقلوبة الاوضاع بحيث اشعرته ان العربي معتد وان الاسرائيلي ضحية ارهاب وسلوك لا انساني .

وهنا يأتي دور البعث وتحديد مسؤولياته . فالاعلام العربي عامة هو اعلام ضعيف الاثر خاطىء السلوك . والاعلام البعثي هو جزء من الاعلام العربي وان الوصف ينطبق عليه ايضاً . ان الصحف العالمية هي التي تتولى تلميع الامور وعرضها على الشكل الذي تريده . والصحف العالمية تحتوي على امكنة مفتوحة وهي تتقاضى اجوراً على ملئها ممن يدفع الاجور . والامكانيات العربية المادية متوفرة وكان يمكن دفع المبالغ اللازمة مهما كبرت في سبيل عرض قضية العرب الحق على صفحات تلك الصحف الكبرى . وكان على العرب ان يسبقوا اسرائيل ويدفعوا ما يجب دفعه لا رشوة ولا افساداً ولكن تلميعاً للحق وزهقاً للباطل . والبعث بجناحيه يستطيع القيام بهذه المهام . ومن الممكن توفير مثل هذه الاموال باختصار الحفلات والمهرجانات التي تقام بلا حاجة ولا ضرورة ، فضلاً عن الاموال التي توفر من اختصار جهاز المخابرات الذي يعمل حول المواطنين في الداخل .

هذا وان تأييد العمل الفدائي في مونيخ تأييداً كاملاً من الحكومات العربية من غير شرح الاسباب الواجبة الى ذلك التأييد عرض سمعة العرب أجمعين الى التلوث . فتوجهت اليهم التهمة على انهم يوافقون على الاجرام ولا يستنكرونه . ومن استنكر من العرب حادثة مونيخ فانما استنكرها هرباً من ان يقع تحت طائلة هذه التهمة من جانب الرأي العام العالمي .

٥ ــ **اذلال العرب** : قال المؤرخون المحدثون ان الحجاج بن يوسف قد اذل العرب في سلوكه الارهابي حتى كاد ينتزع منهم جذور الانفة والاباء وعزة النفس . وهذا القول ينطبق على حكم البعث فقد كان الارهاب الذي مارسه سبباً في انتزاع الانفة وعزة النفس والاباء وفي ظهور اعراض الذل والمسكنة على الانسان العربي الخاضع لحكم البعث .

ونحن كنّا اشرنا الى انه القي في روع البعث أن أمره لن يستتب له ولن يستطيع تحقيق برامجه الاّ اذا ازال المعارضة التي تقف في طريقه . كما اوحي للمعارضة ان الامور لن تكون سوية الاّ بزوال حكم البعث . فاصطرعت القوّتان . والبعث دولة وفي يده كل الامكانات . فكان البطش والارهاب اذن ضرورة الزمته بها طبيعة الخط الذي سار فيه .

ونحن هنا لا نسوق التبرير ولكنّا نصف الدوافع وصفاً نخرج بنتيجته الى القول ان المذلة امام الحكم في الداخل قد عمت فأصبحت مذلة امام الداخل والخارج وصارت ملكة لا يستطيع المرء ان يتغلب عليها بيسر.

ومن المؤكد ان التهويل العربي في وصف قوة اسرائيل لم ينجم الا عن هذا الرعب الذي حلّ في الانسان العربي نتيجة الارهاب الذي يلقاه من حكوماته المختلفة . واذا انتشر الذل وكثُر الاذلاء فان العدو ينتصر بلا قراع ولا صراع وهو يكون قد استعمل قوته المودوعة في نفس العربي الا وهي الذل . وبلاد العرب اجمالاً لا تعنى بشحذ النفس العربيّة وصقلها واظهار مواهبها الخلقية والفكرية لأن حكامها في شغل بانفسهم عن كل هذا . وكان الأمل معقوداً ايضاً على البعث ليقوم بهذه المهمة ، نظراً لمبادئه التي أعلنها في ميادين الاخلاق والقومية . ولكن البعث لم يفعل ذلك بل انه فعل العكس . فقد ازداد الرعب في عهود البعث وسيطر الذعر على الناس وزاد الشك حتى بين الاقرباء والاصدقاء، وظن كل واحد بكل واحد انّه من عناصر المخابرات التي تتجسّس عليه وتحصي انفاسه حتى لقد ضاق الوطن على رحبه بهذا الانسان . ومن العجيب ان يستمرىء حكام من البعث ان يحكموا حجارة او هياكل او عبيداً . بينما النفوس الكريمة لا تستطيع العيش الاّ في اطـــار من النفوس الكريمة مثلها .

وجناحا البعث في سورية والعراق سيان من حيث المبدأ لكن هناك بعض التفاوت في درجة الارهاب . ففي سورية بعض التورع عن الشدة الرعناء وبعض الحرص على دماء المواطنين . وقد يكون السجن هو الحد الاقصى للعقوبة في أكثر الاحيان وقد يكون المنع من دخول الوطن

هو العقاب .

وبلاد العراق وسورية مرّت بحالات من الذعر فرضه الحكّام عليها . ففي العراق كان عهد عبد الكريم قاسم رهيباً وقد عاش العراقيون في غمرة من اليأس والحسرات .

وعاشت سورية في ظلال بعض الدكتاتوريات ايضاً تحت ظل الارهاب كعهد حسني الزعيم مثلاً وعهد الشيشكلي . لكن كل هذه العهود لم تزد في قسوتها عن عهود البعث . وهنا اقول ان المشاعر قد تختلف حتى بالنسبة الى الحدث الواحد . فقد لا تكون الشدة في عهد البعث اقسى منها على عهد عبد الكريم قاسم او حسني الزعيم . لكن البعث لم يكن على مستوى حسني الزعيم او عبد الكريم قاسم في نفس الانسان العربي اذ ان هذا الانسان كان يأمل الحرية والبحبوحة والانطلاق على يد البعث فلما لقي خلاف ذلك كانت الصدمة وكان الشعور بالظلم اشد .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان الامل مفقود في التغلب على اسرائيل ولو كان في يدنا كل الاسلحة الحديثة بما في ذلك القنبلة النووية ما لم نحقّق شرطاً واحداً هو اساس النصر ودعامته . ذلك هو الشعور بالعزة واطراح الذل جانباً وايجاد الثقة بالنفس . فليس الفرق بيننا وبين اسرائيل في السلاح كالفرق بين فيتنام وامريكا . ومع ذلك فان امريكا لقيت الأمرين في فيتنام .

واذا سأل سائل : هل الذل من « اخراج » البعث فان الجواب ان البعث قد ساهم في ذلك ، وزاد فيه بدلاً من ان يتولّى معالجة ما كان من قبل من اثاره . واذا لم يفعل البعث ذلك فقد تنازل عن مزاعمه ومدعيات الاخلاقية والقومية .

٦ — **بروز الاقليميّة** : الحق ان بروز الاقليميّة لم يبدأ على عهد البعث ولكنه بدأ من بعد انفصام الوحدة السورية المصرية . وهو لم يكن نتيجة الانفصال بل لعل الانفصال كان نتيجة له .

لكن هذا لم يختفِ في عهد البعث . والبعث يختلف عن الاحزاب

السورية او العراقية القديمة بانه جعل الوحدة عنواناً له . وكان المفروض ان تزول المعالم الانفصالية في زمن البعث . ولقد كان المرتكز القومي الذي برر به انقلاب الثامن من اذار عام ١٩٦٣ وجوده هو أن الحكومة كانت انفصالية وان الانقلاب جاء ليحقق الوحدة . لكن الوحدة لم تعد رغم مضي عشر سنوات على هذا الوعد .

والبلاغ الاول كان فيه روح ناصرية فقد بيّنا الشراكة التي كانت بين البعثيين والناصريين يومذاك . والناصريون يضمّون في عدادهم وحدويين حقيقيين . الاّ ان الجمهرة من الناصريين لا تفهم الوحدة الا عودة سورية الى نفوذ حكام مصر . ولو قامت وحدة بين القطرين وكان النفوذ فيها لسورية فان ذلك ليس وحدة . واذا سألتهم عن توحيد سورية ولبنان او سورية والعراق او سورية والاردن فانهم لا يرضون . ان الوحدة ان تكون مصر طرفاً وطرفاً متحكماً . ولو سألتهم ان تقوم وحدة بين مصر وليبيا او بين مصر والسودان فانهم لا يوافقون. فالوحدة تعني عودة الجمهورية المتحدة اي وحدة مصر وسورية وكفى . وان بعض البعثيين قد مسّتهم عدوى هذه الفكرة فاخذوا بها .

ومع ان انقلاب اذار تذرّع بالوحدة وقام لتحقيقها فانه لم يفعل شيئاً كما ان انقلاب شباط لم يفعل هو الآخر شيئاً في سبيل الوحدة ، واذا نحن التمسنا للبعثيين عذراً وقلنا انهم لا يستطيعون تحقيق الوحدة لا كلياً ولا جزئياً لأن المقاومة لها شديدة جبّارة ، فلماذا يعيبون على الآخرين عجزهم اذن عن تحقيق الوحدة لأن المقاومة هي هي في عهد البعث وفي غيره من العهود . على ان هذا التبرير لا يرضي ضمير العربي لأن التبرير انما يكون بعد بذل المساعي والجهود . فاذا لم تبذل الجهود فان الملامة واقعة بلا رحمة .

ولقد انطلق كل قطر عربي يتصرّف وكأنما هو دولة تامة اذ راح يعقد المعاهدات مع الدول الأجنبية ويعترف بمن شاء ويقطع العلاقات بمن شاء بلا حساب للعرب ورأيهم ومصلحتهم القومية .

ولقد جاء في البيان الاول الذي اذاعه انقلاب تموز ١٩٥٨ بزعامة

عبد الكريم قاسم ان العراق دولة تامة . ومن هنا سيطر علينا التشاؤم بينما جماعة البعث والناصريين قبلوا هذا المنطق اللاقومي . وكأنما سار البعث في عهد حكمه على غرار عبد الكريم القاسم فقبل ان يكون كل قطر عربي دولة تامة ، وبهذا عمق الانفصال واصبح مألوفاً .

ولقد اصبح الانفصال هو القاعدة المعترف بها بل هو الأمر المفضل ايضاً . فالدسائس الاجنبيّة اوحت الى العقل العربي نوعاً من الوسواس والاوهام بان في الاتحادات مكيدة وان الاستقلال القطري اسلم من النفوذ الاجنبي . وكانت الدول العربية بما فيها حكم البعث تقف من اتحاد الامارات العربية موقف المعارض الذي يثير الشكوك ويتوقّع وراء الاتحاد نفوذاً بريطانياً .

وبالتبعية واستمراراً لهذه الشكوك انطلق الصراخ العربي مطالباً بريطانيا بسحب قواتها من الخليج . وعندما فعلت بريطانيا ذلك احتلّت ايران الجزر الثلاث ولم يرتفع صوت عملي للعرب . وكل ما فعله العرب ان بعض دولهم البعيدة عن ايران وغير المسؤولة عن الوجود العربي قد قطعت علاقاتها مع ايران .

والبعث يفهم الوحدة العربية ويفهم الامّة العربية على غير ما يفهمها الناصريون . ونحن في فصل آت سنتطرق الى ذكر الفارق بين البعثيين والناصريين في مفهوم الامة العربية والوحدة . وعلى اي حال فان عهد البعث لم يقرب العرب من وحدتهم المنشودة .

ثلاثة تيارات في بلاد العرب

في كتابي المخطوط المعد للطبع والمسمى « منزلة العرب بين الامم » بحث عن هذه المسألة رأيت ان اقتبس منه وازيد عليه ما هو مفيد من الزيادات :

« لا بد من الاشارة الى تيارات ثلاثة تحتل منطقة الشرق العربي والمغرب العربي ايضاً » .

« تيار مصر ونفوذها المبني على ضخامة الدولة بالقياس الى مجموع

العرب والى سابقتها في النهضة ونبوغ بعض المتفوقين في بعض المجالات اذا قيسوا بامثالهم في الدول العربية الأخرى .

وهذا التيار يعتمد السياسة والتكوين الدولي في القضية العربيّة . وهو يكتفي بالجوار واللغة والمصلحة المشتركة لصنع الدولة الموحّدة التي تضمّ الناطقين بالعربيّة » .

ومصر تنظر الى العرب من ناحية نظرية الدولة . فضمّ الاقطار العربيّة وتجميع بعضها الى بعضها الآخر في كيان سياسي دولي واحد هو تحقيق للوجود العربي كاملاً .

اما سائر العرب فانّهم يعتبرون انفسهم امة قبل ان يكونوا دولة . وفرق كبير بين الامة والدولة . اذ الدولة تعبير سياسي دستوري ليس للعاطفة ولا للعقيدة ولا للنسب المشترك اثر فيه . بينما الامّة هي الكائن الاجتماعي والكتلة البشرية المتماثلة في لغتها وفي عقائدها واعرافها ومصطلحاتها وتاريخها وامثالها واساطيرها . وهي التي يشعر كل فرد بانه ينتمي اليها وانه يعتزّ بهذا الانتماء . وهنا يقوم الاختلاف بين النظرة المصريّة وبين نظرة العرب الآخرين الذين يرون خلاف ذلك . وهذه النظرة هي التي تبناها حزب البعث العربي في اندفاعته التأسيسيّة الاولى .

وقد تكون الخلافات القائمة اليوم بين مصر وبين الاقطار العربيّة منطلقة من الخلاف في النظرتين الى الامة فبينما تنظر مصر الى العرب انّهم دولة وكيان سياسي نجد الآخرين ينظرون الى العرب على انهم امّة . وان قيام اتحاد او حلف بين قطرين عربيين والوقوف عند هذا الحدّ من العلاقات انما هو نتيجة من نتائج نظرية الدولة .

٢ – تيار السعودية : وهو تيار مزيج من العروبة والاسلام . ونفوذ السعودية آتٍ من كونها معدن العرب ومنبت عقيدتهم ومبعث حضارتهم الانسانية . وترى السعودية انه يجب بناء على ذلك اعتبارها من الدول الاولى ان لم تكن الدولة الاولى بين الدول العربيّة ، ويجب في رأيها ان تكون قدوة وموجهة وان العرب لاينهضون الا بهذا

وهي تشترط من غير تصريح ان يكون الشرع الاسلامي والاعراف الاسلامية هي الدستور الذي يحدّد سلوك الدولة المرتقبة . ولا مجال عندها لما دخل في « الايديولوجية العربية » من اسماء « اليسار » او الماركسية او ما هو في معناهما او قريب منهما .

وهذا التيار يميل الى ان يكون الدين قاعدة من قواعد القومية العربية والدولة العربية . وهو تيار يختلف في كثير من عناصره عن التيار المصري لا من ناحية النفوذ الدولي او الصراع على احتلال المركز الأول في بلاد العرب وانما من ناحية العقيدة ومن ناحية المفاهيم العامة للدولة والامة . والتياران قويان لأن لكل منهما انصاره ورواسبه في النفوس والعقول ولا بد من ايجاد الصيغ للتوفيق بين التيارين والتيار البعثي الذي سنبحثه بعد قليل والخروج من كل ذلك بتيار واحد منسق .

٣ — التيار البعثي : « ويمكن تسميته تيار البعث لا تيار حزب البعث فقد أصبح هناك فارق بين الأمرين . فتيار البعث هو الذي انطلق حين تأسيس حزب البعث وهو تيار لا يفصل بين العروبة والاسلام بل يعتبرهما مادة واحدة او مادتين متلاحمتين على الاقل . وهو بذلك طبعاً لا يقترب من التعصّب الديني ولا يمارسه ولا يوافق عليه . وتيار البعث يعترف بوحدة الأمّة من حيث العقيدة والتكوين النفسي والبنيان المتشابه في كل مناحي الحياة وهو يرى وحدة الامّة قبل وحدة الدولة ، وان وحدة الامّة هي التي توصل الى وحدة الدولة وهذا خلاف ما عليه التيار المصري (الناصرية) . وهذا التيار كما بينّا يرى وحدة الدولة اولاً ، وهذه توصل الى وحدة الامّة بعد ذلك . اما تيار حزب البعث اليوم فقد اختلف عن ذلك لأن الحزب اقترب من التيار المصري واصبح يحرص على الخط السياسي أكثر من حرصه على الخطّ الروحي العاطفي العقائدي . وهذا يظهر حتى بالنسبة الى الافراد والمنتسبين الى الحزب » .

« ان هذه التيارات الثلاثة هي التي تصطرع في بلاد العرب وكل واحد منها يعمل لتكون له السيطرة على الامّة العربيّة . والعاملون

في الحقل السياسي يجب عليهم ان يجدوا السبيل للتوفيق بين هذه التيارات ما أمكن . ذلك ان القضاء على واحد منها او اثنين ليس من الامور اليسيرة وان تفرد واحد منها بالنفوذ قد يحتاج الى صراع داخلي يشل حركة العرب ضد اسرائيل ويعرقل نهضتهم ويمنع تكامل استعدادهم » .

هذه التيارات قائمة في الاقطار العربية وهي تصطرع فيما بينها كما قلنا لكن لكل واحد منها خصماً آخر يصطرع معه في داخل كل قطر . ان هناك التيار القبلي والاعراف القديمة والمصطلحات المألوفة من قبل الشعوب والتي تؤثر في حركة الشعوب وفي تكييف عقليتها ونظرياتها .

التيار القبلي

ان التيارات التي سردنا ملخصاً عنها هي التيارات التي تهبّ على السطوح ما دامت فكرية او سياسية . واذا وصلت الى الاعماق فانها تتأثر بما هو ارسخ في النفوس . فالتيار الديني والتيار القبلي يغلبان في نتيجة الصراع كل التيارات الفكريّة .

ويمكننا ان نستعرض بعض الاحداث لنخلص منها الى تأييد نظريتنا التي تقول ان التيار القبلي والديني اعمق واشد اثراً في النفوس من سائر التيارات .

١ — ففي اليمن حدث انقلاب على الامام البدر . وكان له انصار وقفوا معه ضد الانقلابيين . والانقلاب رفع شعار التقدمية وما اليها . وسار معه ايضاً انصاره . لكن الانصار الذين ساروا مع الانقلاب لم يكن يدفعهم الى ذلك شعار التقدمية فانهم لا يعرفون لهذه الكلمة معنى ولا يجدون لها دلالة . وانما ساروا مع الانقلاب لاسباب قبلية . فقد تكون هناك قبيلة مغبونة او مبعدة عن النفوذ او ان بين زعمائها وبين الامام خلافاً لسبب من الاسباب . فهذه القبيلة سارت مع الانقلابيين فاصبحت « تقدمية » . ويمكن القول مثل ذلك في سائر القبائل اذ ان التي ايدت الامام لدوافع مصلحية او قبلية قد اصبحت « رجعية » . ومن الدلائل على انه لا الرجعيّة ولا التقدمية هي موضوع البحث او

سبب التحرك هي ان القبيلة برمّتها كانت تسير في جهة واحدة لا يشذ من أفرادها أحد عن سلوكها العام . فالقبيلة كاملة اما تقدمية واما رجعيّة . وهذا ما لا يقبله المنطق . لأن التفكير لا بد مختلف بين هذه المجموعة من افراد القبيلة لو كان التفكير هو الذي يقود هؤلاء الافراد.

٢ - وفي اليمن الجنوبي احتدم صراع بين فئتين سياسيتين وكانت جبهة المقاومة في اليمن هي الاقوى والاعنف نضالاً . ولكن الذي حدث هو ان الجبهة الشعبيّة هي التي استلمت السلطة بعد رحيل بريطانيا عن المنطقة . حدث ذلك لأن القوة العسكريّة في عدن كان ضباطها من القبائل التي ينتمي اليها سياسيو الجبهة فتدخّلت تلك القوات وسيطرت على الموقف وسلّمت السلطة الى الاقرباء وأبعدت الغرباء عنها .

٣ - وفي العراق اليوم رغم شعار التقدمية واليسار والثوريّة فان السلوك القبلي هو المتحكّم في امور الدولة . والذروة من حكّام العراق يتحرّكون عفوياً وارادياً بوحي الأثار القبلية .

ونحن نسرد هذا لنبيّن للقارىء ان هذه التيارات تتفاعل وانه لا بد من ايجاد ما يسمّى « التسوية » بينها حتى لا يذهب الصراع بقوى الامّة ويبدّدها في مماحكات داخليّة لا يستفيد منها الاّ خصوم الامّة العربيّة .

والريف العربي كلّه يخضع لتحكم المشاعر القبليّة بما في ذلك المدن الصغيرة والمتوسطة . وليس من تيار فكري او سياسي او عقائدي يحل في تلك الارجاء الاّ ويتفاعل مع الاعراف القبلية فيؤثر فيها . ولكنه يتأثر بها أكثر مما يؤثر فيها .

وانا اعرف مدينة صغيرة من مدن سورية تصلح مثالاً لما اقول . ذاك ان التيارات السياسية قد كانت متناسقة متلاحمة متناغمة مع التيارات العشائرية . فهناك قبيلة أكثرها ناصريون وهناك قبيلة أكثرها بعثيون . اما القبيلة الأخرى المنافسة فانها تريد التعبير عن استقلالها ووجودها ومجرد قبولها الناصرية او البعثية يعتبر تبعية لغيرها .

فوقفت بين بين لا ناصرية ولا بعثية وانما تتعاطف قليلاً مع التيارات المناهضة للبعثية والناصرية كالسورية القومية . والقبيلة تلك لا تعرف شيئاً عن المذهب السوري القومي ولا تؤيده وانما هي عربيّة المشاعر . وان موقفها هذا مستمدّ من المحاولة العفوية والارادية لاثبات استقلالها .

التيار الطائفي

يمكن اعتبار التيار الطائفي جزءاً من التيار القبلي ومتمماً له او بديلاً عنه في حال ضعفه . فما من تيار فكري ايضاً الاّ ويكون متأثراً او متفاعلاً مع المشاعر الطائفيّة . يبدو هذا في العراق وفي سورية . وفي اليمن كان الصراع الطائفي بين الزيدية والشافعية من عوامل الانقلاب على الامامة . فانت ترى الأكثرية من القبائل المؤيدة للانقلاب شافعية المذهب كما ان القبائل المؤيدة للامام هي زيديّة .

وفي مؤتمر (حرض) الذي عقد لايجاد تسوية لاوضاع اليمن والذي تمثل فيه الطرفان (الرجعي والتقدمي) او الجمهوري والملكي كان ممثلو الجمهوريين من الشافعية الاّ أقلهم وكان ممثلو الملكيّة من الزيديّة الاّ اقلّهم .

وفي العراق تنصب تهمة على الحكّام بانهم من طائفة معيّنة وانهم يعملون بوحي من مصلحة هذه الطائفة . وفي سورية كذلك تنصب الاتهامات على الحكّام بانهم يعملون طائفياً .

فما هو مبلغ هذه الاتهامات في كل من سورية والعراق ؟ ونحن نسأل عن هذا في سورية والعراق لأن البعث هو الحاكم في القطرين والطائفية تتناقض مع شعارات البعث ومع ما ورد في دستور الحزب من استبعاد للطائفية والعنصرية والقطرية وكل ما هو مناقض لتضامن الأمّة معرقل لوحدتها . كما ان بحثنا في هذا الكتاب مقتصر على البعث الاّ فيما له علاقة بالبعث ايضاً . ونحن سوف نجيب على هذا السؤال بالروح التي تحركنا وهي اننا لا نقر الادانة الاّ على المدان حقاً ، وان نظريتنا هي النظريّة التي يقول بها التشريع الاسلامي والمعبّرة

عن الخلق العربي . هذه النظرية هي ان المتهم بريء حتّى تثبت ادانته وان الاسباب التخفيفيّة عندنا متوفّرة .

لا بد للمراقب من بعيد ان يرى شيئاً من التعاطف الطائفي في اجهزة الحكم لا سيما اذا كان المراقب غير مؤيد للحكم ولا قانع به ولا متعاطف معه . والمراقب لا يرى الاّ ظواهر الاشياء . ولكن المنصفين الذين يصدرون الاحكام المنطقية والحريصين على سلامة احكامهم لا بد لهم ان يغوصوا الى الاعماق كي ينكشف لهم ما كان مستتراً ويطلعوا على حقائق كانت لديهم مجهولة وهم يكتفون بالنظر الى السطوح .

فكل حاكم لا بد أن يكون عضواً في بيئة ومحيط بشري يعيش معه ويتأثر بمناخه الفكري والنفسي .

والاختلاط والاجتماع عادة في بلادنا انما يقومان بين المتقاربين عشائرياً او طائفياً او بلدياً او ما هو شبيه بذلك .

فالتعاطف الطائفي اذن يظهر بحكم طبيعة الاحداث لا بحكم ارادة الحكّام . وقل مثل ذلك تماماً في موضوع القبيلة والمدينة وحتّى الحي وحتّى رفاق المدرسة ورفاق السفر احياناً . لكن كل ذلك لا يدخل في حساب المراقبين وانما هم يقتصرون في حسابهم على العلاقة الطائفيّة او القبليّة ليدينوا بها الخصوم من الحكّام ويطعنوهم بها .

وعلى ذلك فان الطابع الطائفي قد يظهر في بعض الحكومات ولكنه طابع لا يجب ان نبني عليه من الابنية ما لا يستطيع الاساس حمله . اي انه لا ينبغي اعتبار هذه الظاهرة سبباً لادانة عهد من العهود اذا كان السلوك العام لهذا العهد يسجّل خدمات قومية في المجالات العامة الأخرى.

والعهود العقائديّة على الخط البعثي تحاول ان تجعل أجهزة الدولة كلها من الحزبيين اذا استطاعت ذلك . وماذا يصنع العهد اذا كان الحزبيون في أكثريّتهم من تلك الطائفة في هذا القطر ومن تلك الطائفة في ذلك القطر . فهنا يحصل التوحيد بين الحزبيّة والطائفية فاذا احتلّ الحزبي مركزاً عالياً في الدولة قيل عنه انه احتل المركز لأنه من تلك

الطائفة . وهذه حال معقّدة لم يستطع حزب البعث التغلّب عليهـا وايضاحها للرأي العام لينفي عن حكم البعث تهمة التأثر بالمشاعر الطائفية والعمل بوحي منها .

وقد يكون التكتل اضيقَ من الطائفة ومن المدينة . فقد يكون بين افراد اسرة واحدة او قرية واحدة او عدة قرى . وفي العراق مظاهر من هذه الحالات . فالذروة هناك من قرية واحدة بل من اسرة واحدة . وعندما يقرّر الكاتب ان ذلك لم يكن عن عمد او تعصب وانما الصلات الفكريّة والتواثق والانسجام هو الذي ادى اليها ، عندما يقرر الكاتب ذلك فانّه لا يحتاج الى عظيم ذكاء ، لأن ذلك القرار مبني على المنطق فليس من صالح الحكّام ان يظهر عليهم مثل هذا التكتّل والتعصب للاسرة الاّ في حالة الاضطرار .

وكل التفسير الذي سقته لا يصلح ان يكون تبريراً كافياً لأن البعث العربي موضع مراقبة الناس حتى قبل أن يصبح دولة فكيف به بعدما أقام دولتين في سورية والعراق . وكان عليه ان يحتاط لنفسه ويبتعد عن مواطن الشبهات فلا يترك مجالاً للاتّهام والتقول حول امور تنقض اهداف البعث وسلوكه الذي بشر به وتخالف ما ورد من نصوص واضحة في الدستور .

صحيح ان مراقبة النفس والسلوك ومحاذرة الخطأ قد تصل بالمرء احياناً الى حد الوسواس والقلق . كما انها قد تحرم بعض المستحقين من حقوقهم اذا كان هؤلاء المستحقون ممن لهم صلة قربى أو نسب او علاقة طائفيّة بالحكّام . ونحن لا ندعو الى ان تصل الحال الى هذا الحدّ ولكنّا كنا نريد زيادة في التبصّر والتدقيق في كل عمل يقوم به البعث تجنّباً لما قد ينصبّ عليه من قول .

ولقد اصبح المفسرون يفسرون الجفوة بين الحكومتين السورية والعراقية على انها ناجمة في الدرجة الاولى من اختلاف الطائفتين اللتين ينتسب اليهما الجناحان السوري والعراقي من البعثيين وهم يجزمون ان لا تلاقي بين القطرين ما دامت الحال الراهنة قائمة . وهذا هو الذي قلت

عنه انه مجال فسيح للتقول ومع ذلك فان البعث لم يعالجه .

البعث والعنصريّة

هل حزب البعث عنصري ام هو قومي شامل ؟ هذا ما سنجيب عليه ولو باختصار ما دمنا في ميدان البحث عن التيارات التي تهب رياحها في هذه المنطقة .

لقد جاء في المادة ١٠ من الفصل ٢ من دستور الحزب ما يلي :

« العربي هو من كانت لغته العربيّة وعاش في الارض العربيّة او تطلع الى الحياة فيها وآمن بانتسابه الى الامّة العربيّة » .

فما هو التفسير الواضح لهذه الفقرات التي وردت في هذه المادة وماذا تعني وهل تتضمن ضيقاً عنصرياً ام سماحة قوميّة ؟

ان المادة لا تجعل النسب الحقيقي شرطاً ، وانما يكفي ان يؤمن المرء بانتسابه الى الامّة العربيّة . فالبعث اذن لا يأخذ بنظرية العرق النازية. الاّ ان المادة اذ تنص على ان العربي ايضاً هو من تطلع الى الحياة في الارض العربية تعمّ العرب لتشمل المهاجرين منهم كما يتسع نطاق مدلولها لتشمل العرب اجمعين حتى لو كانوا يقيمون في دول اجنبيّة او كانوا يؤلفون دولاً مستقلة ليس عليها مسحة الانتساب الى الامّة العربيّة . فهي تشمل اهل زنجبار والمحمرة في فارس وكيليكيا في تركيا وسائر العرب حيثما كانوا واينما حلّوا . وفي هذه المادة من الشمول ما يقرّبها من النظرية العنصرية ولو كانت نصوصها تبعدها عن ذلك .

والذي لا شك فيه ان المادة المذكورة في تعريف العربي قد وضعت في مرحلة كان مفهوم القومية يختلف عما هو عليه بعد خمس وعشرين سنة . ولذلك كانت فضفاضة تصلح لتفسير النقيضين منها .

كانت الانطلاقة الاولى لحزب البعث أقرب ما تكون الى النظرية العنصريّة في الميدان القومي . وكانت النظرية متأثرة بالنازية ونجاحها الأول وبالفاشية وصعودها المطرد . ثم كان في الاعماق مشاعر الأسى من احتلال تركيا لواء الاسكندرونه وما قام بسبب ذلك من صراع

عرقي بين الترك والعرب . اقول أقرب لأن البعث لم يجنح الى تبني النظرية العرقية كاملة كما تبناها هتلر ولكن كان ذلك باعتدال . الا ان البعث قد تزحزح عن نظرته هذه عندما انخرط في العمل السياسي واصبح يمالىء الاوضاع الدولية . ان البعث عندما حالف الشيوعيين في السنوات الاخيرة قد خفف من اندفاعه في النظرية القومية ارضاء للشيوعيين بشكل ارادي ولا شعوري . وحتى في المراحل التي يقوم فيها الجفاء بين البعث والشيوعيين كان البعث يتصرف وكأنما من الشيوعية عليه رقيب ، محاذراً ترك السبيل للشيوعيين ان ينقدوه او يطعنوه « بالشوفينية » . فالبعث كان يتأثر بالشيوعيين في حالي الصلح والخصام معهم .

وكان التيار العالمي ضد العنصرية عنيفاً من الشرق ومن الغرب فكان البعث يحذر ان يكون هدفاً لهذا التيار فصمت عن موضوع القوميـة وقبل نظرية الدولة بصرف النظر عن العناصر التي تتألف منها . وكان ان فتر حرص البعث على الروابط القومية رغم ما يقذفه من شعارات التمجيد والتبجيل لها . وفضل الاعتبارات السياسية والاجتماعية على القومية العربية حتى تخدرت مشاعره حولها او كادت :

١ - فالعرب ومنهم البعثيون لم يبدوا اي امتعاض للمذبحة التي حلت بعرب « زنجبار » ولم يظهر عليهم الاسى او الجزع ولم يحركوا ساكناً ولم يقولوا ولو كلمة احتجاج واحدة او عبارة استنكار .

وذاك لأن الحكم في زنجبار كان « رجعياً » . وان الحكم الذي فتك بالعرب قد يكون تقدمياً . والتقدمية اذن في نظرهم فوق العروبة . وهذا سلوك لا يمكن ان يكون بعثياً ولا بوجه من الوجوه .

٢ - والبعث في العراق اذل العرب واعلى شأن غيرهم من العناصر. فلم يبق للعرب نفوذ ولا ثقة بالنفس ولا همة تسمو بهم الى ما كانوا يمنون النفس به من رتب المعالي الدولية والحضارية .

وكان موقف البعث من القضية الكردية الدليل على ان العربي في شمال العراق قد أصبح غريباً يقيم في غير موطنه . وبينما تقوم في الشمال زعامات تعتز بها الاقليات تتحطم في الجنوب زعامات كانت الحربةالتي

شهرها العراق على البريطانيين وحاربهم بها . فقبائل الجنوب العربيّة التي رفعت راية الثورة على الاستعمار قد اصبحت ذليلة خائفة يقذفها البعث بشتائم « اقطاعيين ورجعيين ومتخلفين وعملاء استعمار » صباح مساء.

وحلت الفاظ التقدمية واليسار والثورية والماركسية محل الاعتبار القومي الذي يبنى عليه الوجود العربي المتين .

٣ – وفي سورية مثل ما في العراق اصبح النفوذ العربي في الشمال وخاصة في مناطق الجزيرة المحاذية للعراق وتركيا نفوذاً متهدماً . وقد سلبت اراضي العرب بحجة الاصلاح الزراعي . ولم يكن الاصلاح الزراعي كفيلاً بانتزاع الارض كلها من العرب فجاء ما يسمى « بلجنة الاعتماد » فانتزعت ما انتزعت من ارض العرب . ولما لم يحقق الغرض منها فان الدولة لجأت الى المصادرات .

وفي الحقيقة ان مصادرة الارض ليست الضربة القاصمة . ولكن الضربة القاصمة هي مصادرة الانفة وعزة النفس والكرامة وايحاء الذل الذي حل بالعرب حتّى اضطرهم الى الانحسار تدريجياً عن مواطن ابائهم واجدادهم بينما يستمرّ الزحف من جانب العناصر الأخرى لتحل محلّ هؤلاء العرب .

وحقيقة الحال ان البعث – الدولة قد وقع فريسة وحي يوحى من جانب الفئات الشعوبية والشيوعية . وكأني بالبعث يعتز بعمله هذا ويعتبر نفسه قد حقّق اهدافه التي رمى اليها من نشر العدالة الاجتماعية وتوزيع للاراضي وما هو في حكم ذلك . وما درى انه طعن العروبة في الصميم .

ولقد ذكرنا من قبل أن فئات الحزب كانت متباينة الولاء لشعارات الحزب . فالذين فضلوا شعار الحرية على الوحدة والاشتراكية وافقوا على انفصال سورية عن مصر بحثاً عن الحرية التي كبلت في عهد الوحدة . واليوم يتقارب الذين يفضلون الاشتراكية على دعامتي الوحدة والحرية مع الشيوعيين وتفضل شعارات التقدمية على القومية وعلى بني الجدة والاعمام الذين هم الدعامة الكبرى لهذا الوطن اذا جدّ الجد وقام الصراع بين الدولة واعدائها .

ان موقف الحزب بعد ان صار دولة يعرفه المرء من محطة الاذاعة والصحف التي اصبحت رسمية مؤممة . وقد دأبت على التمجيد بالدول الاشتراكية والطعن بغيرها . وقامت المزايدات ايضاً بين الدولتين من حيث التطرف في اليسار اذ ان كلا منهما تتهم الأخرى باليمين والرجعة .
فالاشتراكية غلبت القومية والحرية في اجهزة اعلام الحزب والولاء هو للاشتراكية مع مراعاة القومية الى حد لا يبعث على التساؤل لعزوف الحزب عنها ونسيانها .

خاتمة

التقييم الخاطىء

نكاد ننهي ما قصدنا كتابته عن حزب البعث العربي . ولن نترك القلم قبل ان نسجل اعترافاً على انفسنا باننا قد قيّمنا امتنا وحزبنا تقييماً خاطئاً اذ وضعناهما في مرتبة أعلى من مرتبتهما ، وذلك طول عملنا في الحقل السياسي .

فقد كنّا نعتبر العربي هو المخلوق الذي صاغه الاله على احسن شكل يمكن ان يصوغه . وان العربي منزه عن كل ما يمس بسمو الانسان ورفعته . فقد كنّا نمتص من بطون الكتب كل الصفات الحميدة الرائعة ونختزنها في عقولنا وكنّا الى جانب ذلك نطرح الصفات الذميمة ونغلق دونها الابواب فلا تدخل الى عقولنا . فاستقر اذن في عقولنا نوع واحد من الصفات هو الحميد منها والرفيع . ولكن رجعنا الى انفسنا وحاسبناها واملينا عليها ان تقبل للعربي من الصفات ما هو فيه ، اذ أن فيه الحسن والقبيح كما في كل مخلوقات الله من البشر .

على ان ذلك لم يمنع ان يكون العربي رغم ما فيه من صفات سلبيّة ، لم يمنع ان يكون في الذروة من بين بني الانسان فان الذي يتحلى به من الصفات العالية يجعله في الطليعة . ونحن نذكر هذا لنروّض انفسنا على قبول بعض الصفات في الانسان العربي وللاقرار باننا قيمناه فوق ما يستحق عندما اعتبرناه من ملائكة الرحمان لا يخطىء ولا ينحرف .

وقد قيّمنا الحزبيين ايضاً مثل هذا التقييم الخاطىء . فقد كنّا نعتبر الحزبي مطهراً بريئاً من كل ما يشوب الاخلاق الرفيعة ، وحتّى اذا لم

يكن كذلك من قبل فانه يصبح كذلك بمجرد انتسابه الى الحــزب . فالحزب مطهرة وهو يجبّ ما قبله ويمحو الخطايا ويضع المرء في اعلى عليين . وكذلك عدنا الى انفسنا واملينا عليها ان الحزبي ليس الاّ فرداً من افراد الامّة يحمل خصائصها كاملة الحسنة منها والسيئة .

هذا في اول قيام الحزب اما اليوم فقد تغيّرت الحال وابتعد الكثير من الصالحين والاخلاقيين لأنهم لا يستطيعون الزحام مع المرتزقة الذين تدفقوا الى الحزب انتفاعاً واستغلالاً وفي الحزب عدد كبير منهم . ولقد كنا نسير على ما سار عليه جماعة المسلمين اول الاسلام فانهــم اعتبروا الاسلام هو جماع الفضائل وليس يحاسب المرء على شيء اذا كان مسلماً .

والحزبيون اول الأمر كان مقياسهم الاخلاقي الحزبية فهي جماع الفضائل . لكن النظرة تبدّلت وعاد التقييم الى الموضوعية والى العلم . غير ان هذه النظرة قد عادت الى الحزب بعدما استلم الحزب السلطة اذ ان الحزبية هي افضل كل ما يتمتع به المرء من صفات .

وقد سئل احد الكويتيين عن مهنته فقال انه « كويتي » . ومجرد كونه كويتياً فقد أمن على رزقه ومورده . وهذه النكتة قد تنطبق على كل بعثي . فاذا سئل عن حرفته يقول انه بعثي . وهذا الانتساب يكفي لتأمين الرزق والمرتب له مهما تكن منزلته العلمية او الخلقية وعلى اي مستوى كان من المستويات الاجتماعية . « فالبعث اولاً » .

التوقّعات

ماذا نتوقّع للحزب من مصير ؟ ان المستقبل لا يعلمه الاّ الله . ولكن الحزب اذا استمر على هذا المنوال فانه قد ينتهي سياسياً او من حيث انه منظومة . وفي التاريخ تدفقت امواج من التيارات الفكرية والسياسية وأدّت مهمتها ثم زالت . الم تر الى القرامطة كيف قاموا وكيف ذهبوا ولم ترَ الى حزب اليعاقبة في فرنسا كيف التهب ثم كيف انطفأ . والم ترَ في العصر الحديث الى النازية كيف ثارت وعلا ضجيجها

فسجّلت ما سجّلت ثم زالت .

وحزب البعث قد يزول من حيث انه منظومة . ولكن من المؤكد انه خلّف رواسب واثاراً في الامّة العربية منها السلبي ومنها الايجابي . ونحن قد بحثنا هذا الموضوع في كتابنا المخطوط المعدّ للطبع والمسمى (الامة العربية وعوامل حفظها وتمزيقها) . وليس من الضروري اعادة ما كتبنا ثانية . ولكننا نشير اشارات عابرة الى تلك الاثار اتماماً للفائدة :

اما الآثار السلبيّة فهي متناثرة في هذا الكتاب . واما الاثار الايجابيّة فأهمها :

١ ــ معالجة القضية العربيّة باعتبارها كلاً لا يتجزأ . والنظر الى مصلحة القطر الواحد من خلال مصلحة الامّة العربيّة بكاملها .

٢ ــ اشراك الشعب في حمل قضيته ومعاناتها واخراج العمل العام من يد الفئة الصغيرة المتحكّمة التي قد تنحرف عن الصراط المستقيم .

٣ ــ احداث الثقة في نفس الانسان العربي بامكاناته وطاقاته الكبيرة .

٤ ــ فتح الباب للخدمة العامة امام كل الفئات والاقليات للمساهمة في بناء الوطن . وسواء أطبق البعث في حكمه هذه القواعد او لم يطبقها فانها قد احدثت اثارة في الانسان العربي وتقبلها وسار في سبيل تحقيقها . وهذه الاثار هي من البعث ــ الحزب لا من البعث ــ الدولة .

اعتذار

قد أكون اخطأت في بعض ما كتبت والعصمة لله وحده . وانه لمما يشفع لي عن الخطأ المحتمل اني احمل حسن النيّة كاملاً . وانا لم اقصد الاساءة الى أحد ممن ورد ذكرهم في الكتاب . على ان الاسماء التي وردت كانت قليلة . واني قد تعمّدت عدم ذكر الاسماء حتى لا يثير ذلك بعض الحساسيات عند بعض الذين لم يرد ذكرهم . واول ما طبقت هذه القاعدة على نفسي فاني قد حاولت ما استطعت ان اخفي اسمي . ولم اخالف هذه القاعدة الاّ في ما لا يمكن اغفاله او مما يحدث

خللاً في البحث وسياق الحديث .

واني لاستحي اذ انبه الى انه قد كان لي عمل ومهام في الحزب هي أكثر مما ذكرت ولكن اتجنّب ابراز وجودي تاركاً ذلك لمن قد يكتب عن الحزب من الزملاء فاذا كانوا يرون هذا الرأي فانهم سيتولون اسناد ما قمت به الي .

واني اتأثر دائماً بالحكمة الشائعة حتّى لدى العامة عندنا والّتي تقول : (اعوذ بالله من كلمة انا) .

واذا كنت قد أغفلت حادثاً او واقعة في تاريخ الحزب من الحوادث المهمة فمرد ذلك الى السهو والنسيان . ومن المفيد ان اذكر هنا اني قلت الحقيقة كلها . واذا كانت ذاكرتي لا تخونني وهي غالباً لا تخونني فاني استطيع الترجيح اذا لم يكن الجزم بانني قد مررت بكل ما يمكن ان يعتبر دعائم الحزب ومقوماته . فاذا كان في ذاكرة الزملاء شيء غير هذا ، فإننا نرجو ان يظهر الى النور ليستفيد منه المواطنون وان لا يبقى في زوايا الفكر . ففي اخراج الاحداث فائدة للناس . والله الموفق .

ملاحق

وعدت في فصل سابق ان انشر بعض المذكرات التي تعبّر عن رأيي في حكم البعث . واحدة من هذه المذكرات تقدمت على زمن الفريق امين الحافظ .

اما الثانية فقد تقدمت الى الفريق حافظ الاسد .

واهميتها انها تفصح عن رأينا خلال المراحل التي تبحثها . وبرّاً بالوعد فاني اتمم هذا الكتاب بها لأنها ذات صلة وثقى به .

المذكرة الاولى

١ – كل مواطن شريك في الوطن شراكة شيوع . اي انه يملك حصة من كل ذرة من تراب الوطن . ولكل مواطن الحق في تقويم الاعوجاج واسداء النصح للحاكمين وتبيان وجه الخطأ والصواب .

غير ان مصدراً آخر يمنحني حق التقويم فوق مصدر حق الوطن . ذلك اني من مؤسسي حزب البعث العربي الاشتراكي الذي يتولى السلطة اليوم في سورية . وانا من واضعي الدستور . وانا رئيس المؤتمر العام الذي ناقش الدستور واقره واكتسب به الحزب بصفته الرسمية المعلنة . بمعنى انني اعرف اكثر من غيري ما يسمى في التشريع الاسلامي باسباب التنزيل وما يسمى في عرف القانون بالاسباب الموجبة . وانا واقف على المعاني الدقيقة والدلالات البعيدة والقريبة والمقاصد –

والاهداف التي عنتها مواد دستور الحزب . واذا حصل تفسير آية في الكتاب الكريم قال الفقهاء : عودوا الى اسباب التنزيل لتنكشف لكم المقاصد الحقيقية من هذه الآية . واذا حصل بين رجال القانون خلاف حول مادة في القانون قالوا : عودوا الى الاسباب الموجبة فهي تفصح لكم عن حقيقة المقاصد التي هدفت اليها تلك المادة . وقياساً على ذلك فانه اذا حصل خلاف على مقصد من مقاصد دستور حزب البعث قالوا ويجب ان يقولوا : عودوا الى الواضعين الاولين للدستور لان لهم علماً بما هدف اليه الدستور . فحق الشرح والتفسير منوط بي وبطبقتي الحزبية اكثر مما هو منوط بالمحدثين والاغرار الذين لم يرافقوا سير الحزب من خطواته الاولى ولم يطلعوا على المراحل التي مر بها واسرار صموده ومناعته واستمراره .

ولما كان الحزب يرتكب اليوم اخطاء في الحكم والسياسة والمناهج قد تضر بمستقبل الوطن السوري والامة العربية ، وحرصاً مني على تصحيح الاوضاع واعادة الشواذ الى قواعدها والمياه الى مجاريها ، ولما كان لي بقية امل في نجاح تجربة البعث ، واني لم اقنط بحيث اترك الحبل على الغارب واشاهد المركبة تنزلق في منحدرها الاخير ، فانني قد عزمت على وضع هذه المذكرة فانها ان لم تحملكم على التصحيح والتعديل فان فيها عزاء لي وانقاذاً لوجداني امام التاريخ وتجاه الجيل الصاعد الذي قد يلومني على سكوتي وعدم تقديمي النصح للمسؤولين، وانا اطلب دراسة هذه المذكرة والاخذ بمضمونها وتطبيق المقترحات الواردة فيها حرصاً على سلامة الوطن والامة العربية .

اعرف مواقعي

وبهذه المناسبة اقول لكم انه لن يضرني في شيء ان تصدر منشورات حزبية تهمل مكاني في الحزب وما قدمته من خدمات وما قمت به من جهود صنعت للحزب كيانه ودللت على وجوده ، فلقد كنا في مجلس النواب سنة ١٩٥٠ ونحن ثلاثة من الحزب نسير بالتيار القومي على احسن

وجوهه . وكان في المجلس احزاب وكتل بلغ عدد بعضها ٥٥ نائباً ، ومع ذلك كنا في مناقشة الدستور نصوت على اساس كتلة حزبية لا على اساس عدد النواب . فقد استطعنا ان نفرض وجودنا بسلوكنا القويم وحسن معاملتنا مع المواطنين ونزاهتنا وتجردنا ، وبنا نحن قد انقلب الحزب من لجنة طلاب الى مؤسسة سياسية محترمة ، وبنا نحن قد انتسب البعثيون في الاقطار العربية الى البعث وكادوا ينسحبون من الحزب بعد انسحابنا لولا مساعينا الخاصة عندهم وتثبيتهم في الحزب . ولا نقول ذلك منة ولا ابرازاً لفضلنا على الحزب بل تنبيهاً لمن يكتبون تاريخ الحزب حتى لا يجوروا في اقوالهم ولا يتعدوا حدود الانصاف وامانة التاريخ وشرف البحث الموضوعي .

٢ ـ الخطأ بدا من اول خطوة في حزب البعث لانه كان صدى لمركب نفسي عنيف .

فحزب البعث عندما فتح ابوابه للمواطنين من العرب وكان متسامحاً في نهجه الديني اذ فصل بين القومية والدين دخل فيه كثير من الاقليات الاسلامية ومن المسيحيين ، وكان وجود قطب كبير من الحزب من المسيحيين جاذباً لهم ومشجعاً على الدخول في الحزب . وهؤلاء المنتسبون من الاقليات لم يكن لهم مكان قبل حزب البعث في الحركة الوطنية والقومية بل كانت تلك الحركة تكاد تكون وقفاً على الاكثرية من اهل السنة . ومن ساهم في الحركة من الاقليات فانما يساهم فيها شكلاً . وقد انطلقت الاقليات من عقالها في حزب البعث وكان فيها نزوع عفوي الى تثبيت مكانها تجاه الذين انكروا عليها حقها في العمل الوطني بل حق الانتماء الى الوطن والعروبة . وقد وجه البعثيون سهام النقد والتجريح والطعن بشكل عنيف لا هوادة فيه الى هؤلاء العاملين في الحقل الوطني من الطبقات القديمة التي كان اكثرها من وجهاء البلد واغنيائها . وقد اهلتهم احوالهم الاقتصادية للدراسة والتثقف ثم الانغماس في العمل الوطني . بينما كان المنتسبون اجمالاً الى البعث من الطبقات الفقيرة وهذا ايضاً مما سبب الحقد على قدماء الوطنيين من جانب حزب البعث . زد على

ذلك وهو امر مهم جداً ان البعث حاول طمس نضال المواطنين في العهد الافرنسي لان عرض هذه الصفحة للناس يكشف انه لم يكن للبعثيين مكان فيها اذ لم يساهموا ، الا قليلاً منهم ، في نضال الاستعمار . والانصاف يدعونا الى القول ان جمهرة البعثيين لم يكونوا في سن تساعدهم على النضال ضد الفرنسيين ، والقلة منهم التي بلغت سن الكفاح لم تكن قد تفتحت عندها المناهج القومية ولم تنطلق عندها تلك الشرارة الا في ثورة العراق بزعامة رشيد عالي الكيلاني على الانكليز عام ١٩٤١ وقد تابعت هذه الفئة نضالها بعد ذلك . وما كان المواطنون يطلبون من اطفال قراعاً وصراعاً فما كان تخوف البعثيين من نشر صفحة النضال القديم تخوفاً له ما يبرره .

وهذا الاسلوب في طمس معالم الحركة الوطنية وحذفها من التاريخ اسلوب غير منصف ولا متفق مع المصلحة الوطنية والقومية . اذ ان هذه الحركات كانت اساساً لنا في حركتنا الجديدة وكل بناء ينظر فيه الى متانة الاساس . وان الطعن المقذع والشتم المتواصل يؤذي القضية القومية ويهون من شأن الامة العربية بين الامم : فاذا كانت الفئات كلها تنقسم بين عميل واجير ورجعي واقطاعي ورأسمالي مستغل ومتآمر فانه لا يبقى في الوطن فئة صالحة الا المنتسبون الى البعث وهم فئة قليلة لا تسمن ولا تغني من جوع .

اين الوفاء

واذا كان المناضلون الاولون لم يبلغوا قمة الكفاح ولا كانوا رشيدين في سلوكهم فهذا لا يعني انه يجب غمط حقوقهم وعدم وضعهم في اماكنهم من التاريخ . ان طلاب البكالوريا يعرفون اليوم من الفلسفة اكثر مما يعرف افلاطون وأريسطو وسقراط . ولكن هؤلاء الفلاسفة العظام قد عرف لهم العقل مكانهم بانهم مؤسسون . وقد يعرف طلاب الصفوف الابتدائية اكثر مما يعرف نيوتون في العلوم الطبيعية ، وقد لا تمر سنوات طويلة حتى يعرف الطلاب الصغار اكثر مما يعرف انشتاين في

الرياضيات ، فهل يعني هذا ان ننسى فضل القدامى المؤسسين ؟ لان العلم في تقدم وهم اندثروا مع الزمان ولم يعودوا عماليق في الفكر .

وقد يكون للبعثيين بعض العذر في اول الامر عندما اشتدّوا في حربهم للهيئات الوطنية القديمة لان الصفوف لم تنفرج للبعثيين ولا سمح لهم بولوج ميدان العمل الوطني . اما بعدما احتل الحزب مكانة محترمة في بعض انحاء الوطن العربي فاي داع للاستمرار في اسلوب التهجم والطعن الا النزوة العفوية التي نبعت من عقدة نفسية سببها الاكبر ان زعماء الحزب الا اقلهم لم يكونوا في عداد المناضلين الاولين ، واي مكانة لشعبنا بين الشعوب اذا كانت اكثريته من السفلة المستغلة المأجورة ،وهل يغني شعبنا ان فيه فئة قليلة تدعي العصمة والمثالية والكمال ؟

ان البعث لم يقم بنيانه على ارض معبدة بل انه اقامه على انقاد الفئات الوطنية الاخرى ويجب ان من تمام الامر له ان يدمر تلك الانقاد . وهذه النظرة قد سببت المصاعب والمتاعب للحزب بل لقد كانت من اسباب الخلاف بين قيادة الحزب : فانا من الذين لم يوافقوا على هذا الاسلوب . وما كان موقفي هذا لأن لي مكاناً في حركة النضال ضد الافرنسيين بل لاني اعرف المحاذير التي تنجم عن هذه النظرة وانها قد تلد صراعاً طبقياً لا ينتهي بين المواطنين .

وكان من نتيجة استمرار الوجود على الفئات الوطنية وعلى سائر المواطنين ان الحزب قد انعزل عن الشعب واصبح عقدة بارزة ونوعية خاصة لا تشبه بقية اجزاء المواطنين كما سبق ان فعل الحزب السوري القومي عندما سلك سبيل القوة والبطش مع فرق واحد هو ان للبعث في نفوس الناس عطفاً واحتراماً وميلاً هي رواسب ما زرعه الحزب في النفوس ايام نشأته الاولى . وقد شعر الحزب بهذا الواقع فلجأ الى طريق الحكم بالقوة وبواسطة الجيش . وبهذا انقلب الحزب الى شبه منظمة عسكرية . والتاريخ يُنبئنا ان الحكم بالقوة لا يمكن ان يدوم . وحصل التفاعل والاتقاء بالحزب يريد ان يدافع عن نفسه بالقوة فيستعمل الشدة والشعب يرى ان الحزب يستعمل الشدة فيرسم خططاً لها متى استطاع

اليها سبيلا . وما كان هذا الاسلوب مما يقر الحزب من قبل ولا هو في صالح الحزب والامة .

ولقد حصلت انحرافات وتعرجات في سبيل الحزب قد لا يراها المنغمس في العمل الحزبي كما يراها المراقب المحايد ، وحصل نوع من سوء الفهم للشعارات التي بنى الحزب عليها كيانه وهي الوحدة والحرية والاشتراكية ، كما سجل الحزب على نفسه وهو في الحكم اخطاء بعثت اليأس في النفوس فما كان يخطر في بال الشعب ان هذه الفئة – الطليعية – المختارة تنزلق الى ما انزلقت اليه الاحزاب القديمة وتحكم كما حكمت . ونحن سنعدد باختصار بعض المآخذ التي اخذها الشعب على الحزب بالنسبة الى الحكم كما اننا سنشرح باختصار ايضاً الخلل الذي داخل معاني الوحدة والحرية والاشتراكية .

لقد اخذ الشعب يحصي على الحكم اخطاءه وذلك بمقارنته التطبيق مع المدعيات الحزبية وهذا بعض ما سجله الشعب .

١ – الحزب يحارب جمال عبد الناصر ولسنا نجادله في ذلك ، فقد تكون لديه الاسباب المستلزمة لهذه الحرب – ولكن الملاحظ ان الحزب متفق مع جمال عبد الناصر اتفاقاً يكاد يكون تاماً . فلم يبق اذن مجال للاختلاف الا الاختلاف على الحكم والسيطرة . حتى لقد قال الكثيرون ان عبد الناصر يسيّر حزب البعث – بالرادار – واينما توجه عبد الناصر سبقه البعث في الاتجاه بشكل اعنف واقسى حتى لكأن الحزب يريد تبرئة نفسه امام عبد الناصر . ان عبد الناصر مع السلال ضد البدر وحزب البعث كذلك . وعبد الناصر مع بن بيلا ضد الملك الحسن والبعث كذلك ، وعبد الناصر مع كوبا ضد اميركا والبعث كذلك وكان عبد الناصر مع عبد السلام عارف ضد الهاشميين وكان البعث كذلك . وعبد الناصر ينادي بوحدة العمال والفلاحين في البلاد العربية والبعث كذلك ، وعبد الناصر يصنع مجلس الامة ونصفه على الاقل من العمال والفلاحين والبعث كذلك ويشتد عبد الناصر في تحديد الملكية والعلاقات الزراعية فيسبقه البعث الى ذلك . وعبد الناصر مع تيتو والبعث كذلك ،

وعبد الناصر مع باندونغ والـدار البيضاء والدول الاسيوية والافريقية والبعث كذلك . فما هي اذن وجهة الخلاف وكل الطرفين يدعي العمل للعروبة والوحدة والاشتراكية . الا تكون مقاعد الحكم هي اسباب الخلاف . واذا كان لسـان حال عبد الناصر يقول أنا وحدي فالبعثيون يقولون : نحن وانت .

اسرائيل ليست ذيلا للاستعمار

ب ــ ان اسرائيل في نظر البعث هي استعمار او قاعدة للاستعمار او ذنب له كما يقول الحزب ، وهذه الاوصاف خاطئة وخطيرة وهي من منطق الشيوعية التي قصدت ان تشيع هذه المعاني عند العرب لمعرفتها بكره العرب لاسرائيل فارادت ان تقرن اسرائيل بالاستعمار ليلقي الاستعمار الكره ذاته من العرب . والاستعمار في العرف الشائع هو الغرب والدول الغربية ، فاذا كره العرب دول الغرب من تسلل هذا المفهوم الى اذهانهم تكون الشيوعية ربحت في مجال الحرب الباردة مئة مليون من العرب . والحقيقة ان اسرائيل اخطر من الاستعمار واعمق أثراً وأبعد مدى في تأثيره على العرب . فالاستعمار زال حتماً ومسألة زواله مسألة زمن فقد يقصر وقد يطول قليلا وأمم الارض ودولها أجمعت على مقت الاستعمار فهو مدبر منهزم لا محالة . بمعنى ان خطره اصبح ضئيلا . ووضع اسرائيل في هذا المستوى هو تهوين لشأن اسرائيل . زد على ذلك ان اسرائيل ليست ذنباً ولا اجيراً لدول الغرب بل ان العكس هو الصحيح ، بمعنى ان دول الغرب الكبرى والصغرى صخرة لتحقيق مصالح اسرائيل بالنظر لنفوذ اليهودية ادبياً ومادياً وعلمياً في كل انحاء العالم . ويجب على الحزب ان يضع الامور في نصابها وبمنزلتها من الخطر فيفصل بين اسرائيل وبين الاستعمار ويسوق المعاني السليمة الى الرأي العام حتى لا يضلل ويخرج في سيره نحو محاربة الخطر الصغير ونسيان الخطر الكبير . والواقع ان كل شيء بالنسبة الى العرب هو امر فرعي اذ قيس باسرائيل وان كل

الحروب التي يدخلها العرب هي حروب جانبية قصد بها الهاء العرب عن اسرائيل ، ولعل اسرائيل هي التي تخطط والعرب ينفذون من غير وعي ولا تمييز .

الحروب الجانبية

ولا بأس علينا اذا قلنا ان « اشرف حرب يخوضها جيش مصر في اليمن » كما يقول الرئيس جمال عبد الناصر هي حرب جانبية وكذلك الانتفاضات والانقلابات الجارية في بلاد العرب من ١٤ تموز حتى ١٨ تشرين في العراق ، واذا كان هنالك ضرورة لتصحيح بعض الاوضاع في قطر عربي فيجب ان تقدر الامور بقدرها ولا ينبغي الامعان والتجاوز الى حد بعثرة القوى وتبديد الجهود . وان كل عمل لا يكون فيه كسر لشوكة اسرائيل وتهديد حقيقي لكيانها وتقوية للعرب انما هو عمل تافه لا يستحق القيام به . ولقد رددت اذاعة دمشق ، وهي المحطة التي يفترض فيها ان تكون واعية لمهمتها القومية ، ما رددته محطة بغداد والقاهرة من أن الخطر على العرب هو الاستعمار والصهيونية وان اسرائيل ذنب للاستعمار ، ومع جلالة قدر بغداد والقاهرة فان دمشق تبقى من الناحية العربية وادراك القضية القومية هي السباقة ، والعرب كانوا ينتظرون ان تصحح كل المفاهيم العربية القديمة الخاطئة في عهد حزب البعث باعتباره من سدنة القضية العربية البارزين وحملتها الياقظين ، وهذا ما لم يقع فوقع في الانفس من ذلك قنوط او خيبة امل .

ج ــ الغرور والانطواء على النفس والتمنن على الشعب والتعالي على الناس كانت من ابرز ما اتصف به الحزب في عهد حكمه ، فكأن الحزب قد انقذ الوطن من الاستعمار وقد طرد مجتاحاً او حقق وحدة او اجتث جذور الباغين من الصهاينة في فلسطين . هذه النفسية التي بدت على الحزبيين قد جلبت لهم المقت والاحقاد ، وقد كان من جراء ذلك ان فئات الشعب قد انصرفت عن الحزب تتطلع الى كل عهد وترضى بكل حاكم املا في زوال هذا التعالي والتعاظم .

حتّى ان فئات من العرب ولت وجوهها نحو عبد السلام عارف .

المكاسب الحزبية

د – الاستغلال والانتفاع الشخصي والعائلي والحزبي كانت من الامور الظاهرة على الحزبيين ، وقد كان الحزب في ايام مثاليته وزهده وتجرده ينقم على الحكومات السالفة تبديدها لاموال الشعب وتخصيصها المكافآت والرواتب والهبات للمحاسيب والانصار . وقد وقع الحزب في المأزق نفسه الذي كان يعيبه على السالفين من الحكام . فهنا قريب لوزير يستلف من المصارف ما شاء من الاموال وهناك من يقبض راتباً لانه متفرغ للعمل الحزبي وآخر يستلم الهبات لأنه يتحدث في الراديو وغيره يقبض المال لانه مولج بالمهمة الفلانية،وهكذا توزعت اموال الشعب بين الحزبيين وانصارهم واقاربهم ومن يريد الحزب ان يسترضيهم من الساخطين . وكان من ذيول هذا الانتفاع ان ظهر تكالب على المناصب وعلى الوزارات وكبر الاعمال واشتد التنافس فيما بين الحزبيين حتّى لقد قامت معسكرات الخلاف بينهم على هذا الاساس .

وقد جيء بشبان غير متمرسين في اعمال الادارة والسياسة مما اوقع الخلل في الحكم وسبب بعض الانتفاضات والقلاقل المسلحة . ولقد كان الحزب في نشأته الاولى يختلف اعضاؤه حول هذا الموضوع ولكن على نقيض اختلافهم اليوم ، وكل فرد كان يدفع اخاه ليستلم المنصب او الوزارة التي تحتم احياناً ظروف وطنية قاهرة اشتراك الحزب في الحكم ، وكانت تقع المشادات وتضطرم الحماسة بسبب تهرب كل من الحزبيين من دخول الوزارة وتشدده في اقناع زميله بالاشتراك في الحكم ، وكان الطابع المميز للحزب هو الزهد والابتعاد عن بهرج الدنيا وزينتها . ولا يشفع للحزبيين اليوم انهم تحملوا مسؤولية الحكم اذ المفروض ان القيادة هي التي توزع المناصب وتجند الاعضاء تجنيداً لحمل اقساطهم من الحكم بحسب اختصاص كل منهم وكفاءته .

س – وكان من جراء هذا ان الحزب لم يعد يبحث عن الكفاءة

في وظائف الدولة بل يبحث عن الحزبية . وامثلة التاريخ كثيرة على ان الكفاءة اصل في الحكم . فعمرو بن العاص استعمل على حساباته يهودياً ، على ما بين الاسلام واليهود يومئذ من خلاف . وقد اساغت استخدام اليهودي كفاءته لان العرب لم يكونوا يجيدون الحساب يومئذ. وفي الحرب العالمية الثانية استخدم حزب النازي الالماني رجلا غير نازي في ادق المراكز حساسية هو « الفون بابن » اذ عين ممثلا لالمانيا في تركيا وقد عادت النغمة الجاهلية بشكل جديد . لقد قالت ربيعة بعد وفاة الرسول محمد وادعاء النبوة من قبل اشخاص من ربيعة : كذاب ربيعة ولا صادق مضر . ان البعثيين يقولون بلسان الحال : كذاب البعث ولا صادق المحايدين .

اجهزة الشعب

ه ـ وقد خصصت دار الاذاعة وكل المطبوعات للدعاية لحزب البعث وهو امر لم يكن يقره الحزب بالنسبة للحاكمين . ان الاذاعة ملك الامة لا ملك حزب ولا اعتقد ان الحزب يستطيع القول اليوم ان الحزب هو الامة . كنا نقول من قبل اننا نمثل مصلحة الشعب ولا نمثل الشعب . وقد يكون هذا القول صحيحاً . وما دام البعث لا يمثل كل الشعب فعليه ان يفسح لغيره مثل ما يفسح لنفسه من مجالات العمل . وقد نهجت محطة الاذاعة نهجاً فيه تمويه وفيه خروج على الحق كما كانت تعمل محطة الاذاعة من قبل ان يحكم البعث وكان البعث يستنكره .

فترديد التأييد والبرقيات الممالئة للحكم وانضواء المواطنين تحت لواء الحزب وما يشبه ذلك اصبحت عنوان الاذاعة في كل برامجها . والحوار الذي في الاذاعة بين اثنين من المواطنين بقصد جذب السامعين للبعث لهو شيء تتقزز منه النفوس وهو يبعد الناس عن البعث ولا يقربهم اليه لأنه اسلوب مجه السامعون من زمن بعيد .

ع ـ وكان تضاؤل نفوذ المدنيين في الحزب واختفاؤهم وراء العسكريين وتلاشي القيادة التي جهدت في سكب الحزب وصنعه

ورضاء هؤلاء الزعماء المدنيين بان يكونوا توابع للضباط الصغار منهم والكبار وهم محدثون في الحزب ، كان هذا كله باعثاً على نفور الناس من حزب البعث واعتباره حزباً عسكرياً فاته الانتشار بالحجة والمنطق والاقناع فلجأ الى اسلوب الشدة والحكم العسكري شأنه في ذلك شأن كل الاحزاب الفاشلة في العالم .

٤ ـ السيد جمال عبد الناصر اندفع في بعض خطبه واثناء نشوة من نشواته في النصر فزعم ان الثورة العربية وان الحرية والعروبة والقومية كلها ولدت في يوليو عام ١٩٥٢ ، وقد استنكر حزب البعث هذا الزعم كما استنكره العرب جميعاً لانه مخالف لحقائق التاريخ . ولكن حزب البعث وقع في الخطأ ذاته فزعم ان الحرية والوحدة والعروبة والقومية وكل قدر العرب ولدت مع حزب البعث واحياناً مع ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ . وليس مهماً ان يكون الزعم مخالفاً للحقيقة فحسب بل انه فوق ذلك خطير على العرب . لان العرب شعب حي نبيل يتمتع بكل صفات الانسانية المتسامية وله تاريخ بعيد في التاريخ وقد كان ينبض بالحياة قبل حزب البعث . وانا اسأل الزاعمين هذا الزعم لماذا ثار الملك حسين الاول واولاده ؟ وهل كان العرب قبل ثورة الحسين الا جزءاً من العالم الاسلامي تابعين للخلافة فجاء الحسين وفصلهم عن الخلافة وافصح عن هويتهم وفرزهم عن الخلافة باعتبارهم شعباً ذا ميزات وخصائص فريدة وانه شعب ذو ماض وحضارة وقابلية يجب ان تحرز لتخدم الحضارة والانسانية . وماذا كان يعمل الزعماء الذين افصحوا عن عروبتهم في عهد الطغيان الحميدي امثال عبد الرحمن الكواكبي وجمال الدين الافغاني وشكيب ارسلان وكثير ممن لا تحضرني اسماؤهم . ثم لماذا شنق البهاليل من العرب امثال الزهراوي والبخاري والعسلي والانكليزي والمحمصاني وبعدهم احمد مريود والثوار من مثل حسن الخراط وسعيد العاص ومصطفى وصفي وابراهيم هنانو والمرعشي وقبلهم صالح العلي وحتى قبائل دير الزور كالعنابزة والبوعمرو وسواهم . انهم انتفضوا انتفاضات قومية باشكال مختلفة ،

فكيف ننسى فضلهم على القضية العربية ولا نخضع للتاريخ ونجعل حركاتهم اساساً لبنيان حزب البعث ولغيره من الحركات القومية الجديدة . ان الامة افضل من الحزب . هذه هي القاعدة العامة . اما حزب البعث فيريد ان يعتبر الحزب افضل من الامة ، فهو يريد ان يبني امجاده على انكار امجاد الامة . وهو يرتفع على حساب نكران فضل العرب كلهم ، وليس في هذا الاسلوب ما يتفق مع صدق الدعوى في محبة الامة العربية وتقديسها والعمل على رفع شأنها والفناء فيها .

المقاييس الخاطئة

٥ - تسلل الى اذهان الحزبيين بعض المقاييس الخاطئة . فهم تارة يشبهون حركة البعث بالحركة الاسلامية وطوراً يشبهونها بالحركة الروسية . والقياس في الامرين مع الفارق كما يقول المناطقة ...

ففي روسيا كانت الملكية العقارية للاراضي الزراعية في جملتها للدولة وقليل منها كان للقيصر وعدد ضئيل جداً من الامراء . فالثورة اذن لم تستهدف عدداً كبيراً من الشعب تؤذيه في موارده ورزقه ، وفوق هذا واهم من هذا ان روسيا دولة تامة مغلقة وليست جزءاً من امة كما هو الحال في الأمة العربية .

اما الحركة الاسلامية فقد جاءت في منطقة مغلقة ليست عرضة لغزو ولا ميداناً لمقاومة اجنبية ، بينما حركة البعث في سورية مفتوحة للاجانب والاعداء يعملون ضدها سراً وعلانية واحياناً بواسطة المنتسبين اليها على تهديمها .

والحركة الاسلامية لم تصدم العرب في ما حللته وحرمته . فالحرمات تكاد تكون واحدة كما ان المباحات والسنن والوجائب كانت منسقة مع اخلاق العرب.لقد حرم الاسلام الخمرة ومن كان يشرب الخمر؟ ان الشعب لا يعرف الخمرة وانما يعرفها عدد قليل جداً من المثقفين والشعراء والوجهاء والامراء ، فالتحريم صدم عدداً لا يتجاوز واحداً بالالف . وحرم الاسلام القمار ، وما كان العرب يلعبون القمار الا

بشكل من اشكال السخاء ، فهم يتراهنون على ذبائح يذبحونها ويأكلها الحضور وليس للرابح نصيب منها خاص . وكان اللاعبون ايضاً طبقة محدودة جداً . وحرم الاسلام لحم الخنزير ، وما كان في بلاد العرب خنزير ليأكله العرب.وحرم الاسلام الربا واين هي الاموال التي تعطى بالربا ؟ لقد كان في مكة كلها عدد لا يتجاوز عدد اصابع اليد من المرابين . فمن كان فريسة للثورة الاسلامية ؟ لم يكن احد .

مستعجلون

اما حركة البعث فانها فسرت على غير مقاصدها وسارت سيرة مستعجلة ، وحاول الحزب تطبيق الدستور بيوم واحد قبل ان يخلق الجو الملائم للتطبيق وقبل ان توجد التهيئة النفسية والاجتماعية لذلك ، فانه اصطدم بالعدد الكبير من افراد الشعب ولقي مقاومة من الذين يشعرون بالغبن ، فهم لم يستسلموا لأنهم في عز صباهم وشرخ شبابهم المعنوي والادبي ، ومقاومتهم عنيفة ، وما لنا وللمكابرة . ان علينا ان نصدع بالحق فهو اجدى . لقد كان اصحاب رسول الله فانين في دعوتهم منزهين عن الاهواء زاهدين في امور الدنيا على الضد من جماعة البعث اليوم .

الحادثة الطريفة في التاريخ التي اعترف فيها ابو بكر الصديق بانه مال الى المنصب هي يوم جاء وفد الى الرسول يطلب اليه ارسال شخص يجمع منهم الزكاة فقال الرسول سأبعث معكم أمين هذه الأمة . لقد طمع ابو بكر بهذه الصفة ولم يطمع بالمنصب . قال ابو بكر فعملت على ان يراني الرسول وتطاولت بعنقي واثبت وجودي لالفت نظره ، فما كان من الرسول الا ان نادى ابا عبيدة بن الجراح وقال له قم يا ابا عبيدة ، فسمي ابو عبيدة امين الامة . وهذا الزهد غير متوفر في جماعة البعث اليوم ، ولقد كان متوفراً في السنين الاولى لنشأة الحزب ولكنه لم يستمر في زهده وتجرده .

لذلك فان جنوح البعثيين الى تفسير حركتهم او تشبيهها بالحركة

الاسلامية او الحركة الشيوعية انما هو خروج على الحقائق .

والبعثيون قاسوا حركتهم ايضاً مع الحركة الاسلامية يوم انقلبت الحركة الاسلامية من طور التبشير والدعاية الى طور الحرب والقوة والعنف بعد هجرة الرسول واصحابه الى المدينة . والبعثيون ايضاً اعتبروا ان السلوك السلمي والتبشيري قد انتهى وجاء عهد القوة لتركيز الدعوة .

والخطأ كما قلنا من قبل ناجم عن ان مكة مغلقة والصراع مقتصر بينها وبين اهل المدينة من العرب . اما سورية مركز البعث اليوم فهي مفتوحة لكل تيار . ومقاومة البعث فيها غير محدودة ، وكلما تحطمت جبهة خلفتها جبهة تصنع في الداخل او تهيأ من الخارج . وما لم يصل البعث في تبشيره الى حد تخمير الاكثرية الساحقة من السوريين ومن بقية الاقطار العربية بحيث لا تنساب قوى من الخارج لتحطم الحركة، فان نجاحه محدود ولو حكم البلاد بقوة السلاح وبسيطرة الجيش ، ومن هنا ينشأ الخطر ، اي من هذا القياس الخاطىء ما بين فترتي الحرب والسلم في الحركة الاسلامية وبين فترتي التبشير والقوة في حركة البعث .

ذ – وان المظهر العسكري الذي يظهر به الحكم في سورية قد سبب تدهور سمعة البلاد في نظر الحكم الديموقراطي العالمي ، وان بروز الضباط بشكل سيطرة وقبض لزمام الامور ، ثم الحرس القومي وما يقوم به احياناً من ممارسة لمهام السلطات العسكرية والتنفيذية قد القى الرعب والحقد في قلوب اكثر المواطنين فغدوا يعتبرون انفسهم في محنة يتمنون التخلص منها بلا تحديد لشكل الحكم الذي يعقبها .

وقد تكون الجهات المعادية للحكم في الداخل والخارج قد استغلت المظهر فضخمت الوقائع وهولتها ، ولكن هذا على فرض صحته لا يمنع من ان قناعة الناس اصبحت كما وصفنا ، حقاً كان ذلك ام باطلا .

الشباب ...

٧ – ثم ان تسليم الوظائف الكبرى والمناصب الحساسة الى شباب اغرار عديمي الخبرة قد سبب هوان الحكم والحزب معاً في نظر الرأي

العام ، وقد احصى المواطنون تعديلا لبعض القوانين خلال شهر واحد عدة مرات وهو امر نجم عن قلة الدراسة ونقص في كفاءة المشرعين . وقد يحدث الخلل من تصميم على عدم التعاون مع الحكم يضمره المواطنون ، فلا يدلون المشرع على مواطن الخطأ فيما يشرع بتعمد الفضيحة والتشهير ، وهذا ايضاً ينجم عن سلبية الحكام وفقدانهم خاصة الجذب والاستقطاب بل تنفيرهم للمواطنين جميعاً من غير الحزبيين وحتى من الحزبيين الذين ينتمون الى جناح غير جناحهم . اضف الى كل ذلك ما يشاع ، عن حق ام عن باطل ، من قيام اجنحة داخل الحزب وتيارات تعصف بالحزبيين ثم عن سريان هذه التيارات الى داخل صفوف الجيش وتربص كل فئة بالفئة الاخرى ومحاولات انقلابية وما يشبه ذلك مما يعكر صفو النفس العربية في سورية ويجعلها في حالة قلق مستمر .

وقد لحظ المواطنون تصرفات وتصريحات متناقضة صدرت عن مسؤولين من رجال الحكم . فبينما يصرح رئيس المجلس الوطني بشيء تنقضه احياناً صحف الحزب او محطة الاذاعة ، واختلف التوجيه في السياستين الداخلية والخارجية حتى غدا المواطن فريسة للبلبلة والفوضى النفسية وليس عنده حل يقضي على مشاكله الا تمنياته ان يخلص من هذا العهد . واني اؤكد لكم ان الكثرة الشريفة من المواطنين يتجلى شرفها في ان لا تساهم في تدمير الحزب والحكم اذا تعرض للتدمير بل تقف على الحياد ولا تدافع عن الحزب الذي كان يضم افلاذ اكباد المواطنين فاصبح مصدر اذى وافقار واهانة في نظر المواطنين الذين كما قلنا قد تأثروا بعض الشيء بالدعايات المعادية التي يشنها اعداء العهد ، ولكن ما الحيلة وقد وقع هذا وألقى في روع الناس ان العهد اصبح معادياً للشعب ، ولو كان يتبنى العمال والفلاحين ، وجمهرتهم ايضاً لم تنسجم مع العهد ولم تؤمن به بعد .

القبيلة المعادية

ان المرء لا يحتاج الى ذكاء ولا الى امعان نظر من اجل ان يعرف

ان حزب البعث يميل الى امتهان القبيلة العربية ويقف منها موقف المعادي . والقبيلة العربية ليست تلك الجماعة البشرية التي تجوب الفيافي والقفار تسوق ابلها وترعى اغنامها وهي في معزل عن العالم لا تتفاعل معه . وهذا المعنى للقبيلة وهمي او تاريخي اذ القبيلة اليوم استوطنت وعملت في الفلاحة والزراعة وحتى في التجارة واصبحت منتجة تخدم الوطن في كثير من النواحي . وليس من المصلحة القومية توجيه الاساءة اليها ، فهي مستودع الخلق العربي ورواسب المصطلحات القومية والاعراف الخلقية . وقد يكثر الشذوذ في كثير من افرادها وقد تشتد زوايا الانحراف عند بعض منهم ، ولكن هذا لا يمنع استمرار الرأي العام عند القبيلة الذي هو منبر الخير والشر والتحليل والتحريم . وعند القبيلة مقدسات ومثل عليا هي عصارة الخلق العربي ، وقد لا تطبق القبيلة تلك المثل ولكنها تقدس الذين يطبقونها فكأنما هي تحب وتشجع وتحث على التطبيق . القبيلة تقدس الامانة والصدق والوفاء والسخاء والشجاعة والحلم والمروءة والايثار والنجدة والفداء ، وتحترم من يمثل هذه الصفات وتحتقر من يبتعد عنها ، ولا زال العرف ومخلفات الاجيال الماضية هي التي تحكم في القبيلة . كما ان القبيلة قد خدمت القضية القومية من حيث تشعر او لا تشعر . فهي لم تعترف على الحدود المصطنعة التي قامت بين الاقطار العربية ولم تخضع للاعراف الدولية التي طبقها عرب الحاضرة. فهي تجتاز الحدود الى الدول العربية المجاورة وتستغرب اذا اعترض احد سبيلها لان الاصل عندها العروبة والانتماء الى الامة العربية ولا عبرة لما استجد من اعراف تخضعهم لحمل جوازات السفر ورخص اجتياز الحدود . كما ان اسم العروبة قد اطلق عليها وحدها عندما اندمج العرب في خضم العالم الاسلامي واصبح جزءاً من التابعية العثمانية واصبح كل حضري من اي عنصر كان يسمى مدنياً وابن القبيلة وحده هو الذي يسمى عربياً . ونحن اذ نوجه بعض اللوم للبعث على موقفه من القبيلة فلأن هذا الموقف يوجه بالواقع الى تلك الاعراف القومية التي بحثناها . ولو كان هذا الموقف منصباً على حالة البداوة ومحاولة

الحكم للتحضير لما كان لنا مأخذ على الحزب . ولقد كان هتلر في ايامه الاخيرة يتحدث عن روح الامة الجرمانية وعن ايحاءات تلك الروح ووجوب الاستجابة لها ، ثم انتقل بعد ذلك يتحدث عن ارادة القبيلة الجرمانية . وما قصد من القبيلة الا روح الامة الجرمانية المترسب في القبيلة ، وليس يضر العرب في شيء ان يستمدوا الاعراف العربية من مصطلحات القبيلة وما تبقى فيها من مقدسات . وبديهي ان هذه النظرة التي اريدها لا تتنافى مع محاولة التطوير والتمدين ونقل القبيلة الى طور زراعي كامل او صناعي عندما ندخل في طور التصنيع .

والحزب ينادي بمساعدة الكادحين ويخرج من اهتمامه هذه الكمية من البدو . فهل يجب ان يقتصر الاهتمام على ريف معين من محافظات سورية فقد الاعراف والمصطلحات ولم يتقيد بالروح القبلية المتسامي . وهل يمكن اعتبار هذا الواقع شعوبية مستثمرة تعطف على بقايا الانباط او حثالات الاقوام القديمة وتمقت القبيلة العربية . اننا لا نستطيع ان نوجه مثل هذه التهمة الى الحكم جرياً مع شعاراته العربية ولكنا لا نستطيع الجزم بانه لا توجد في الحزب يد خفية توجهه نحو هذه المسالك .

ان القبيلة العربية ، لاسيما في شمال البلاد وشرقها ، قد قامت بقسط وافر من الدفاع عن الوطن وعن عروبته وقد اوقفت تياراً غريباً عن العرب كان يحاول التسلل والتسرب الى البلاد . وقد اخذ الصراع في ظاهره شكل نزاع على الارض والملكية . وقد انتصرت القبيلة على الخصوم ووضعت اليد على الاراضي . فلما جاء حكم البعث صمم على سلب تلك الارض من القبيلة العربية وهي انما شرتها بدماء ابنائها ، فلم تغتصبها من مواطن او تسلبها من عربي ضعيف كما يعلم المطلعون على حقائق الامور .

وان التطور التلقائي الذي اخذ مسيره في بلادنا هو الذي يكفل انتقال القبيلة الى حال افضل مما هي عليه . فلنوفر لها الاحترام والكرامة لتسهيل تطورها ووفاء منا لها على جهودها السالفة .

٩ - اما بالنسبة الى السياسة الخارجية فان الحزب لا يقف على الحياد كما هي سياسته التي يعلن عنها في كل مناسبة وانما يقف بعواطفه وتصريحات المسؤولين فيه وصحفه واذاعته مع الشرق ، وكثيراً ما ساير الاتحادالسوفياتي في نظرياته واعلن شكره وامتنانه لزعماء الشيوعية وسار في نهجهم بالتهجم على الغرب وشتم زعمائه واثارة الكراهية ضده . وهذه سياسة تقليدية بالية وان الصراحة والمواقف الحاسمة هي السياسة المثلى اليوم .

وقد يقول الحزب ان اميركا مثلا وبريطانيا هما اللتان تبدآن العداوة بمساعدتهما اسرائيل . ونحن بحكم الدفاع عن النفس وبحكم الكرامة مضطرون الى معاداتهما . وهذا القول صحيح الى حد بعيد ، وعلى فرض صحته فان الدواء لمثل هذا الداء ليس بالانضمام الى الخصم وتأييده في شتى المجالات بل ان له طرقاً اخرى . فامريكا تزعم اننا نحن الذين بدأنا بالعداوة وباشرنا السباب والشتائم مما اضطرها الى موقفها هذا ، وان الولوج الى هذا الميدان بالحكمة وطرق اللين والمواقف الايجابية قد يكون اجدى .

ثم ان حزب البعث لا ينبغي له ان يندفع مع الاتحاد السوفياتي لانه يفترض ان اميركا تدعم جمال عبد الناصر وهو خصم للبعث ، لان هذا السلوك هو تبن لسياسة المعسكرات او قل تقسيم عملي عميق للبلاد العربية ، اذ نكون سمحنا لكل قطر ان يمشي مع معسكر خارجي بصرف النظر عن موقف الاقطار الاخرى العربية . والواقع اننا كلما اوغلنا في الشتيمة او بالتظاهر بمحالفة روسيا استغلت ذلك اسرائيل وتقربت من امريكا ووجدت استجابة منها . وقد يكون سلوكنا هذا نتيجة تخطيط اسرائيلي يهدف الى ابعادنا عن الدول الكبرى ذات الاثر الفعال في مناطقنا لتكسب اسرائيل وحدها ودهم وتحظى بعطفهم ، ونحن نسير من غير شعور بالخطر والخطأ الذي نرتكبه ضد قضايانا ، وحتى بريطانيا لا يستحيل افهامها ضرورة النزوح عن كل ارض

عربية تحل فيها بلا ضجة ولا تهويل . وبريطانيا تدرك قبل غيرها ان واقعها السالف قد انتهى ولم يعد في الامكان ارجاع دولاب التاريخ . فالاستعمار مات ولا يمكن احياء الموتى .

السياسة الاسلامية

ان شعوب العالم الاسلامي هي قوى احتياطية للعرب ، فيجب معرفة هذا الواقع ومراعاته . ولقد سار حزب البعث بخطط منفرة لبعض الحكومات الاسلامية جرياً مع سياسة قديمة أملاها النفوذ الشيوعي على سورية . ومن يوم حلف بغداد اشتد عداء سورية وحزب البعث خاصة لدول الحلف الاسلامية التي نحن الآن بصدد بحثها ، وهي تركية وايران وباكستان . يضاف الى حلف بغداد موقف تركيا وايران الغامض تجاه موضوع اسرائيل . وهنا ايضاً يختلف الاتهام . تركية مثلا ، تقول ان العرب يقفون ضدنا في خلافنا مع اية دولة نخاصم . ويوم قبرص كان العرب في جانب اليونان . واليوم تتسرب اسلحة عربية الى القبارصة اليونان . ومهمتها طبعاً ذبح القبارصة الاتراك . وقد يكـون الحق معنا على اعتبار ان الاتـراك اغتصبوا منا لواء الاسكندرون . والاتراك اغتصبوا قبله كليكيا كلها ، والعرب فيها عنصر غالب كما هو الحال في اسكندرون ، فلماذا نسينا كليكيا . الانها عمقت في التاريخ . وحتى لو كنا على صواب فانه لا يحق لنا ان نسلك مثل هذا السلوك بل علينا معالجة الامر بالحكمة وبكسب الشعب التركي المسلم فهو الكفيل بالضغط على حكومته كي تقوم بواجبها الاسلامي . وايران يرجع خلافنا معها الى عهد الاميرة فوزية وطلاقها من الشاه . ثم ازدادت الخلافات فكان موقفهم المعروف من قضية اسرائيل . ونحن بدلا من محاولة الاقناع والجذب عمدنا الى الشتائم والى اعلان العداء، وباكستان عاديناها من اجل الهند . والهند ليست معنا . انها مع مخططها الخاص الذي طوراً يمر بقضايانا فيكون معنا وتارة يمر باسرائيل فيكون مع اسرائيل .

ان العمل النافع هو اقناع الدول الاسلامية بان من تمام اسلامها ومن شرائطه ان تكون معنا ضد اسرائيل وان غير هذا الموقف هو خروج على الاسلام وهو كفر صريح . والشعب يخشى مثل هذه الاتهامات وان كان في الحكومة والمسؤولين ملحدون . فان الشعب ليس كذلك . وانا اريد ان اتساءل من هم سفراؤنا في تلك البلاد التي يجب ان تكون سائرة في خطنا بالنظر لعلاقتنا الدينية بها ، وهل فتحنا فيها سفارات مع ملحقين دينيين واعظين من الفقهاء المتمرسين في شؤون الدين والاسلام .

ان مقاصد ترسم وان تخطيطاً يعد للقضاء على التعاطف والتواد بين المسلمين . وهذه الجفوة التي نلمسها بيننا وبين تلك الدول الاسلامية بعض آثار هذا التخطيط ، وان العالم الاسلامي له شأنه ونفوذه اذا احسن استخدامه لصالح العرب . ولا يجب ان تتغلب نزعة التحرر واللادينية على هذه الاعتبارات فنخسر مؤيدين لنا من المسلمين يعتبرون تأييدنا من بعض اركان دينهم . واني لا ارى صعوبة في تحقيق هذه الاهداف الدولية لو ان الذين يمارسون الحكم والسياسة كانوا في مستوى هذه الاحداث والاهداف .

ومن باب الايضاح وتبيان الدراسة الموضوعية اقول ان السفير العربي في دولة مثل باكستان او ايران أن يكون مترمتاً متعصباً افضل من ان يكون — متحرراً — تقدمياً ، لان العدوى التي تسري من السفير على تلك الدول لا ينبغي ان تكون الا دافعة على التمسك بالدين وتقاليده ، لان الدين هو القاسم المشترك بيننا وبين تلك الدول . وما يصح في باكستان وايران مثلاً لا يصح في دول اخرى ، والحكيم من يضع الامور في نصابها ويجعل لكل مقام مقالا .

التعقيد والتبسيط

وللانسان العربي في سورية ان يتساءل عن سر هذا التعقيد الذي يستعمله الحزب في بث الافكار ونشر المعاني التي يريدها ، اذ انه لا يستعمل

من الالفاظ ما يصلح دلالات على المقاصد . والسامع العربي المثقف يقف حائراً في حل الرموز التي تنطوي عليها هذه التعابير فكيف بابن الشارع وغير المتعلم وضعيف الثقافة .

اذ ما الذي تعنيه الالفاظ الآتية وهي التي يكاد الحزب يكون وقفاً عليها في مخاطباته والتي تمتلىء بها اعمدة صحفه واذاعاته . فما هي التقدمية والثورية والطليعة . وما هي التوعية والمكاسب والانجازات والمصيرية والنضال المشترك . وما وحدة المصير ووحدة الهدف ووحدة الصف والتسيير الذاتي والتحوير الاشتراكي والمد الثوري والقوى التقدمية .

وما تفسير هذه الالفاظ الغامضة التي تحمل عشرات التأويلات والتفسيرات ، واللغة العربية ومعجماتها لا تعرف معنى هذه الالفاظ ، وانما هي مصطلحات وضعها حزب البعث وكأنه اراد بها ان تبقى المقاصدقابلة للتفسير والتحوير .

ولو فرضنا ان السوريين تتبعوا هذه الالفاظ واعتصروها وعرفوا معانيها او بعض معانيها ، فما القول فيما تبقى من العرب وعددهم مئة مليون او ما يقارب من ذلك ، وما الدافع لهم على المثابرة والمتابعة حتى يستجلوا سر هذه الالفاظ . اليس في هذا التصرف عزل محتم للحزب عن العرب جميعاً اذ انه بملء ارادته قد خلق هوة بينه وبين الشعب واصطنع سداً لا يمكن تجاوزه بعدما اختص لنفسه بمصطلحات لا يفهمها الا هو . ونحن سنلخص مقاصد الحزب كما قصدناها من قبل وكما يريدها العرب باللغة التي يفهمها جميع الناس .

المبادىء الاصلية

ان هناك امة عربية واحدة . ومصلحتها ان تؤلف دولة واحـــدة وتنتظم في كيان سياسي دولي واحد . وهي اليوم مجزأة ومبعثرة بفعل عوامل شتى ، ويجب على العرب ان يصنعوا هذه الوحدة بما استطاعوا من القوى ، وان الامة العربية نتيجة لعمل السنين والحكومات السالفـــة

قد ساء توزيع الثروة بين ابنائها ، فيجب اعادة النظر في توزيع الثروة والقضاء على كلمة الفقر من المعجم العربي ، ويجب ان نعمد الى الطبقات الفقيرة فنضمن لها غذاءها وكساءها وصحتها وتعليمها وكرامتها . ثم نثني الى الطبقات الثرية فنحد من ثرائها بحيث نمنع الاستغلال والسيطرة المضيعة لكرامة المواطنين متوخين ان تكون الامور مقدرة بقدرها بلا زيادة ولا نقصان . ثم ان هناك اصقاعاً عربية تحكم بتعسف وبلا قانون ولا عدالة ولا حرية سياسية ، فيجب ان نتولى تصحيح الاوضاع فيها بحيث يحكم القانون ويزول التسلط وتنطلق الحريات الفردية والعامة . وبهذا نلخص الوحدة والحرية والاشتراكية التي ينادي بها حزب البعث شعاراً له والتي قبلت او تكاد تقبل من اكثرية المواطنين .

ونحن اذ نسوق مقاصدنا بالشكل الذي سقناها فانما نقصد ان يفهمها القاصي والداني ، وان لا تقوم في النفوس والاذهان استفسارات وعلامات استفهام . وانا اتساءل ايضاً هل الالفاظ التي يستعملها البعث، والتي سقنا طرفاً منها من قبل، هي الفاظ يفهمها ابن الريف في اقصى الجزيرة شمالاً وحوران جنوباً ، وهل العامل والفلاح يستطيعان استكناه ما تهدف اليه . وهل الحزب يخاطب الا الشعب لانه حزب شعبي كما ينص على ذلك دستوره وان مادته الاساسية هي الشعب وجماهيره . ان المواطنين في حيرة وقد ذهب بهم التفسير مذاهب شتى نتيجة التعقيد والابتعاد عن مصطلحات العربية ودلالات الفاظها .

البعث قبل الحكم وبعده

١٢ ـ وما دمت في صدد محضكم النصح فاعلموا ان مؤيدي البعث قبل ان يستلم الحكم وبعد استلامه بقليل كانوا اكثر عدداً واكثر تعلقاً به. وقد تناقص عددهم وخفت حماستهم بعدما تولى البعث الحكم ورأى الشعب منه عجباً . فهناك احتكار للمناصب بصرف النظر عن الكفاءة والقابلية . كما ان القوانين التي صدرت قد اصابت فئات كثيرة في ارزاقها وعيشها . وقد ظهر التسابق بين البعث وعبد الناصر ، فاذا خصص

عبد الناصر للمالك ثمانين هكتاراً جعل البعث للمالك خمسين هكتاراً لان تقدميته واشتراكيته يجب ان تزيد عـلى تقدمية عبـد الناصر واشتراكيته ، والفرد العربي في سورية هو الضحية لهذا السباق .

اذا اتتك مذمتي ...

ان كثيراً من الفئات قد نصرت البعث ، فلما رأت تلك الفئات ان الاحوال بعد الوحدة لم تتحسن وان قوانين عبد الناصر ما تزال كما هي مع زيادة في الضغط والتضييق ، عادت تتساءل لماذا اذاً حاربنا عبد الناصر ... وهذا التساؤل هو بدء التحول عن حزب البعث وهكذا كان . واعلموا ان الدعاية ضد عبد الناصر لم تعد تلقى اذاناً صاغية من الجماهير بل ان الامر على النقيض من ذلك ، فان اكبر دعاية لعبد الناصر في سورية هو حكم البعث واسلوبه المتبع اليوم وما لم يطرأ عليه تحسـن وارضاء للسواد الاعظم من الناس فان اسهم عبد الناصر في ارتفاع .

والشعب في اكثريته قد اصبح يتقبل القوانين ذات الصبغة الاشتراكية، وحصل عنده شيء من التهيوء النفسي لذلك ، وليس بين الشعب والحكم خلاف الا في تعيين الظرف وتحديد الزمن الذي تنفذ فيه تلك القوانين. والبعث قد استعجل الامور لانه يتوهم انه بذلك يكسب جماهير العمال والفلاحين مع انه لم يربح في هذا الميدان شيئاً . واخشى ان تنطبق عليه القاعدة الفقهية التي تقول :

١٣ – من استعجل الشيء قبل اوانه عوقب بحرمانه . ومع كل ذلك فلا بد من الاشارة هنا الى ان البعث هو اول حزب عربي اشرك الجماهير في النضال وحملها مسؤولية قضيتها وهو امر يسجل في محاسن البعث . ولكن الموجة المقصودة في هذا الباب قد تجاوزت الحد المطلوب ، فانقلب الوضع من تعميم القيادة والسياسة وعدم جعلها وقفاً على طبقة معينة وفئات محدودة الى غوغائية خطيرة تسير بعواطفها وقلوبها ومصالحها الوهمية بلا درس ولا تمحيص ولا تبصر بعواقب الامور . وهذا ادّى الى ركود العقل البعثي وانطواء القادة الاولين مؤسسي الحزب عـلى

انفسهم ومنعهم من استخدام خبرتهم وتجاربهم وتطبيق المبادىء الحزبية وتجريعها للجماهير العربية بيسر وتلطف وتقبل .

غاية المذكرة

في نهاية المقدمة وقبل البدء في بيان بعض الانحرافات التي مارس الحزب فيها تطبيق دستور الحزب ، اتساءل عن مفعول هذه المذكرة ومدى ما تلقاه من نجاح وقبول ، وعن النظرة التي سينظر اليها بهـا ، وهل يجب ان تقدم إلى المسؤولين ام ان المحاولـة عقيمة . ثم ما هو الصدى النفسي وما هو رد الفعل ، هل هو ارتياح ام امتعاض . ليس هذا الذي يهمني ولكن الذي يهمني هو اطمئنان الضمير وقيام المرء بواجبه . واذا كان الامر لا يخلو من امل وتفاؤل بالنسبة الى اخذ مضمون المذكرة بعين الاهتمام ، فان الشيء الاسمى هو عذري الى نفسي والى الاجيال الصاعدة.وقد تكون قصتي هي قصة الاعرابي التالية :

١٥ ــ حضر الاعرابي في البادية الى بيته بعد ان غاب عنه بعض الوقت وقد اخبره اهله ان شاته قد فقدت ولم يُعرف آخذها . وقد سألهم من اين يظنون الشاة قد ذهبت ، فقالوا له نرجّح انها سارت من هنـا شرقاً . فاستعد الاعرابي وشكل ثيابه وتهيأ لعمل مجهد ثم انطلق يعدو مسرعاً في الجهة التي زعموا ان الشاة سارت فيها . وبعد جهد اعيـاه وتعب اضناه ، وقف واستراح . فتبعه اهله وسألوه عن سر هذه العملية فقال لهم انا اعلم انني لن القى الشاة ولكني كرهت ان افقد الشـاة من غير ان ابذل في سبيلها جهداً وتعبا . ــ وانا كرهت ان لا ابذل جهداً في توضيح الموقف ولو لم يكن هناك من يستمع لي .

وانا اكتفي بهذا القدر من الوصف للاوضاع الراهنة ، وانتقل الى البحث عن صحة تطبيق الشعارات الحزبية من قبل الحزب ، وهل السلوك متفق مع الدستور وهل الدستور يحتم مثـل هذا السلوك ... وهـل الدستور يمنع المرحلية في العمل التطبيقي والحكم ، وهل يجب ان يكون التبشير والدعاية مثل تنفيذ الحكم تمامـاً . انني سآخذ الشعارات الكبرى

في الحزب وهي الوحدة والحرية والاشتراكية وادرس مفاهيمها الحقيقية ومفاهيمها لدى الحزبيين المحدثين القائمين اليوم على شؤون الحزب والذين يديرون سياسة الوطن في سوريا .

اجتهادات لها قوة القوانين

١٦ ـ الوحدة العربية :

يحتاج هذا البحث الى توطئة قصيرة تصلح استناداً الى ما سيجيء من البحوث . اذ ان النصوص تبقى جامدة لا حراك بها اذا لم يقم على تحقيقها وبعث الحياة فيها الذين سكبوها من عصارة ايمانهم ونير عقولهم . وهذا يعني ان الذين وضعوا نصوص دستور البعث العربي هم المسؤولون عن صحة التطبيق وسلامة النهج . وان تصرفات قيادة الحزب التي بقيت زمناً طويلاً قيمة على الحزب بمثله ومعانيه وتشكيلاته ، هي تصرفات يمكن اعتبارها جزءاً من الدستور ومفسرة له وشارحة لمقاصده ، وهي كما يقول علماء القانون سوابق واجتهادات يكاد يكون لها قوة القانون . يضاف الى ذلك ان النصوص اذا تعارضت في ظاهرها مع تصرف القيادة ، فان الحزبيين يجب عليهم ان يتبعوا التصرف العملي للقيادة ولو كانت تخالف النصوص .

ففي التشريع الاسلامي مثلاً ، اذا تعارض نص الحديث الصادر عن الرسول والذي لا شبهة في انه من اقوال الرسول ، اذا تعارض مع الآية الكريمة فان الفقهاء يأخذون بالحديث ويتركون الآية . واذا تعارض الحديث الثابت السند الى الرسول مع اجتهاد الامام او الفقيه فان القول قول الفقيه وعلى المسلم اتباعه وترك الحديث . وللوهلة الاولى يتبادر الى الذهن ان هذا شذوذ ، ولكن بعد الاطلاع على الاسباب يزول العجب ويقبل هذا الاتجاه . فالرسول الكريم اعلم من سائر الناس بمقاصد القرآن ، والتعارض بين قوله وبين القرآن هو تعارض ظاهري ، وقوله يشرح ويفسر او يخصص او يعمم حكم القرآن . كما ان الفقيه او الامام المجتهد اعرف من سائر الناس بمقاصد الرسول ، فالتعارض بين ما يقول

وبين الحديث الشريف هو تعارض ظاهري . وللاتباع ان يلحقوا الامام ويسيروا على مسؤوليته اذ انه لايحق لكل انسان ان يجتهد ويفسر ويعلل. كذلك مسؤولية قيادة حزب البعث اذا سارت في طريق يتعارض مع نصوص الدستور ، فان الحزبيين ملزمون باتباع طريق القيادة فهي اعلم بمقاصد النصوص وهي التي شرعتها . هذا اذا كان هناك تعارض ، امـــا اذا كان هناك سكوت واغفال او اطلاق فمن الاولى ان يكون للقيادة حق التفسير والتأويل والتفريع والاجتهاد وحمل المادة على خصوصها او عمومها او ما يشبه ذلك .

الوحدة غير مقيدة بشروط

١٧ – ان الوحدة العربية لم تكن عند حزب البعث مشروطـــة بشرط . وهي اسمى عند الحزب من كل اعتبار ،وشرطها الوحيد هو سلوك الطرق التي تستمر بها وتنمو وتجذب وتمنع انفصامها او تفكيكها. ولم يكن الحزب يرضى ان يضعها على صعيد واحد مع اي اعتبار كان. وهي من بين الشعارات الحزبية الشعار الاقدس ، والشعاران الآخران وضعا لخدمتها وتحقيقها ، وهما ليسا بمنزلتها من التقديس . وقد وقعت في عهد الجمهورية المتحدة احداث ادّت الى فصم الوحدة ، وشـــعب سورية لم يثر ولم ينقم على الوحدة ولكنه ثـــار على الظلم والعسف والمباحث والتسلط وروح الاقليمية وتسليم البلد الى بعض المستغلين والمشبوهين وقتل الحرية الفردية والعامة وابعاد الحياة الديمقراطية وسن القوانين التي لم يكمل التهيوء النفسي لقبولها . وهذه هي التي سببت الانتفاض على الوحدة ومحاربتها ، ولولا هذه لكانت الوحدة في منزلتها العليا من نفوس الشعب .

اما القول بانه لا وحدة مع عبد الناصر فهو قول يشبه قول عبد الناصر بانه لا وحدة مع البعثيين . وهي اقوال تدمر مفهوم الوحدة من اساسه . وما كان البعث يعترف على مثل هذه الاحترازات الفرعية الثانوية او الشخصية عندما نادى بالوحدة المطلقة ، وحتى نظام الحكم لم يكن عائقاً

للوحدة . ولامر ما لم ينص دستور الحزب على النظام الجمهوري ، فان الحزب قد احتاط للامر وافترض وجود احتمال ولو كان واحداً بالالف يمنع تحقيق الوحدة الا في ظل نظام ملكي ، والحزب لا يريد ان يتنازل عن الوحدة بسبب النظام الملكي . ويمكن ان اسوق بعض السوابق ليتبين للرأي العام ان مفهوم الوحدة من قبل لم يكن كمفهومها اليوم عند جماعة الحزب ، وان الوسواس قد اخذ يدب في نفوس الحزبيين، وأخذ السوس ينخر في جسم الحزب حتى غدا وكأنه مقيد بالالفاظ والقشور دون المعاني واللباب .

١ – مرت سنون طويلة وتمثال الملك فيصل الاول المصنوع من النحاس كان على منضدة قيادة الحزب ،ولا ادري متى تم انتزاعه من مكانه . ونحن طبعاً لسنا ملكيين لاننا نعرف طبيعة الحكّام في بلادنا ونعرف ان رئيس الجمهورية يظل يتسلّل حتى يحوز على صلاحيات الملك المطلقة، وماذا يفعل الملك إذن الا ّ ان يصبح دكتاتوراً . هذا في الغالب ولا عبرة للشواذ .

كما اننا نعتبر وجود الملك في اغلب الاحيان عائقاً للوحدة العربية نظراً لتمسك كل ملك بقطره ومملكته . ولكن مع ذلك لم نكن فريسة للهواجس . وكان وجود الملك فيصل على المنضدة باعتباره يرمز الى انبعاث العرب وثورتهم على الخلافة وتخليصهم الامة العربية من الذوبان في المحيط العثماني تمهيداً لانطلاق قابليتها وتحقيق ذاتها وعبقريتها .

عرض للوحدة بين سورية والعراق

ب – جاء وفد من حزب الاستقلال العراقي الى دمشق عام ١٩٤٩، وهو مؤلف على ما اذكر من السادة فائق السامرائي وصديق شنشل وسلمان الصفواني . وقد طلب الوفد منا توقيع وثيقة بطلب الاتحاد مع العراق ، وقد هم الامين العام للحزب وهو يومئذ الاستاذ ميشال عفلق بتوقيع الوثيقة ، وكنا نحن من الجانب البعثي اربعةً، السادة ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار ووهيب الغانم وأنا . ولكني كنت اشك في صدق

العملية وكنت ارجح انه لا يوجد بحث حول الاتحاد وان المسألة مجرد دعاية حزبية او شخصية ولا يكون لها مردود الا فتح ثغرة وبلبلة بين المواطنين فأردت ابطال التوقيع وقلت : ان الوثيقة تبقى عندنـــا ايها الاخوان. فلما سألوني عن السبب قلت لهم ان حزبنا هو الحزب الام ولا شك في منهاجه الوحدوي . وكيانه ووجوده قاما على دعامة الوحدة قبل كل دعامة ، ولكن بقية الاحزاب تحتاج الى ارتباط بمنهج الوحدة، فوقعوا انتم الوثيقة وابقوها عندنا . الا ان هذا القول اغضبهم وثارت ثائرتهم ، وهو الامر الذي قصدته ، وحدث توتر ولم يتم توقيع الوثيقة ، ولما انصرف الوفد سألت الاستاذ ميشيل عن تسرعه في التوقيع ، والامر ليس جدياً حتى انه ليس هناك موضوع اتحاد ، فقال لي ان سحر الوحدة واثرها لا يقاوم ونحن لم نكن يومئذ متباعدين عن الموضوع خشية النظـــام الملكي او النفوذ البريطاني في العراق لان النظام الملكي ليس نجساً بحيث يمنع الوحدة ويجعلنا نتنازل عنها كما ان النفوذ البريطاني يمكن التغلب عليه . ومجهود قطرين وشعب مؤلف من عشرة ملايين اقوى من قطر واحد مؤلف من ستة ملايين في طرد النفوذ الاجنبي . وقد كان الحزب يعتبر كل عقبة سهلة في سبيل الحصول على وحدة عربية كلية شاملة او جزئية محدودة ولم يكن خاضعاً لمركب نقص يوصله الى الوسواس .

حوار مع اكرم الحوراني

ج – في عام ١٩٥١ كان السيد اكرم الحوراني يفاوض حزبنا من اجل دمج حزبه معنا ، وقد عقد اجتماع في دار الاستاذ صلاح الدين البيطار وكان الحضور هم اكرم الحوراني عن الحزب العربي الاشتراكي وميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وانا عن حزب البعث . وقد استهل السيد الحوراني كلامه بانه لا خلاف بيننا ويجب علينا التوحد والاندماج . فقلت له ان بيننا خلافاً كبيراً ، فسألني عن هذا الخلاف ، فقلت له اجبني بصراحة حتى تنكشف الامور وتعرف المناهج ، فقال لي تفضل ، فقلت :

ان الانقلاب الذي تم من قبل الشيشكلي على الحناوي قد تم بمعرفتك ومشورتك وان هذا الخلاف قد استهدف منع اتحاد القطرين السوري والعراقي فما قولك . فقال انني لا اعلم بهذا الانقلاب ولم اطلع عليه ولم يؤخذ رأيي بشأنه . فقلت له ليس هذا هو المهم بل المهم هو الشق الثاني فقال انني لم اطلع على موضوع وحدة او اتحاد بين سورية والعراق ولكني سمعت بموضوع ملكية لعبد الاله في سورية مع بقاء الانفصال ووجود دولتين ولم اوافق عليه . ولو اني علمت بوحدة لوافقت عليها ولو كانت في ظل النظام الملكي . واذا شئتم فانا مستعد لتوقيع بيان بهذا المعنى انشره على الشعب ، فقلت له كفى .

لا محاذير على صعيد الوحدة

من هذه الوقائع والسوابق يتبين ان الحزب لم يكن يضع شيئاً من المحاذير على صعيد الوحدة او يقيسها بمقياسها . والسيد الحوراني لما قال قوله هذا كان يعرف رأينا ويريد ان يثبت انه لا خلاف بيننا وبينه. هذا كان رأي الحزب في الوحدة ولكنه اليوم اصبح على النقيض من ذلك ، يشترط الشروط ويضع القيود ويدخل كل اعتبار في موضوع الوحدة فكأنما هي قضية من النوافل او زينة او بهرج مع انها قضية حيوية فالعبقرية العربية لا تظهر من قطر عربي بل تظهر من الامة الموحدة ، والامة العربية الموحدة بكل اقطارها هي الوعاء الكامل الذي يتسع للاشتراكية ، وان تطبيق الاشتراكية في قطر بمفرده ليس الا وهماً من الاوهام ، ومحق اسرائيل لن يكون من عمل قطر واحد بل من الدولة العربية الموحدة . لهذا كله كان الحزب ينظر الى الوحدة نظرة سليمة ويضعها في مكانها من الاهتمام والتقديس ، وكان قد ذهب الى الاجتهاد الشائع في القانون الدولي وهو انه اذا اتحد قطران احدهما طليق والآخر مقيد بالتزامات ومعاهدات فان هذه الالتزامات والمعاهدات تفسخ . فالدولة الجديدة هي وليد جديد . وليست تلك الدولة ولا هذه وانما هي صفحة بيضاء . وفي التاريخ السياسي امثلة على ذلك ، حتى ان اقطاراً

تعمدت الاتحاد مع غيرها كي يمكنها ان تتحلل من قيودها السالفة، وما كان هنالك ما نخشاه من تحقيق الوحدة باي شكل من الاشكال .

نظرية الامة الواحدة

١٨ – ووحدة الامة العربية عند الحزب هي الوحدة القائمة على القومية العربية . ونظرية الحزب هي نظرية الأمة الواحدة لا نظرية الدولة المشتملة على عناصر كثيرة . ولو لم يكن هناك امة واحدة مبعثرة ما فكر الحزب باقامة الدولة الواحدة . واجزاء هذه الامة هم ابناؤها اينما كانوا وفي اي ارض اقاموا . ان المهاجرين الى العالم الجديد هم جزء من الامة العربية ويجب تسهيل عودتهم ، وان عرب زنجبار الذين شاهدناهم يذبحون ذبح النعاج ولم تتحرك نخوتنا هم من اجزاء الامة العربية وان اي فرد ينتمي الى الامة العربية بعقله او شعوره هو عضو في هذه الامة . اما نظرية الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية فانها تقوم على الدولة لا على الامة ، والبشر المقيمون داخل حدود الدولة هم الامة مهما تتعدد الجنسيات التي ينتمون اليها .

ولقد بدرت في الحزب اليوم بوادر تشير الى جنوح جزء من الحزب او الحزب كله الى قبول النظريات الاخرى في الوحدة ، مثل وحدة العمال ووحدة الطبقات المنتجة او ما يشبه هذه الطلاسم التي تحدث عنها السيد خروتشوف في القاهرة منذ عهد قريب . والحزب عندما وضع دستوره شملت نظرته كل الحالات والاعتبارات وما فاته التمحيص ثم وضع نظريته في الامة العربية . ففي اميركا وحدة رغم التفاوت الذي لم يشهد له العالم مثيلا في الثروة بين الأفراد والفئات . وبريطانيا رغم الطبقية والتفاوت الاجتماعي تؤلف وحدة . فالقول اذن بوحدة العمال لانه يتعذر قيام الوحدة بوجود التفاوت المالي والاجتماعي هو قول لا مبرر له وهو محاربة مسمومة للوحدة العربية . وانا اظن ان في حزب البعث عناصر شيوعية اندست لتهديم الحزب من الداخل . وهذا امر قد لمسته من قديم الزمان ونبهت اليه زملائي

في القيادة . وان تلك العناصر الشيوعية السرية توجه الحزب هذا الاتجاه وتلقى استجابة من الشبان المتطرفين في الحزب الذين يمتلئون حقداً على الاوضاع الراهنة في سورية ويرون ان من تمام الصفة الثورية السير في هذا الاسلوب العنيف ضد المفاهيم السابقة حتى ولو كانت مفاهيم حزبية . وهذا ما قسم الحزب الى اجنحة ومعسكرات بالاضافة الى ما كنا ذكرناه من انفتاح في نفوس بعض الحزبيين للظهور والبروز واستلام المناصب الكبرى .

الوحدة والحنين الى التجزئة

١٩ ـ ان الحزب ـ الحكم ـ قد تاه في مجاهل تبدت امامه بصورة مفاجئة ولم يجد لها الحلول . ان الحزب يدرك ان العرب لا يستطيعون تفجير امكانياتهم وابراز قابلياتهم الا في الوحدة العربية، فميلهم اليها شديد عنيف . كما ان هناك حنيناً الى الاوضاع الراهنة اي الى التجزئة . وقد بدا هذا الحنين في عهد الجمهورية العربية المتحدة . فما هو العلاج . ان النقيضين واقعان . حنين الى الوحدة وحنين الى الوضع الراهن ، فهل هناك تناقض . هنا تظهر عبقرية الحكام . ان النفوس العربية تحن الى الوضع الراهن بدافع الالف والعادة . وقد رتب الناس امورهم المعاشية والاجتماعية ووطدوا مراكزهم وعلاقتهم على مقتضى هذه الاوضاع ، فاذا زالت حصل اضطراب وخلل وظهر القلق على النفوس ، والعلاج هو خلق المقدسات واحياء المثل العليا وآمال الازدهار والتفاؤل بالمستقبل وخيراته . وصلك النفس العربية بالثقة وبفتح آفاق جديدة من التقدم بحيث تشغل النفس العربية وتألف الوضع الجديد بينما يكون الارتباط او الحنين الى الوضع القديم قد خف وزال اثره تدريجياً . ان الوحدة في نظر العرب كانت امنية الاماني وكانوا يفترضون انها ستجري لهم السمن والعسل ، فلما حدثت الوحدة في عهد الجمهورية المتحدة اصيبت بخيبة امل . اذ انقصت ارزاقهم وكمت افواههم وعطلت حرياتهم وذهبت بعدد كبير الى السجون ودور

التعذيب . وحزب البعث لم يتخذ اي احتياط لمنع هذه التيارات المعاكسة للوحدة في حال قيامها . بل انه اتخذ من فشل الوحدة السابقة سبباً للتشهير بالوحدة وترديد مساوئها واسماع الناس كل يوم ما يحذرهم من قبول الوحدة مرة أخرى بالرغم من التظاهر والتحدث عن الوحدة . واذا كان حزب البعث يصنف الشعب ويقسمه اقساماً يرمي بالقسم الكبير منها في صنف النفايات فكيف يريد اقامة وحدة .

وهل الوحدة العربية يمكن تحقيقها قبل الوحدة الوطنية ، وان التعمد في بعثرة القوى الداخلية وتشتيت الطبقات هو تعمد غير مباشر لعرقلة قيام الوحدة العربية .

الأمة العربية هي كل العرب

٢٠ — ان عرب سورية وحدويون . هذا ما يشهد به تاريخهم وحاضرهم ، وان وصف حزب البعث لكل الفئات بانها انفصالية انما يتضمن ايحاء للاقطار العربية الاخرى ان يتريثوا في السعي الى الوحدة ما دامت اكثرية السوريين انفصالية ، وهذا سلوك عفوي لا شعوري ينطلق توجيهه من المندسين في الحزب لمقاومة الوحدة .

هذا والوحدة العربية تحوي فيما تحويه مصالح مادية ، ولكن الذي يدفع اليها قبل كل شيء هو الهوس القومي والعواطف اللاهبة المتعلقة بتقديس الامة العربية واستيعاب لكبريائها وامجادها ونبل تاريخها . وفي حزب البعث اليوم يكاد يفقد هذا الهوس ، ذلك بان الهوس الحزبي قد طغى على الهوس العربي وقد قوي الهوس الحزبي على حساب ضعف الهوس القومي ، وهنا يكمن خطر جسيم على مستقبل الوحدة ما دام الحزب العربي الذي تبنى العروبة وامجادها وعاش للامة العربية وتحقيق الوحدة العربية ، واعني به حزب البعث ، يفضل الحزب على الامة وهو الاتجاه الذي ترجم عنه كثير من كبار الحزبيين في تصريحات كثيرة والذي يطبقه الحزب عملياً في الحكم ، والتطرف الحزبي في سوريا وفي

العراق سابقاً قد ادى الى فرقة العرب داخل كل قطر وبين الاقطار العربية ايضاً ، ومن مصلحة الامة العربية ان يخفف الحزب من غلوائه في التعصب اذا كان حقاً ينوي تحقيق الوحدة . ان الامة العربية ليست العمال والفلاحين والمثقفين الطليعيين والجنود كما يقول الحزبيون . بل ان الامة العربية هي كل العرب العمال وارباب العمل والفلاحون واصحاب المزارع والمثقفون والجهال والطليعيون والمتخلفون والجنود والضباط والفقراء والاغنياء والاقطاعيون والرأسماليون وكل حي يحويه الوطن العربي وينتمي الى الأمة العربية شاعراً بشرف الانتماء اليها . وان الوحدة لا يحققها حزب ولا فئة بل يحققها الشعب كله . وبدلا من ان يكون حزب البعث مصدر جذب واستقطاب فانه أصبح سبباً للنفرة والفرقة والتمزق . ويجب ان تزول خرافة التفريق التام بين الحكام والشعب في القطر الواحد ،اذ لا بد للحكام من انصار ومؤيدين يغضبون لغضبهم ويقفون الى جانبهم ، وهذا لا يعني مهادنة الحكام المنحرفين بل يعني التلطف واستعمال اللهجة المعتدلة والمعاني المحترمة والدعوة الى العروبة بالحكمة والموعظة الحسنة .

اما السباب والعنف ومحاولات التخريب والتدمير المادي والمعنوي فانما هي مقاومة للوحدة العربية ، وهي انحراف بمفهوم الوحدة عن جادة الصواب ، وتفرد الحزب بصفة الوحدوية وانكارها على الناس جميعاً هو اعتراف بفشل الوحدة لان الاقلية لا تستطيع تحقيق امر ترفضه الاكثرية ولو كان مع الاكثرية سيف وقوة ، اذ التاريخ لا يعترف بدوام حكم السيف . وليس من خدمة الوحدة في شيء ان يكون كل السوريين ما عدا البعثيين دعاة انفصال فضلا عن ان ذلك يخالف الحقيقة والواقع .

ومهما يكن من امر فان الاسراع في خلق الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بين البلاد العربية ، واتباع نظم خاصة في بعض منها مع بقاء سائرها على النظم القديمة انما هو عداء لموضوع الوحدة العربية . ولو ان سورية اتبعت النظام الاشتراكي الماركسي او قريباً منه فكيف يمكنها ان تحاول الوحدة مع السعودية او الكويت او المغرب وسواها

من الاقطار . اليس هذا التسرع السوري في القفز نحو النظم الاشتراكية الحادة هو نوع من انواع مقاومة الوحدة .

ان الذين اسسوا حزب البعث يضعون الوحدة قبل كل شيء وهم يرتدون اي نظام كان اذا كان ذلك محققاً للوحدة العربية لأنهم يعلمون ان النظم يمكن الغاؤها واجتيازها واحداث نظم بدلا عنها ، وهو شيء في متناول اليد وفي كل وقت انما الوحدة هي الامر الصعب والاساسي وتحقيقها لم يعد ميسوراً . وكان فيما مضى يدفع البلاد الى التوحد شعورها بالحاجة الى القوة التي تحقق استقلالها ، فلما حصلت على الاستقلال فتر طلبها الى الوحدة باعتبارها قد حققت ما كانت تحققه الوحدة لها وهو الاستقلال . واذا كان التوازن الدولي مستمراً وحدود البلاد الضعيفة والقوية مضمونة فان الشعور بالحاجة الى الوحدة يتلاشى ، وبالجملة فان التيار العالمي يسير ضد الوحدة بقدر ما يسير مع الاستقلال .

ومن هنا نادينا بوجوب السير الوئيد في طريق الاشتراكية لان شقة الخلاف سوف تتسع بيننا وبين الاقطار العربية ولا يعود من السهل التوحد ان لم يصبح مستحيلا اللهم الا بقوة السيف وهذا طريق الغاه العالم اليوم . ونحن نسجل على الحزب في سلوكه الراهن التسرع نحو الاشتراكية مقاومة للوحدة ، وقد يكون ذلك عند بعض الحزبيين غفلة ولكنه ليس كذلك عند جميع الحزبيين .

الاشتراكية في دستور الحزب

٢١ ـ الاشتراكية : ان الاشتراكية التي ورد ذكرها في دستور حزب البعث ليست الاشتراكية العلمية او الماركسية لان هذه الاشتراكية انما هي الشيوعية . ودستور الحزب واضح بانه لا يقبل الشيوعية وكل معنى وكل لفظ يقطر دلالة على هذا . وقد استعمل الحزب في دستوره كلمة الاشتراكية تجوزاً والقصد منها نمط من انماط العدالة الاجتماعية وتأمين العيش الكريم لجميع طبقات الشعب .

آ ـ الملاحظ ان دستور الحزب قد جنح الى الاشتراكية كما قصدها

هو لا كما هو ظاهر اللفظ ، ولكن على مراحل فقد اعتبر الحزب ان الوعاء الذي استوعب الاشتراكية انما هو الوطن العربي كله وليس قطراً من اقطار العروبة بمفرده ، ولذلك جاء الحديث عن النظام – في الدولة العربية – لا في الدولة السورية او العراقية او المصرية . كما ان الحزب لم يشترط لتحقيق الاشتراكية زمناً معيناً بل ترك الامر الى الظروف الملائمة . والشرط الوحيد هو ان يسير الحزب في الخط الاشتراكي ، اما ما نص عليه دستور الحزب من تأمين وتملك للمرافق الكبرى وما شابه ذلك فانه مرهون بانسجامه مع شعارات الحزب الاخرى ، ولو وقع تعارض بين تحقيق تلك المواد وبين الوحدة العربية لوافق الحزب على الوحدة مع ارجاء تطبيق تلك المواد .

ب – وبديهي ان المواد الاشتراكية القطعية المنصوص عليها في دستور البعث هي غاية الغايات ونهاية المطاف وبعد ان تتحقق دولة العرب الكبرى التامة . وليس المقصود من تلك المادة ان تطبق اليوم في قطر واحد وبلا تهيئة نفسية ومادية لان هذا يعد من المستحيل ما دام المحيط العربي كله لم يتقبل هذا الاتجاه ،ولا بد اذن من قيام الصراع الرهيب الذي قد يودي بالفكرة من اساسها . وشبان الحزب المحدثون يظنون ان هذه المواد قد وضعت لتطبق فوراً وهو ما لم يرد في خاطر واضعي الدستور .

ج – والحزب كان يقصد ان يبدأ برفع مستوى الطبقات الفقيرة ويؤمن لها غذاءها وكساءها وطبها ومدارسها وكرامتها بشكل من الاشكال . ويضمن للفلاح ملكاً يعمل فيه من ارض الدولة حتى اذا لم تف تلك الارض بالحاجة عمد الى الملكيات الفردية وهشمها بحيث يكمل ما نقصه من حاجة الفلاحين غير المالكين . ثم يعمد الحزب بعد ذلك الى الطبقات الغنية فيحد من استغلالها وسيطرتها وملكيتها فيخفضها ، بينما تكون الطبقات الدنيا ارتفعت بعض الشيء فيحصل التقارب وتضيق الفجوة بين الطبقات ويزول التحاسد والبغضاء والكراهية ان كان هناك كراهية . ثم يسير الامر بتدرج الى ان يتحقق دستور الحزب كاملاً

في ظروفه الملائمة .

د – اما البدء بتنفيذ القوانين الحادة واعلان العداء لطبقات معينة فان فيه تفكيكاً للوحدة الوطنية التي هي اساس الوحدة القومية . والدولة بهذا تنقل هؤلاء الذين يشعرون بالغبن الى صفوف اعداء الوطن بملء ارادتها بل وبتقصد منها . وفي هذا التصرف علامة من علامات الحقد والتشفي . وفرق كبير بين وقع الاصلاح على الشعب وبين وقع الانتقام .

وكان يمكن تحقيق برنامج اشتراكي بلا رجة نفسية ولا اثارة اي نوع من انواع القلق لو كان القائمون على الحكم بمستوى المهمة الملقاة على عواتقهم .

ه – وبعد ، فان الاشتراكية العربية هي عصارة الصفات العربية ، فهي سخاء وفداء وايثار وشهامة ومروءة واريحية بمعنى انها خلق قبل ان تكون قانوناً ينفذ بقوة الدولة . هكذا يجب ان تقذف الاشتراكية العربية الى الميدان الشعبي . وهذه الصفات كانت مفخرة العرب في ما مضى وفي ما حضر . فالشاعر العربي عندما هجا امرأ قال له انه يبيت شبعان وجاراته غرثى يبتن خمائصاً . وما وجد الشاعر اقذع من هذا الهجاء .

وفي الحكومات القومية الحديثة عندما كانت النخوة تثور في النفوس وتحتاج الجزائر او فلسطين او جيش من جيوش العرب الى الاعانة كان الشعب كله بما في ذلك الذين تسمونهم الرأسماليين والاقطاعيين يهب الى التبرع بما هو فوق طاقته المادية . فشعبنا شعب نبيل وفيه كل القابلية لان يحقق الاشتراكية بلا قسر ولا اكراه . والشعب بفطرته يعرف ان امة يجوع بعض ابنائها بينما يتخم بعضها ليست امة شريفة تستحق الاحترام . ولو جنح الحكم الى مثل هذه التهيئة النفسية لحصل على ثمرات صالحات من الاسس الاشتراكية التي يمكن نموها والوصول بها الى الحد الذي يحقق الغاية من الاشتراكية المقدرة بقدر حاجة الامة العربية .

و – ويجب ان يكون معلوماً ان المقاومة التي يلقاها تصرف الحكومة

اليوم في الناحية الاشتراكية لم تكن مقاومة للعدالة الاجتماعية وانما هي تخوف وتحسب من ان تكون تلك القوانين جارة الحكم الى الاشتراكية الماركسية ، لا سيما بعد ان صدرت تصريحات من عدد كبير من الحزبيين تتبنى النظرية الماركسية . وانني بحكم اتصالي بطبقات الشعب المختلفة استطيع الجزم بان العدالة الاجتماعية قد قبل بها اكثرية الناس الساحقة ، وليس هناك خلاف بين الشعب والحكومة حولها الا في ما يتعلق بالشدة او الدرجة التي تطبق بها ، ثم قد يكون بعض الخلاف في تعيين المرحلة التي يمكن تطبيق المبادىء خلالها . واذا كانت التهيئة النفسية قد حصلت فان التطرف في التطبيق مبعثه اندساس فئة من الشيوعيين في حزب البعث ، وهي لا تفتأ تدفع الحزب الى التطرف حتى لا يحصل انسجام وتوحد بين طبقات المجتمع . يضاف الى ذلك ان الحزب اليوم لم يعد يمسك بيديه من الشعارات الا شعار الاشتراكية وهو الذي يميزه عن سواه . فاذا هادن في هذا الشعار لم يعد بينه وبين غيره فارق مما قد يلغي وجوده ، اذ ان الوحدة العربية قد تجمدت ودخلت الفلسفة والاجتهادات القومية في تبرير استبعادها . واما الحرية فان العهد الذي تولى فيه حزب البعث الحكم هو عهد طوارىء ومنع تجول واحكام عرفية وما الى ذلك مما لا يتميز عن اي عهد دكتاتوري مضى .

ز — لقد سرى بين الطبقات المختلفة المفهوم الاشتراكي — بالحد الذي قدرناه — واصبح الشعب يعتبر كرامة المواطنين جميعاً واجباً عليه ، وان كرامة الشعب لاخبزه هي التي تحتم تحقيق العدالة الاجتماعية .

وبعد ، فان الاشتراكية توضع للشعب على قدر ما يحتاج اليه ولا عكس . اي انه لا يمكن وضع الاشتراكية اولاً ثم خلق الشعب على مقتضاها . وفي دول العالم الكبرى والصغرى دول غير اشتراكية ومع ذلك فهي تحتفظ بقوتها وكرامتها ورفه شعبها ، فعلام الوسواس اذن . ولولا قرون مضت من الجور والتسلط واختلال الامور مما ادى الى اختلال توزيع الثروة في بلادنا لكان بحث الاشتراكية آخر ما يمر بخواطرنا عندما

نحاول اصلاح مجتمعنا ورفع شأن امتنا ، وعلينا ان نكون عاقلين فنقدر الامور بقدرها .

نظام الحكم في دستور الحزب

٢٢ – أ – نظام الحكم في الدولة العربية هو نظام نيابي دستوري– المادة ١٤ – من دستور الحزب .

السلطة التنفيذية مسؤولة امام السلطة التشريعية التي ينتخبها الشعب مباشرة – الفقرة الاخيرة من المادة ١٤ – من الدستور .

حزب البعث العربي شعبي يؤمن بان السيادة هي ملك الشعب وانه وحده مصدر كل سلطة وقيادة – المادة ٥ – من الدستور .

ونحن نريد ان نطبق هذه المواد على الوضع الراهن في سوريا . مع العلم ان واضعي الدستور لم يرجئوا تطبيق هذه المواد حتى تتحقق الدولة العربية ولا قبلوا المرحلة بالنسبة الى هذه المعاني .

فالسلطة التشريعية مفقودة ولا سلطة منتخبة ولا غير منتخبة . والذي يتولى التشريع المجلس الوطني ، وهو ، الضباط الذين قاموا بانقلاب الثامن من آذار مع بعض مؤيديهم من المدنيين . او يصح القول ان المجلس الوطني هو بقايا الضباط الذين قاموا بانقلاب الثامن من آذار ، اما اكثرية هؤلاء فبين مسرح ، وسجين . والشعب لم يعد مصدر السلطات وانما اكبر كتلة متضامنة في الجيش هي مصدر السلطات . والنظام النيابي الدستوري معطل . والشعب قد ابعد وحكمت السلطات العسكرية بقوة السلاح ، فاين ذهب الحزب في تعطيل مواد الدستور .

ب– فالحرية هي حرية التصرف اولاً وحرية الخلق وسيطرة الانسان على غرائزه وميوله وهواه وثورته على العادات الضارة . والحزب لم يضع مخططاً لتربية النشء على هذه المناعة والمقاومة لسلطان الاهواء لينشأ جيل حر اي جيل بطل .

ج – والحرية بعد ذلك هي الحرية السياسية والمعبر عنها بالحياة الديمقراطية ، ومع ان الديمقراطية كثيرة المساوىء متعددة المحاذير والعلل

فانها تبقى دائماً وابداً النظام الامثل . ومع اننا لقينا من مصاعبها الكثير باعتبارنا قد نزلنا الى معترك الانتخابات مراراً ، فاننا متمسكون بها حريصون عليها لانها القول الفصل في ما ينشب بين المواطنين من خلاف واجتهادات متباينة . وكم من مرة صرع المال والتزييف ارادة الشعب واستخدم الحاكمون ضدنا قوى الدولة ،ومع كل ذلك فان النظام الديمقراطي افضل من حكم الفرد وسيطرة العدد المحدود .

د ـ اثناء المحادثات التي انبثق عنها ميثاق ١٧ نيسان ١٩٦٣ ، والتي جرت في القاهرة بين الاقطار الثلاثة العربية سورية والعراق ومصر ، قال مسؤول في حزب البعث من سورية ان مفهوم الحرية عند الحزب قد طرأ عليه تعديل . وخلاصة التعديل ان الحرية يجب ان تتوفر للحزبيين دون سواهم . ومن الناحية التطبيقية سار الحزب في سورية قريباً من هذا المنطلق . وهذا الاتجاه خطير يدل على رجعة للمفهوم الديمقراطي ، بل على نكسة للايمان بالحرية والنظام الديمقراطي الذي تبناه حزب البعث في مختلف ايامه الاولى . ودستور البعث تقفز من بين سطوره معاني الحرية والديمقراطية ، فكيف انقلب هذا المفهوم وكيف قبل الحزب ان يحكم حكماً عسكرياً فردياً دكتاتورياً .

انا اعلم ان الحزب سيقول بان هذه حال استثنائية ولن يطـول امرها . وقد يكون هذا القول صحيحاً . كما قد يقول الحزب بـان العناصر المعادية لم تفسح لنا المجال للعودة الى الحياة الديمقراطية وان الدسائس والمؤامرات وما اليها متلاحقة . وهذا القول قد يكون صحيحاً ايضاً ،ولكن هذه الذرائع يستطيع ان يتذرع بها كل من يصل الى الحكم ، فاذا قبلت من فئة فيجب قبولها من كل الفئات . ونحن قد اشعنا في الحزب والقينا بتعاليمنا الى الشبيبة بان الحرية هي الاصل وان الديمقراطية هي الحكم المفضل ، وكنا نقول اننا نفضل السقوط في الانتخابات الحرة على النجاح المزيف او المستند الى القوة ، ودستور الحزب مشبع بهذه المعاني فما الذي حول الحزبيين اليوم عن تطبيق هذه المبادىء .

اقتراحات لتصحيح الوضع

ان هناك ابتعاداً عن تطبيق روح دستور الحزب ، ولتصحيح الوضع اقترح ما يلي :

أ ـ العفو العام عن كل السياسيين والمحكومين منهم والملاحقين واعطاء الفرصة لكل مواطن كي يبني . فما العجلاني والاتاسي والعمري خونة ولكن التيار الشيوعي ونفوذه الدافق في سوريا يومئذ قد سحقهم على اعتبار انهم من اليمينيين . وماذا فعل مأمون الكزبري . لقد تولى الحكم بعد الوحدة ولكنه لم يضع الانقلاب . وانتم اليوم تحكمون بعد الوحدة ، فانتم واياه في هذا الباب سواسية مع فارق واحد هو انه حكم في ظرف كان انصار الوحدة اقل من انصارها اليوم .

وجماعة تموز هل هم خونة حقاً . اني لا اجد هذا الوصف صحيحاً وهو اتهام بغير حق . انهم لو انتصروا لفعلوا بكم مثلما فعلتم بهم ولاتهموكم بالخيانة بغير حق ايضاً . ويجب ان تكون حواصلنا متسعة وعقولنا مرنة ، فالسياسة لا تقبل الافكار الثابتة والعقد النفسية بل أن كل شيء في السياسة قابل للبحث .

ب ـ انسحاب الجيش من السياسة : لان المهمة الموكلة الى الجيش في حماية الوطن هي اسمى واشرف من كل مهمة ، ولا ادري من اين تسرب الى بعض افراد الجيش الوهم الزاعم ان العمل السياسي هو اسمى من النضال والكفاح وصد الاعداء على حدود الوطن .

ج ـ تأليف حكومة حيادية تضم وزراء يمثلون الاتجاهات المختلفة ، وتجري هذه الوزارة انتخابات حرة في مدة اقصاها نهاية عام ١٩٦٤ ، ووزير كل اتجاه في الحكومة هو الذي يضمن حرية الانتخاب بالنسبة الى اتجاهه بينما كثرة الوزراء المحايدين يضمنون حرية الانتخاب بالنسبة الى سائر فئات الشعب .

د ـ ان بلدنا اليوم ـ الجمهورية العربية السورية ـ ولكن اذا شاء الشعب بواسطة ممثليه الشرعيين ان يجعلها غير ذلك فما علينا الا الانصياع

لارادة الشعب ، بمعنى ان الشعب لو اراد ارجاع الوحدة السابقة مع مصر فذلك من امانينا القومية . ولكنا لن نضطرب ولن ننهار لو ابقى سورية على حالها الراهن ، فالبلاد العربية تعاني الانفصال والتجزئة منذ قرون طويلة ولن تتدمر لو استمر الانفصال سنوات اخرى او عقوداً من السنوات .

هـ ـ اعادة النظر في التعيينات التي صدرت بعد الثامن من آذار عام ١٩٦٤ وتثبيت من يستحق التثبيت من الموظفين وتسريح العجزة منهم الى ان تأتي الحكومة المنبثقة عن مجلس النواب التي لها مطلق الصلاحية بان تتوسع في ما ترى واجباً التوسع فيه .

و ـ وتجميد القوانين التي صدرت عن غير مصادرها المشروعة، واعني بالمصادر المشروعة مجالس النواب المنتخبة بحرية ، وبعدما يجتمع مجلس النواب يناقش القوانين ويقر ما يرى منه نفعاً للمجموع ويعدل أو يلغي ما سواه . وليس لهذه الحكومة الانتقالية صلاحية المساس بالقوانين الاساسية كقانون الانتخابات وما يشبهه من القوانين التي تمس الشعب في صميمه .

الخاتمة

انني ابعث بهذه المذكرة واطلب قبل كل شيء دراستها وتمحيصها، ولا ينبغي ان تصطدم برأي ثابت أو عقدة عند بعض المسؤولين ، فالوطن لكل ابنائه وليس في السياسة امر قطعي بل ان كل الامور قابلة للدرس والتعديل . ولقد سكت هذه المدة الطويلة على امل تصحيح الوضع والعودة الى مقاصد الحزب والى مصلحة الشعب والى تلبية حاجة الامة العربية بشكل تلقائي ولكني لم اجد الامور قد تحسنت .

وان واجبي يملي علي ابداء هذه الملاحظات . واني مستعد للمناقشة فيها على صفحات الصحف وعلى الصعيد الشخصي اذا كان القصد من النقاش محاولة التصحيح ، اما اذا كان الجدل للتعجيز وللانتصار علي بقوة الحكم فليس لذلك جدوى . لقد كان قادة الحزب ممتلئين بالشعور

الانساني والقومي وكانوا لا يشعرون حتّى بلذة النصر على المواطنين لانهم يشاركون الخصم بمرارة الخذلان ، وانا اريد ان تبقى هذه الخصائص عالقة في نفوس المواطنين كافة لاسيما الحزبيين منهم لاني بوجه من الوجوه مسؤول عنهم . فكبارهم اصدقائي وصغارهم تلاميذي والكل مواطنون اعزة علي .

وتقبلوا فائق الاحترام

جلال السيد

المذكرة الثانيـــة

من جلال السيد الى الرئيس حافظ الاسد

قال العرب : ان كلمة حق في حضرة سلطان جائر افضل من جهاد سبعين سنة . كما قالت : يعجبني من الرجل اذا سيم خطة الخسف ان يقول لا ، بملء فيه .

وليس هذان القولان مبتدعين ولا محدثين انما هما تعبير عن الخلق العربي الاصيل ، تضاف الى ذلك نزعة الى التوجيه نحو هذا الخلق .

ونحن قد قلنا كلمة الحق من قبل ، يوم كان في البلاد سلطان جائر ، فكيف لا نقولها اليوم والتأكيدات تتوالى من الحكام بتحقيق الحريـــة والكرامة للمواطن وفسح المجال له كي يعبر عن احاسيسه ومشاعره وعما يختلج في ضميره . واذا كان في اقوالنا من قبل بعض المخاطرة ، فان قناعتنا انه ليس فيها اليوم مثـــل تلك المغامرة . وبروح المواطنة والصميمية والنصح الاخوي وللتنفيس عن رغبات الشعب والافصاح عن مراميه ، فاننا قد قررنا ان نعرض عليكم ما يأتي .

ونحن لن نكلفكم شططاً ولن نطلب اليكم امراً لا تستطيعون تحقيقه ، انما سنقتصر في مطالبنا على ما هو داخل ضمن امكاناتكم واختصاصاتكم.

فنحن لن نطلب اليكم تحقيق الوحدة العربية ، لان ذلك خارج عن امكاناتكم وحدكم ، فهناك اطراف اخرى يتوجب عليها الاشتراك والمساهمة لتحقيق هذا الهدف . كما اننا لن نطلب اليكم الغاء الوجود الاسرائيلي الدولي ، لان ذلك ليس في مستطاعكم اليوم ، والامر يحتاج الى تضامن العرب كلهم ، وبذل الجهود العظمى .

ولسنا نطلب منكم تفجير عيون النفط من الارض ، ولا ارسال المطر مدراراً من السماء ، لتحسين اقتصاد البلاد لان هذه امور من خصائص الاله .

وكل ما نطلب منكم تحقيقه هو ما يأتي :

ان حركتكم في تشرين الثاني ١٩٧٠ ، التي قضيتم بها على عهد كان قائماً في سوريا ، كانت بدوافع شرحتموها في بياناتكم . وقد تعهدتم صراحة وضمناً بتبديل الشكل الذي كان العهد يقوم عليه . ونعيتم على ذلك العهد اموراً ، فكان من البديهي الا تستمر تلك الامور ، والا فقدت الحركة اسبابها .

١ – لقد اخذتم على العهد السابق عزلته العربية . ولا شك في انكم قمتم ببعض التحركات الدالة على محاولة الانطلاق من هذه العزلة . فالمناخ بين لبنان وسوريا طرأ عليه بعض التحسن . كما ان العلاقات بين سوريا وكل من الاردن والسعودية مالت قليلاً نحو التحسن ، لكنها بقيت في اطار من الشكوك والحذر . والمواطن السوري لا يقف في تطلعه القومي عند هذه الحدود من العلاقات العربية ، بل انه يرغب في المزيد منها .

كما ان العلاقات السورية – العراقية لم يطرأ عليها تبديل يذكر ، مع ان المفروض ان تكون العلاقات بين هذين البلدين على احسن شكل . فالتشابك الاجتماعي والصلات البشرية والمصالح الاقتصادية تدفع الى تحسين العلاقات . يضاف الى هذا ويؤكده ان القطرين يحكمهما نظام حزبي واحد . واذا كان هناك اختلاف في الاجتهاد والتفريع بين جناحي الحزب ، فانه لا ينبغي ان يكون بينهما خلاف على الامور الاساسية والقضايا القومية . والشعب في سوريا لا يعرف تماماً السر في دوام هذه الجفوة ولا التفسير لمثل هذه القطيعة . والقطران متكاملان جغرافياً وتاريخياً وقومياً ومصيراً .

اما العلاقات بين سوريا والاقطار العربية الاخرى في المشرق والمغرب ، فانها تكاد تكون مجمدة ، اي ان ما كان على العهد الماضي استمر في عهدكم الجديد .

٢ ـ وأخذتم على العهد الماضي عزلته الداخلية . فهل قمتم بتبديل هذه العزلة واجريتم عملية انفتاح على المواطنين جميعاً ، كما نصت على ذلك بياناتكم وتصريحاتكم ؟ الواقع ان العزلة الداخلية مستمرة . اما ما يذاع في المناسبات المختلفة عن تأليف جبهة وطنية فانه نوع من التخدير او هو نوع من التظاهر بالاستجابة لرغبات المواطنين. ذلك أن الجبهة كثيراً ما توصف بانها تقدمية . وان كلمة « تقدمية » اصبحت اصطلاحاً خاصاً وتعبيراً عن فئات معينة . وليس القصد منها التقدمية اللغوية الحقيقية . فالاصطلاح يخرج الاكثرية الساحقة من المواطنين عن نطاق هذه الجبهة . وهل هناك منصف او مواطن سليم الاحساس والمنطق يرضى ان تكون اكثرية الشعب السوري العربي غير تقدمية ، وان التقدمية لا تنطبق الا على عناصر معينة هي التي اسبغت على نفسها صفة التقدمية واسبغت على سائر المواطنين كلمة « الرجعية » . وهل هناك في سوريا اناس غير تقدميين سدوا آذانهم واغمضوا عيونهم وكبلوا عقولهم حتى لا يروا تيارات النهضة والتقدم في العالم وليبقوا هم في معزل عنها وخارجين عن نطاقها . والواقع ايضاً أن الشعب السوري كله تقدمي بالمعنى الصحيح وان اتهام الاكثرية منه بالرجعية جريمة وطنية واعتداء صارخ على المواطنين . وان المصلحة الوطنية والقومية تفرض علينا ان يكون الانفتاح شاملاً يعم كل الفئات والطبقات ، فالظرف الدقيق الذي تمر به الامة العربية لا يسمح بالوقوف طويلاً عند الخلافات الجزئية والفرعية او النظريات المجردة . وما دامت هنالك خطوط عريضة يلتقي فيها المواطنون ، فانه يجب ارجاء البحث في التفصيلات الى ان تزول المحن ، ويسترد الشعب العربي حقوقه وكرامته .

والدليل على ان الانفتاح الذي قمتم به كان ضيقاً ومحصوراً في بيئات صغيرة، تلك الحكومات التي الفتموها بعد حركتكم ، كذلك مجلس الشعب الذي عينتموه تعييناً . واذا كانت فلسفتنا الدائمة هي اعتبار النبل والتسامي والسلامة هي الاصل في تركيب امتنا العربية ، وان ما نراه من انحرافات واخطاء لم تكن الا ركاماً سطحياً وغباراً طارئاً يمكن

ازالته بشيء من الصقل والحك لاعادة النفس العربية الى اصالتها ، اذا كانت فلسفتنا هذه تحول دون الطعن في مجلس الشعب او في اعضاء الحكومات ، فان هذه الفلسفة لا تمنعنا من القول ان هذه الحكومات ومجلس الشعب مؤلفة من عناصر معينة ، ولم تكن ممثلة لجميع طبقات الشعب وعناصره المختلفة . واذا كنـــا نحترم اعضاء مجلس الشعب والحكومات بصفتهم مواطنين اعزاء علينا ، فانه لا يسعنا ونحن نسجل حقائق التاريخ القومي والاخلاقي ان نعتبرهم ممثلين حقيقيين للشعب . ومن هنا ان الشعب الذي رحب بحركتكم قد اخذ يعيد النظر في هذا الترحيب ، او قل انه اخذ يشك في فائدة الحركة ، ما دامت لم تحقق له أبسط ما كان يرجوه ، وهو الانفتاح . والشعب يفهم بفطرته وعقله ان حكم الشعب الذي اشرتم اليه ، انما يعني الحكم الديموقراطي . وهذا يستلزم ان يكون ممثلو الشعب من صنع الشعب لا من صنع الحكام . ولا أكتمكم ان الشعب قد اصيب بخيبة امل مريرة بعد تأليف الحكومتين في عهدكم وبعد تعيين مجلس الشعب .

٣ ــ وكان وعدكم باطلاق الحريات اكبر ما حمل الشعب على الاندفاع في سبيل تأييد حركتكم . فهل تحقق وعدكم هذا ؟

أ ــ هنالك سجناء بسبب افكارهم السياسية ، وهم بين محكوم من قبل محكمة هي أقرب الى المحاكم السياسية ، وبين محتجز بلا محاكمة . وهؤلاء السجناء لم يخل سبيلهم حتى اليوم . ومن بين هؤلاء او من كثرة هؤلاء شبان ينتمون الى احد أجنحة حزب البعث العربي . ومن العقوق للحزب ان يبقى هؤلاء في السجن ، ومن العقوق للعدالة ان يبقى سواهم في السجن .

ب ــ وهنالك مبعدون عن وطنهم ، وهم يعيشون تحت كـــل كوكب في بلاد العرب ، وفي سواها من اقطار العالم . ولم يسمح لهؤلاء المبعدين بالعودة الى وطنهم . ومن عاد منهم ، فانه ابقي في السجن ولم يزل اسيره . واظن ان كل هذه الوقائع تثبت بلا جدل ان الوعد بحرية المواطن لم يتحقق . وهؤلاء المبعدون يؤلفون نسبة كبيرة من السوريين ،

ولا سيما في ميادين العلم والمال . فالطبقة المثقفة واساتذة الجامعات وكبار الساسة ، أكثرهم غادر الوطن السوري وحتى اليوم لم يسمح له بالعودة .

٤ – ولقد وعدتم في بياناتكم بوضوح ، ما بعده وضوح ، بانكم ستحترمون كرامة المواطن . وكرامة المواطن هي الحلقة الثانية في سلم التسلسل ، اذ يجب ان يسبقها عيش المواطن . وكيف يستطيع الجياع والمعوزون ان يحتفظوا بكرامتهم الا من عصم الله ، وكان في عداد القديسين ، وهم قلة في كل زمان ومكان .

وهناك عدد كبير من المواطنين صودرت ممتلكاتهم واستولت الدولة على اسباب رزقهم ومعيشتهم . وكان الامل معقوداً على حركتكم بانها ستفرج فوراً عن هذه الاموال المصادرة ، لانقاذ أصحابها من الفقر والذل ومن الشعور بانهم أصبحوا منبوذين لا يحتويهم الوطن ولا يحنو عليهم مواطن ، ممن في يده أزمة الحكم . وحتى هذه الساعة لم تجنحوا الى الغاء هذه المصادرات ، وهي من النقاط التي سجلتموها على العهد السابق باعتبارها نوعاً من التسلط والفردية ، التي ورد ذكرها بارزاً في البيانات . وكيف يسمح الوطني لنفسه ، بل كيف يسمح انسان يحترم نفسه ويحترم الانسان ، بأن يلقي في خضم العوز مواطنين له او زملاء في الانسانية على الاقل . وهلا يخطر على بال الحاكم ان الفاقة والجوع والعوز قد تجور بالانسان على دروب الانفة وعزة النفس ، وتوصله الى ممارسة أمور ليست في مصلحة الكرامة والانفة ، مما لا يرضاه لولا الجوع . وهلا نكون نحن بهذا الاسلوب قد حملنا المواطن على انتهاج المسالك البعيدة عن الانفة والاباء ؟

٥ – ولقد وعدتم بالعدالة . فهل تعلمون ان قانون الاصلاح الزراعي في بعض المناطق السورية ، من حيث هو تطبيق لا من حيث هو تشريع ، دمر بيوتاً كريمة ، وحطم عناصر قومية عربية ، كانت لها في ماضيها القريب والبعيد مواقف في الدفاع عن الوطن والعروبة قل نظيرها في تاريخ هذا الوطن ؟ وهل تعرفون لجنة الاعتماد وما صنعته لجنة الاعتماد في المناطق الشرقية والشرقية الشمالية من الوطن السوري ؟ وهل بلغكم

ان العروبة فيها قد تقلص ظلها ، وانحسر وجودها ، وخبا تألقها ، وتجمد نشاطها امام التيارات الشعوبية ، بسبب ما صنعته لجنة الاعتماد ، التي حرمت العرب من أسباب رزقهم ، فسلبتهم أرضهم وقلّمت أظفارهم ، وجعلتهم هياكل بلا أرواح وأشباحاً بلا حياة ؟

ان الواجب القومي والمصلحة الوطنية والمشاعر الانسانية ، كل هذه تفرض على السلطات الواعية والمقدرة لمسؤولياتها التاريخية ان تطرح في تلك المناطق شعار القومية قبل شعار الاشتراكية . ولا بد لمن يوطن نفسه على القيادة والتصدر لمعالجة شؤون الشعب ان يقدر الامور قدرها ويضع العلاج النافع لكل داء . وان تعميم العلاج على كل الامراض هو الفشل في عملية التداوي . فما يصلح في دمشق قد لا يصلح للجزيرة مثلاً . والحصيف من يرى ذلك . وليس في دمشق صراع عرقي ولا تيارات شعوبية ، كما هي الحال في الجزيرة ، فيجب اتخاذ العلاج الخاص بكل منهما . مع العلم ان اعتبار القومية اولاً لا يمنع الاشتراكية ثانياً . والخلاف هو حول معنى واحد ، الا وهو ان تكون الاشتراكية في سبيل القومية لا العكس . ونحن في بدء تشكلنا القومي قد نضحي بالاشتراكية ، او نرجىء تطبيقها الى وقت آت . ولكن لا تصح التضحية بالقومية ولا بشكل من الاشكال من أجل تحقيق الاشتراكية . فالاشتراكية ملكنا يوم يتكامل وجودنا القومي ، اما القومية فليست ملكنا في حال تحقيق الاشتراكية . وفي الجزيرة والمناطق الشرقية عامة مأساة قومية ، فاذا لم يتداركها عقلاء القوم ، فان النتيجة سوف تكون نكبة قومية تضاف الى النكبات القومية التي منيت بها الامة العربية في تاريخها الحديث .

وان حسن تطبيق قانون الاصلاح الزراعي في تلك المناطق ، وان روح الانصاف التي ترشح من نفوس الحكام ، كفيلة بتدارك الكارثة القومية التي يلوح شبحها في أفق الوطن . والذي يبدو من سلوك الدولة الظاهر انها غير مقدرة لهذه الحقائق التي نتحدث عنها ، اذ ان صفة عدم الاكتراث هي السائدة ، وان الاستهتار هو الذي يضرب اطنابه في هذه القضية . ونحن لا نميل الى التضخيم والتهويل ، بل نحن سقنا

هذه المسألة بمنتهى البساطة ، بل بالاشارة فقط ، لاننا لا نريد التشويش وخلق الاضطراب .

٦ — وورد في بياناتكم كلمات الانفراج ، او ما يعني الانفراج . وان عدداً من المواطنين كبيراً يرزح تحت كابوس ديون متراكمة للمصارف المؤممة ، وهؤلاء المواطنون هم من العناصر النشيطة في الانتاج الزراعي خاصة . وقد أصبحوا مشلولين بسبب هذه الديون . ومن الناحية النفسية هبطت معنوياتهم وغمرتهم أمواج التشاؤم واليأس . ومن الناحية المادية ، حرموا من العمل الزراعي ، لان المصارف لم تعد تمولهم بسبب ديونهم المتراكمة ، كما تنص على ذلك القوانين التقليدية السطحية المطبقة في الوطن . وان اللجوء الى معالجة هذه القضية والافراج النفسي والعملي عن هؤلاء المدينين ، سوف يكون كفيلاً باطلاق الانتاج من عقاله ، وسوف يعود هؤلاء المواطنون الى ممارسة جهودهم ونشاطهم المتصاعد مما يعود عليهم خاصة ، وعلى الوطن كله ، بالنفع الكبير .

وليس من المهم ان نعود بالتساؤل عن أسباب تراكم هذه الديون ، فنحن لسنا في صدد تحديد المسؤولية او معرفة المسؤولين ، انما نحن في صدد معالجة داء عضال . ولسنا نريد القول ان التأميم هو الذي جمد هذه الديون ، ولو بقيت المصارف للشركات لكان للمدينين معها موقف يعالج مرضهم هذا ، بالاضافة الى رداءة المواسم ومحاربة الطبيعة وتراكم الفوائد من عهد الوحدة بين الجمهورية المتحدة والقطر السوري . وليس من المستحيل ايجاد الحلول لهذه القضايا .

٧ — جمود الوضع . كانت بياناتكم تبشر بتبديل عميق في الوضع السالف . ولكن الذي حدث هو استمرارية ذلك الوضع ، ويمكن سوق بعض الشواهد على ذلك :

أ — ان موجة الغلاء في البلد ازدادت عنفاً بدلاً من ضعفها . واذا كانت هناك ظروف قاهرة للغلاء فان الحكومات ذات الكفاية والمقدرة والجدية تستطيع بما تملك من تحرك رشيق ورأي حصيف ان تتغلب على أكثر أسباب الغلاء . وان فقدان المواد التموينية قد ينسب الى رداءة

موسم الاغنام وضآلة منتجاتها في بعض المناحي ، لكن الحذق وحسن العلاقة مع الدول الاجنبية والعربية يسهلان استيراد ما يحتاج اليه البلد . وانكم تعلمون ان العالم كله يكاد يصبح اليوم بلداً واحداً من حيث التكامل والتساند والتعاضد ، ولا سيما في مرافق الحياة العامة .

ب ـ التحيز الحزبي . ان كل المواطنين في نظر الحزبيين هم مواطنون من الدرجة الثانية ، هذا في أحسن الاحوال . على ان جماهير كثيرة من الشعب في نظر هؤلاء الحزبيين هم عملاء ومتآمرون ورجعيون ، ولا شأن لهم في الوطن ولا مكان . وهذه النظرة هي نظرة العهد السابق بكل أبعادها . وهذا يعني ان التصافي والاخاء والتواثق هي أمور لم يمكن تحقيق شيء منها في عهدكم ، مما أوحى الى المواطنين بانه لم يحدث التبديل المرتجى .

ج ـ ولا تزال النغمة القديمة مستمرة ، من حيث اعتبار بعض الدول العربية تقدمية ، واعتبار بعضها الآخر رجعية ، وان التعاون السوري لا يمكن ان يتم الا مع الدول التقدمية . ويبرز هذا المعنى أجهزة الاعلام من اذاعة وصحف وتلفزيون . والشعب لا يدري ان كان هنالك لدى الحكام رأي آخر يختلف عن هذا الذي تبرزه اجهزة الاعلام .

د ـ وبقايا العهد السابق لا تزال تتحكم في جهاز الدولة . والتلاعب لم ينقطع في الاموال . والاستغلال والانتهاز مستمران .

صحيح ان عهدكم قد قام ببعض التدابير الصارمة ، فأحال عدداً من المتلاعبين بأموال الدولة والجمعيات التعاونية على القضاء ، وعزل عدداً من المسؤولين ، لكن ذلك كان على نطاق ضيق ، بالقياس الى ما يجب عمله .

وعلى العموم ، ان التبديل الذي حدث كان سطحياً ومحدوداً . فالعقلية لم يطرأ عليها تبديل ، والعنجهية الحزبية بقيت كما كانت ، والشفاعات والمحسوبيات لم تنقطع .

٨ ـ قانون الادارة المحلية . ان هذا المشروع قديم ، ولم يخرج الى حيّز الوجود الا في عهدكم هذا . ومن المهم ان الفت نظركم الى ان

هذا القانون ليس في مصلحة الوطن . ويمكن القول انه سابق لاوانه . واذا لم يكن تماسك وتلاحم وتراص في الوطن ، فان مثل هذا القانون يصبح مضراً الى أبعد حدود الضرر . وانتم تعلمون ان التراص والتماسك والتلاحم ليست على درجة ترضي ضمائر الوطنيين الاحرار . والقانون سيؤدي الى زيادة في التفكك والتمزق والتشرذم . ولا اكتمكم ان الشعب لا يصدق ان هذا القانون هو من عمل مجلس الشعب ، او انه سينشر بموافقة مجلس الشعب . والرأي العام قانع بأن مثل هذه الاجراءات ليس لها الا مصدر واحد هو شخصكم . ولو أجريتم استفتاء حراً ، لعلمتم ان الرأي العام غير مرتاح الى هذا القانون باستثناء نفر يسير في ركابكم وركاب كل من يتولى السلطة . وهذا النفر لا يعتد برأيه ، ولا يصلح ان يكون مقياساً . ولست اريد ان ادخل في معالجات مطولة ، انما أكتفي بالتلخيص الذي رأيتموه (١) .

ولقد عدت الى التحليل النفسي لارى ما هو الحافز الذي دفعني الى كتابة هذه المذكرة اليكم ، فعلمت ان الحافز هو بقايا أمل في نفسي بأنه يمكن اجراء الاصلاح الذي يحقق للمواطن كرامته وحريته . ولو كان هذا الامل منقطعاً ما قامت هذه المحاولة . فعسى ان تتخذوا كل الاجراءات التي تحيي الأمل في النفوس ، وذلك باصدار العفو العام عن السجناء السياسيين وعن المبعدين ، وان تلغوا المصادرات الجارية في حق كل المواطنين ، وباجراء تسوية للديون ، وتطبيق وطني انساني سليم لقانون الاصلاح الزراعي ، ثم الالحاح على المناحي القومية وتفضيلها على كل المناحي الاخرى ، ولا سيما في المناطق الخاضعة لتيارات شعوبية .

ان الاشتراكية هي نغمة العصر الحديث في العالم ، فلا خوف عليها ولا خوف منها . ونحن يمكننا ان نطبق ما يتلاءم مع مصالحنا القومية في ظرفنا الراهن هذا . وابو الاشتراكية « لينين » قد قال بوجوب مراعاة

---

(١) – ويمكن الايغال في الشرح في محادثات خاصة .

الزمان والمكان عند تطبيق الاشتراكية . وليس من المنطق ان نخسر ارضنا وقوميتنا وتراثنا في بعض المناطق السورية بحجة تطبيق الاشتراكية ، ذلك التطبيق الخاطىء الذي لا يحقق مصلحة ، ولا يغني ولا فئة من المواطنين .

وماوتسي تونغ جمد شعار التحرر الاجتماعي واطلق شعار التحرر الوطني ، وتعاون مع خصومه عندما وقع الغزو الياباني على الصين . وان بلاد العرب محتلة اجزاؤها من قبل اسرائيل ، فليكن شعارنا تحرير الوطن . فشعار التحرر الاجتماعي يزيد اليوم في تمزيق العرب ، اذ ان هناك اقطاراً عدة لا ترضاه ، والشعار الجامع هو القومية العربية .

«تاريخ حزب البعث العربي الاشتراكي» يكتبه احد مؤسسيه : نشأة الحزب ، ايامه الاولى ، علاقته مع حسني الزعيم واديب الشيشكلي وعبد الناصر ، دوره في مشاريع الوحدة السورية العراقية والسورية المصرية ، استلامه الحكم في العراق وسوريا ، خلافاته الداخلية .

جلال السيد احد الثلاثة الذين اسسوا حزب البعت لعب دوراً كبـــيراً في حياة البعث كحزب وكدولة ، وفي هذا الكتاب يروي عن البعث حزباً ودولة .

ل.ل ١١ او ما يعادلها